الفيصل

مجلة ثقافية شهرية . العدد ٢٨٥ . ربيع الأول ١٤٢١ هـ . يونيو / يوليو ٢٠٠٠م
ALFAISAL MAGAZINE - No. 285 - JUN / JUL. 2000

- المماليك والحمامات الحلبية
- حمل الرجل حقيقة أم خرافة؟
- الأزياء الشعبية اليمنية سماتها وخصائصها
- إنهم يعيشون بغذائنا!
- مخازن الكتب المخطوطة في طاجيكستان
- أزرا باوند الذي صنع العمالقة وخذل نفسه

متحف السودان رحلة عبر الأزمان



مستشفى التأمينات
INSURANCE HOSPITAL

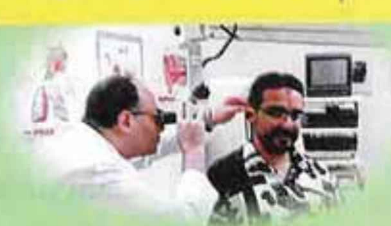
برامج المبالغ الشاملة المحددة

الجراحة العامة وجراحة المناظير



- إستئصال الزائدة بالجراحة العادية أو بالمنظار
- إستئصال المراره بالجراحة العادية أو بالمنظار
- إصلاح الفتق بالجراحة العادية
- إستخراج المياه البيضاء وزرع العدسة

قسم الانف والاذن والحنجرة



- إستئصال اللوزتين للبالغين
- إستئصال اللوزتين للاطفال
- إستئصال اللوزتين واللحمية للاطفال
- تصليح الحاجز والأنف

قسم النساء والولادة



- الولادة الطبيعية
- متابعة الحمل والولادة

التأهيل الطبي



- لمدة يوم . لمدة أسبوعان
- لمدة ثلاثة أسابيع . لمدة شهر

الفحوصات العامة



- الفحص الشامل للرجال / للنساء
- برنامج الفحص الطبي لمرضى السكر
- برنامج الفحص الطبي لمرضى القلب
- الفحص العام للأطفال

المسالك البولية



- أحدث جهاز لتفتيت الحصوات تحت إشراف استشاري المسالك البولية :-
  - بأستخدام نظام الموجات التصادمية
  - بدون تخدير . بدون مغطس ماء
  - بدون إقامة في المستشفى

هاتف ٤٩٧٥٣٣٣٠٠٠٠ فاكس الرياض حي الروابي

أعداد وتصميم إدارة التسويق والعلاقات العامة بمستشفى التأمينات



الناشر: دار الفيصل الثقافية

المحتويات

رسائلكم ٤

متاحف

متحف السودان:
رحلة عبر الأزمان — حسين حسن حسين ٦

تربية واجتماع

العنف في المدارس:
اليابان في حيرة — أبوبكر خالد سعدالله ١٧

بلاغة المقالة الاجتماعية:
مقوماتها الموضوعية
وخصائصها الفنية — الصادقي العماري ٢١

آثار وتراث

النشاطات الحرفية
والمهنية في صدر الإسلام — حسن عبدالغني أبوغدة ٢٨

مخازن الكتب المخطوطة
في طاجيكستان — صادق العبادي ٣٣

الأزياء الشعبية اليمنية:
سماتها وخصائصها — علوي عبدالله طاهر ٣٧

تاريخ

دنشواي.. جوهرة الشهداء — عبدالمقصود السعيد عبدالمقصود ٤٣

لغة وأدب

يد الشاعر: القيمة السحرية
للمخطوطات — عبدالغني حسيني محفوظ ٤٩

نحو معاجم مرحلية عربية
متطورة — أحمد محمد المعتوق ٥٥

المراحل الممهدة لنظرية
عمود الشعر في النقد
العربي القديم — شلتاغ عبود ٥٨

استطلاع

المماليك والحمامات الحلبية — رفاه محمد كامل ٦٥

علوم

حمل الرجل: خرافة علمية
أم حقيقة فعلية؟ — نبيل سليم علي ٧٥

إنهم يعبثون بغذائنا — يونس وهبي ٨٣

أعلام

نجم من سماء الأندلس:
الشاعر مؤمن بن سعيد — خالد عبدالكريم البكر ٩١

أزرا باوند.. الذي صنع
العمالقة وخذل نفسه — أنور صالح جعفر ٩٦

المسابقة ١٠٣

قصائد

إلى الصديق الذي قتلني — عبدالله بن صالح الوشمي ١٠٥

الرياض.. غادة البيد — جاسم محمد الصَّحَيِّح ١٠٦

ليتها تقوى يداي — باسم بكور ١٠٨

قصص قصيرة

ثلاث قصص قصيرة — محمود أبوفروة الرجبي ١٠٩

أتسمع نباح الكلاب؟ خوان رولفو ترجمة: علي عبدالرؤوف اليمني ١١٠

كنت حلماً — محمد سيف حيدر ١١٢

رحلة في كتاب

تاريخ إيران السياسي بين
ثورتين: آمال السُبكي — مراجعة: فؤاد حمد رزق فرسوني ١١٣

ردود وتعقيبات

إدارة الأزمات في التشريع
الإسلامي — ناصر إبراهيم عبداللطيف عون ١٢١

النقد الحر بعد الشعر الحر — محمد صلاح صالح ١٢٣

الملف الثقافي ١٢٥

ضوابط النشر

- يفضل طباعة المادة المرسلة على الحاسب الآلي، وإرسال نسخة على قرص مرن إن أمكن، أو كتابتها بخط مقروء على ورق A4 جيد، مع إرفاق سيرة ذاتية، وصورة ملونة حديثة.
- لا تفضل المجلة نشر المقالات الانطباعية التي تخلو من المعلومات.
- يرجى إرفاق صور أصلية ملونة جيدة مع الاستطلاعات والموضوعات الملونة، ولا تقبل الصور المأخوذة من الصحف والمجلات.
- في حال إرسال قصة مترجمة، يرجى إرفاق الأصل المترجم.
- لا تنشر المجلة الموضوعات المترجمة مباشرة من مجلات أجنبية، إلا إذا كان هناك إذن مسبق منها، وإن كان لا مانع من اتخاذها مصدراً من مصادر الموضوع، مع توضيح مواضع الاقتباسات بشكل علمي.
- المواد التي يعتذر من عدم نشرها لا تعني بالضرورة ضعف مستواها، ولكن قد تكون هناك مواد كثيرة في الموضوع نفسه سبق نشرها، أو تنتظر النشر. ولا ترد المقالات إلى أصحابها بأي حال من الأحوال.
- يرجى إرفاق صورة غلاف الكتاب الذي يتم عرضه في باب «قراءات» مع بيانات وافية عن الكتاب المعروض يشمل: عنوانه واسم مؤلفه ودار النشر ومقرها، وسنة النشر، وعدد الصفحات.
- الموضوعات التي مضى عليها وقت طويل ولم تنشر في المجلة سيتم الرد على الكتّاب بعد إعادة تقويمها بغض النظر عن أنها قد أجيزت من قبل للنشر.
- يرجى الاهتمام بالتوثيق، ومن أهم ما ينبغي مراعاته:
  - يفضل تخريج الآيات القرآنية من القرآن الكريم مع تشكيلها، وذلك بذكر اسم السورة ووضع نقطتين بعدها ورقم الآية.
  - يفضل تخريج الأحاديث الشريفة من كتب الحديث مع ذكر طبعة الكتاب.
  - التثبت من النقول التي تنقل من الكتب، ولاسيما المصادر والمراجع التراثية القديمة مع ذكر طبعة الكتاب.
  - تشكيل الشعر ما أمكن، وخصوصاً القديم منه.
  - ضبط أسماء الأعلام والشعراء والأماكن والأشياء غير المعروفة والكلمات غير المألوفة بالشكل الصحيح، والتأكد من أن أسماء الأعلام الأجانب مطابقة لما هو متداول في لغاتهم إن أمكن.

الموضوعات التي تنشر في المجلة تعبر عن آراء كتّابها، ولا تعبر بالضرورة عن رأي المجلة.

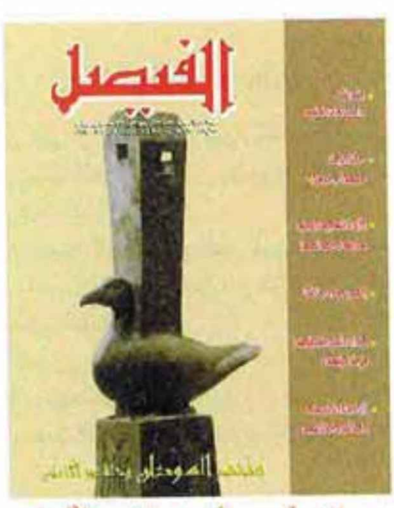
السعر الإفرادي:

السعودية ٨ ريالات ـ الكويت ٦٥٠ فلس ـ الإمارات ٧ دراهم ـ قطر ٧ ريالات ـ البحرين ٧٥٠ فلس ـ عُمان ٧٥٠ بيسة ـ الأردن ٥٠٠ فلس ـ اليمن ٦٠ ريالاً ـ مصر جنيهان ـ السودان ٧٠ ديناراً ـ المغرب ٨ دراهم ـ تونس دينار واحد ـ الجزائر ٨٠ ديناراً ـ العراق ٤٠٠ فلس ـ سورية ٣٠ ليرة ـ ليبيا ٨٠٠ درهم ـ موريتانيا ١٠٠ أوقية ـ الصومال ٢٠٠٠ شلن ـ جيبوتي ١٥٠ فرنك ـ لبنان ما يعادل ٤ ريالات سعودية ـ الباكستان ٢٠ روبية ـ المملكة المتحدة جنيه إسترليني واحد.

الموزعون

السعودية ـ الشركة الوطنية الموحدة للتوزيع ـ هاتف ٤٧٨٣٠٠٠، فاكس ٤٧٨٤٣٣٣، مصر ـ مؤسسة توزيع الأهرام ـ شارع الجلاء هاتف: ٣٣٩١٠٩٥ ـ فاكس ٣٣٩١٠٩٦ ـ ٢٠٢٠٠، سورية ـ المؤسسة العربية السورية لتوزيع المطبوعات ص.ب ١٢٠٣٥ هاتف ٢١٢٨٢٤٨، فاكس ٢١٢٢٥٣٢ ـ ١١ ـ ٩٦٣٠٠، تونس ـ الشركة التونسية للصحافة ـ ٣ نهج المغرب ـ فاكس ٣٢٣٠٠٤/ هاتف ٣٢٢٤٩٩ ـ ١ ـ ٢١٦٠٠، قطر ـ دار الشرق للطباعة والنشر والتوزيع ـ ص.ب ٣٤٨٨ هاتف ٦٦١٢٨٢ ـ فاكس ٦٦١٨٦٥ ـ ٩٧٤٠٠، الأردن ـ شركة وكالة التوزيع الأردنية ـ ص.ب ٣٧٥ هاتف ٤٦٣٠١٩١ ـ فاكس ٤٦٣٥١٥٢ ـ ٦ ـ ٩٦٢٠٠، البحرين ـ مؤسسة الهلال لتوزيع الصحف ص.ب ٢٢٤ هاتف ٢٩٤٠٠٠ ـ فاكس ٥٣١٢٨١ ـ ٩٧٣٠٠، الإمارات العربية المتحدة ـ مكتبة دار الحكمة ص.ب ٢٠٠٧ هاتف ٦٦٥٣٩٤ ـ فاكس ٦٦٩٨٢٧ ـ ٤ ـ ٩٧١٠٠، الجزائر ـ مؤسسة E.B.D. PRESSE لتوزيع الصحافة، ت ٤٨٦١٥٥٥ فاكس ٤٨٦٢٤١٥ ـ ٢١٣٠٠، الكويت ـ شركة المجموعة الكويتية للنشر والتوزيع ص.ب ٢٩١٢٦ ت ٢٤١٧٨١٠/١١/١٢ ـ فاكس ٢٤١٧٨٠٩ ـ ٩٦٥٠٠، السودان ـ دار التوزيع العام ـ ص.ب ٣٥٨ هاتف ٧٧٥٥٨٥ ـ فاكس ٧٧٥٧٧٠ ـ ١١ ـ ٢٤٩٠٠، المغرب ـ ٢٤٥٧٤٥ ـ CAS - SOCHPRESS - CAS - CASABLANCA MOROCO TEL: فاكس ٣٢/٤٠٤٠٣١ ـ ٢١٢٠٠، باكستان ٥٦٨٣١٩٤ PARADIS BOOK STALL - KARACHI 3. PAKISTAN TEL: ـ فاكس ٥٦٨٢٧٠٤ ـ ٢١ ـ ٩٢٠٠، الجمهورية اليمنية ـ محلات قائد التجارية ص.ب ٣٠٨٤ الحديدة هاتف ٢١٧٤٤٤ ـ فاكس ٢١١٥٣٥ ـ ٣ ـ ٩٦٧٠٠، سلطنة عمان ـ المتحدة لخدمة وسائل الإعلام ـ ص.ب ٣٣٠٥ روي ١١٢ ت ٧٠٠٨٩٥/ ٧٠٧٩٣٢ ـ فاكس ٧٠٦٥١٢ ـ ٩٦٨٠٠





متحف السودان رحلة عبر الأزمان

من يزر متحف السودان القومي الواقع في شارع النيل الشهير بالخرطوم يشعر في نهاية جولته أنه سافر عبر الزمان معايشًا أحداثًا حية وشخوصًا كأنه يراها رأي العين، ويندهش لما يتسم به هذا البلد العربي الإفريقي من تنوع ثقافي وعمق حضاري؛ إذ يضم المتحف آثارًا ترجع إلى ١٨ ألف عام قبل الميلاد، لتبدأ بذلك رحلة الحضارات التي تنتهي بالعهد الإسلامي.

إدارة التحرير:

رئيس التحرير: يحيى محمود بن جنيد
مدير التحرير: عبدالله يوسف الكويليت

المراسلات للتحرير والإدارة:

ص.ب (٣) الرياض ١١٤١١ ـ
المملكة العربية السعودية
هاتف: ٤٦٥٣٠٢٧ ـ ٤٦٥٢٢٥٥
ناسوخ: ٤٦٤٧٨٥١

الاشتراك السنوي:

١٥٠ ريال سعودي للأفراد، ٢٥٠ ريال سعودي للمؤسسات،
أو ما يعادلهما بالدولار الأمريكي خارج المملكة العربية السعودية.

الإعلانات:

هاتف: ٤٦٥٢٢٥٥ ـ ناسوخ: ٤٦٤٧٨٥١

رقم الإيداع في مكتبة الملك فهد الوطنية ١٤/٠٥٤٢
ردمد ١١٤٠ ـ ٠٢٥٨

لا تزال ثقافتنا بخير

لقد أسعدني كثيراً أن وجدت مجلتنا الغراء «الفيصل» في المكتبات، بعد أن طال غيابها عنا أمداً من الزمن، وها هي تعود للظهور بعد أن نعبت في مرادها الأقدام.

والحقيقة أن حياة الأمم والشعوب تقاس بقدر ما تقدمه هذه الأمم وهذه الشعوب من إنتاج فكري أصيل ناتج بالضرورة من التفكير المستمر والتأملات الطويلة.

وبناؤها الحضاري إنما يتأسس على العلم، ومقدار توقها إلى المعرفة والابتكار، فإن هجعت قوة الابتكار والإبداع في نفوس أبنائها توقفت مسيرتها، ورجعت القهقرى، وجاءها الخراب والاضمحلال من كل جانب.

وإذا كان واقعنا المعاصر ينبئ بهذا الركود وما آلت إليه الثقافة العربية من قصور وذبول وضمور؛ فلا تزال ثقافتنا بخير مادامت في أيدي مبدعيها.

وتأتي مجلتنا الغراء «الفيصل» ـ تلك الشعلة المباركة، والإشراقة النورانية، والمتعة الجمالية ـ كإحدى العلامات البارزة لثقافتنا العربية والإسلامية، التي ما تزال تنبثق أنواراً في هذا البحر الإعلامي المتلاطم.. وذلك بفضل حرص أسرة تحريرها على إخراج المجهود في صورة طيبة وعبقرية فذة، ولم تأل جهداً في تقديمها إلينا بأنصع لفظ، وأحسن بيان. وما زادها خصوبة ولمعاناً، وبحراً فياضاً، ودرة نادرة، عميق اتصالها بكتابها الأكفاء العظام، وقرائها الكرام، فأضحت كعبة الأدباء ومجمع العلماء، وكان لها الأثر البليغ في العقول والقلوب.

وأياً ما كان الأمر ـ كما تحدث الكاتب أحمد أمين ـ رحمه الله ـ فمن مظاهر رقي الأمة أن يكثر بريدها في المعاني والآداب والعلوم، فيكثر تعامل الأدباء، ويكثر التراسل بين الطلبة وأساتذتهم، والقراء ومجلاتهم، والسياسيين ورجالاتهم وزعمائهم وأتباعهم فإن هذا مظهر الحيوية العقلية والفكرية والاجتماعية، ودليل على أن للأمة مثلاً أعلى تنشده، وتسعى إليه، وتتجادل فيه، وتتخاطب في شأنه، وتتراسل في تمحيصه.

وأخيراً، إذا جاءكم المقال وألقى عصاه في مستقر بريدكم، فافسحوا للقادم في مجلسكم عند القدوم، ودعوه يعيش بنور القمر، ولا تبقوه في غياهب الجب.

وتفضلوا سيادة رئيس التحرير بقبول أسمى معاني الإخاء والاحترام والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

بومدين بن محمد موساوي
ولاية تلمسان ـ الجزائر

التحرير:
نشكر لك ما أبديته من رأي في المجلة، وثق أننا نفسح المجال لكل رسالة تأتينا من الإخوة القراء، فالبريد هو الرئة التي تحمل هواءً نقياً متجدداً لأي مطبوعة عامة حتى تستمر في العطاء.

إقبال على «الفيصل» في فيينا

تستلم الغرفة التجارية العربية النمساوية من حين إلى آخر مجلتكم القيمة من سفارة المملكة العربية السعودية الموقرة في فيينا، ولإقبال قراء مكتبة الغرفة على مجلة الفيصل لما تحتويه من مواضيع ثقافية متنوعة وشائقة تشكل رابطاً طيباً ومستمراً بوطننا العربي؛ نكون شاكرين الفضل في إمداد الغرفة بنسخة من مجلتكم بشكل منتظم.

أنور العمد
الغرفة التجارية العربية النمساوية

التحرير:
نشكر لكم رسالتكم الرقيقة، وسوف تصل إليكم أعداد المجلة بانتظام ـ إن شاء الله ـ مرحبين بآرائكم من أجل إيجاد مزيد من الروابط العميقة مع الإخوة العرب والمسلمين في بلاد المهجر.

موسوعة العلماء

أرجو أن تتبنى «الفيصل» فكرة مهمة مضمونها التعريف «الشامل» العلمي الموثق لأعمال العلماء العرب في العصر الحديث، سواء المهاجرون منهم أو المقيمون في أوطانهم، وسبب حرصي على ذلك هو ملاحظتي المتكررة للطلبة في المدارس إذا أرادوا بحثاً عن أحد العلماء فإنهم يسألون عن إديسون مثلاً أو فلمنج أو غيرهما من علماء الغرب، ولا يوجد ـ حسب علمي ـ الدليل الشامل الواضح الذي يعرِّف بأعمال علمائنا العرب في العصر الحديث موازنة بأعمال أقرانهم من علماء الغرب.

فأرجو التكرم بإدراج هذا الموضوع ضمن اهتمامات الفيصل. كما أرجو، وألح في الطلب، أن ترسلوا لي عدد الفيصل الذي يعرِّف بالعلماء الفائزين بجوائز مسابقة الملك فيصل العالمية، وذلك للغرض السابق. مع شكري وتقديري.

إسماعيل حامد إبراهيم
ص.ب ٢٩٢٩٢ ـ البحرين

التحرير:
نشكر لك ثقتك الغالية، أما بخصوص اقتراحك فإنه أحيل إلى مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية للنظر فيه، وسوف تصل إليك الأعداد التي تعرِّف بالفائزين بجائزة الملك فيصل العالمية.

روح جديدة

أود أولاً أن أشكر لكم جزيل الشكر التجديد الذي طرأ على مجلتنا العزيزة «الفيصل» التي أقول لكم وبصدق: إنني أنتظر وصولها كل شهر بصبر نافد وتردد على المكتبات سائلاً: هل وصلت الفيصل أم لا؟

هذا التجديد الذي اكتشفته عندما قرأت العدد ٢٧٤ بسرور بالغ وفرحة بالتجديد والتطوير الذي أثمن عالياً جهدكم البالغ فيه نحو الأفضل.

إنني مدينة جداً لهذه المجلة الرائدة في الثقافة العربية في تكوين ثقافتي وأفكاري إذ إنني متابعة منذ زمن للفيصل، ولكن أقولها وبصدق: إنها في المرحلة الأخيرة «قبل التجديد» قد أصبحت باهتة بعض الشيء لاقتصارها على الموضوعات الأدبية واللغوية فقط، وافتقارها إلى الموضوعات العلمية والتاريخية والاستطلاعات. ففاتني من جراء ذلك بعض الأعداد التي طرأ عليها التجديد الذي بث روح المتعة والفائدة في نفس القارئ، فأطلب منكم وأنتم الذين عودتمونا الجود والكرم أن تتفضلوا بإرسال الأعداد الأربعة التي تنقصني وهي ٢٧٠، ٢٧١، ٢٧٢، ٢٧٣.

قد أكون متأخرة في طلبي هذا، ولكن ذلك يعود إلى ترددي أأكون محرجة لكم أو متثاقلة عليكم بطلبي هذا؟ حسن ظني بكم وبجودكم أكبر من ذلك.

نائلة أمونة
ص.ب ١٠٨٤٥ . حلب . سورية

التحرير:
نشكر لك هذا الإطراء، ونتمنى أن نكون دومًا عند حسن ظن الإخوة القراء، والأعداد التي طلبتها سوف تصل إليك قريبًا، إن شاء الله.

قدرات تنتظر الانطلاق

تحية تقدير أبعثها إليكم، فلن أنسى أبدًا ترحيبكم بي عندما كتبت لكم أول مرة. ولكن أظن أنكم غضبتم عندما سألت عن السبب الذي دفعكم إلى عدم نشر قصتي، لكن صدقوني فأنا لم أقصد أن أثير غضبكم، وإنما أردت أن أتعرف شروط الكتابة في مجلتكم، فأنا أعرف أنكم تركزون في المجلة على الدراسات، لكن ألا تنشرون القصص إلى جانب الشعر كما لاحظت؟.

إذن، كان قصدي هو فهم شروطكم لقبول نص الكاتب، حتى أحظى في يوم ما بأن تنشروا لي كما وعدتموني سابقًا، وأن أكون قلمًا يخدم المجلة بكل طاقته. ولتعريفكم بنفسي، فأنا أكتب القصة والرواية، والمسرحية والخاطرة، والدراسة الأدبية والفلسفية، كما أن لي قدرة على تعرف شخصية المرء من خلال خطه، والله على ما أقول شهيد. إلى جانب ثقافتي المطلعة على علم النفس وعلم الاجتماع وغيرهما.

وقد كتبت لكم سابقًا، وطلبت منكم أن أبعث دراسة في إطار الأدب المقارن - المدرسة الأمريكية - بين لوحة ورواية، وفضلت أن تكون مجلتكم الناشرة لهذا العمل؛ لأني أفضلها وأحبذها. وأنا أرى وأستاذي الذي أشرف عليّ شهد لي بأن العمل سابقة في نوعها، فهل أبعث به إليكم؟!

أرجو أن تجيبوني وتكرموني بالرد.

على كل حال، أؤكد لكم بأنكم لن تندموا على تعاملكم معي. لأنني أمتلك مواهب، أبحث لها عن موجه ومساند، لأن الزهرة تحتاج دائمًا إلى من يرعاها حتى تصبح ثمرة صالحة للأكل.

أرجو المعذرة بسبب الإطالة، ولكنني أردت أن أشرح موقفي لديكم؛ لأني بعثت برسالتين، ولم أتلق ردًا منكم. فأرجو أن يكون المانع خيرًا، وألا أكون قد نسيت لديكم.

أتمنى أن أتلقى ردًا على رسالتي هذه. مع أمالي الكبيرة في البقاء على وصال معكم لا انقطاع له بإذن الله.

فتيحة بن دودة
٦٠، شارع محمد مراد - ابن سينا (فيكتور هيغو سابقًا) - وهران - الجزائر

التحرير:
نشكر لك بداية اهتمامك بنشر إنتاجك في «الفيصل»، ونود أن تعلمي أنه ليس هناك ما يجعلك تظنين بنا الغضب منك، لأن رسالتنا مقدمة للقارئ العربي، وعلاقتنا به تقوم على احترام وجهة نظره مهما كانت، وصفحات المجلة مفتوحة للجميع ممن يملكون إمكانات الإسهام في إطار سياستها التحريرية، ونرحب كثيرًا بتلقي أعمالك الإبداعية في مجال القصة، ونود هنا تأكيد احترامنا لكل رسالة تردنا ونسعى إلى نشرها بالوسائل الممكنة، كما أننا لا يمكن أن نصدر أحكامًا على مقالات الكتاب من دون قراءتها، لذا نأمل إرسال ما لديك من مقالات حتى يمكننا أن نحدد موقفها من النشر، ولا يمكننا الحكم على مواهبك في تعرف شخصية المرء من خطه، فهذا موضوع يطول فيه الجدل، ويكفينا أن نكتشف مواهبك الإبداعية في ميدان الأدب.

ردود سريعة

الأخت أحلام حسين محمد القرياني - صنعاء - اليمن:
نتمنى لك نحن أيضًا الفوز بإحدى جوائز المسابقة، وسوف نحاول قدر الإمكان أن نرسل إليك بعض الأعداد الصادرة في عام ١٩٩٤م، ونشكر لك إطراءك على المجلة ومستواها من حيث المادة التحريرية والإخراج.

الأخ سالم عمامو - ولاية المنستير - تونس:
نشكر لك بطاقة التهنئة التي أرسلتها تعبيرًا عن مشاعرك تجاه «الفيصل»، ونأمل أن تكون المجلة دومًا عند حسن ظن قرائها.

الأخ م.إ.ف. دمشق - سورية:
كنا نود أن تكتب اسمك بوضوح، لأنه لا داعي لإخفاء اسمك واتخاذ رموز بدلا منه.
وما أوردته من رأي فيه كثير من الصواب، وليس من الحكمة إصدار الأحكام جزافًا من غير علم أو تثبت.

الأخت بهيجة غنام - باتنة - الجزائر:
نشكر لك حرصك على التواصل مع المجلة، ومادمت تكتبين الشعر، فإننا نأمل منك إرسال إنتاجك، لعله يجد طريقه إلى النشر إذا كان مستوفيًا شروط النشر في المجلة.

الأخ بروك بن الطاهر - ولاية بشار - الجزائر:
سبق أن أشرنا أكثر من مرة أن المجلة تفضل أن يكون التعارف بين قرائها من خلال تبادل الأفكار بالإسهام بالكتابة في المجلة، لأن هذا أجدى من أركان التعارف التي قد يكون ضررها أكثر من نفعها، فمرحبًا بك صديقًا مساهمًا بالكتابة في المجلة.

م. خالد بن صالح الجناحي - عنيزة - السعودية:
سوف يصل إليك ما طلبته من معلومات عن قواعد المعلومات المتخصصة وغيرها من إصدارات مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، آملين أن تجد فيها النفع والفائدة.

الأخ السيد عمر بنمحمد - ثانوية ابن خلدون الجديد - المغرب:
اقتراحك الخاص بإصدار مقالات الدكتور حسن ظاظا - رحمه الله - في كتاب سيجد الاهتمام، وسوف نحاول أن نرسل إليك بعض أعداد السنة الأولى من عمر المجلة.



حسين حسن حسين
مجلة الفيصل - قسم التحرير

تصوير: يحيى شالكا
الخرطوم - السودان

شارع النيل هو أشهر شارع في العاصمة السودانية (الخرطوم)، وترتبط أهميته بأهمية النيل الخالد شريان الحياة لهذا البلد العربي الإفريقي، ولغيره من الدول الإفريقية التي تستمد أسباب الرزق من مائه العذب وهو يجري رقراقا.



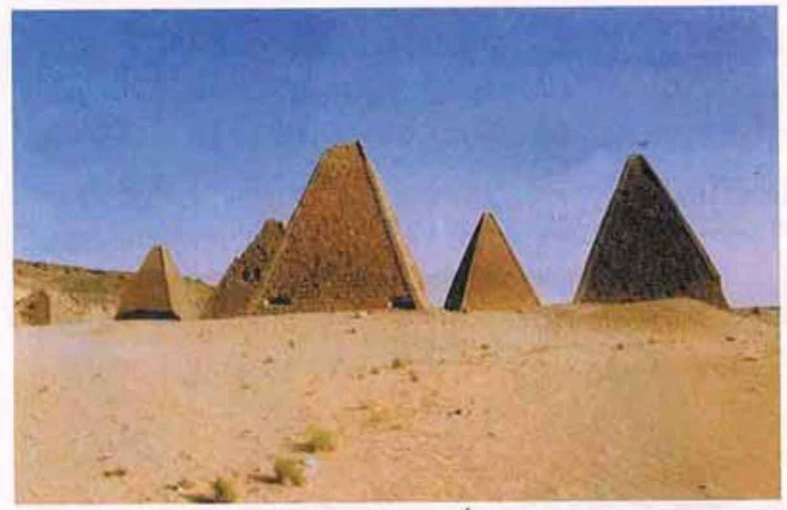
واجهة المتحف

من يشق شارع النيل بالقرب من ملتقى النيلين الأزرق والأبيض في طريقه إلى متحف السودان القومي يجد الأشجار الضخمة المعمرة قد حفته من كل جانب، فاكتسى خضرة تخالطها زرقة ماء النيل وزرقة السماء، بينما نسمات الهواء تخفف من حرارة الشمس.

ومما يلفت الانتباه في هذا الشارع، غير الماء والخضرة، ذلك الجمال الذي يتبدى في المعمار، إذ ترى القصر الجمهوري وقد تزيا زيًا أبيض رائق البياض، دون أن يتأثر بتقلبات الأحوال السياسية التي يشي بها تغير ساكنيه من حين إلى آخر، وهذا المبنى من أجمل ما ترك الإنجليز إلى جانب الفندق الكبير المعروف بـ: Grand Hotel والمشهور بأبهة بنائه وعراقة طرازه المعماري، ويليه فندق السودان،

وهو أقل فخامة من سابقه، وكان إلى جوارهما حديقة الحيوانات التي كانت تجمع أندر الحيوانات التي اشتهر بها السودان في الفيافي والسافانا والغابات، ولكنها تحولت اليوم إلى حديقة كغيرها من الحدائق، ثم تأتي قاعة الصداقة التي أقامها الصينيون في عهد الرئيس الأسبق جعفر نميري. ويحتل فندق «الهيلتون» موقعا متميزًا في هذا الشارع محاطًا بحدائق ٦ إبريل التي يشير اسمها إلى الانتفاضة الشعبية التي أنهت حكم جعفر نميري، وفي مقابل متحف السودان على الضفاف مباشرة توجد مجموعة من الكازينوهات الحديثة، ومدينة كبيرة للملاهي تحمل اسم المقرن؛ إشارة إلى اقتران النيل الأبيض بالنيل الأزرق، أما جزيرة توتي فتزهو مزدانة بثوبها الأخضر، والماء يناوشها من كل الجهات.

كان لابد من إعطاء هذه المقدمة التي قد تبدو طويلة ليقف القارئ على طبيعة المكان المحيط بمتحف السودان القومي، ويعرف بعض معالم الخرطوم الحديثة، قبل أن ندلف إلى داخله، ونتجول فيه، وهو يفتح صفحات الماضي السحيق الذي تحتضنه جنباته ككتاب عزيز نادر، لكل صفحة من صفحاته حضورها المميز بما تضمه من صور وشخوص وأحداث تمازجت جميعها في إيجاد السودان الذي نعرفه اليوم.



أهرامات جبل البركل



الدفوف الشرقية في كرمة

وكانت البداية

كانت بداية إنشاء المتحف في عام ١٩٠٤م، في المبنى الخاص بجامعة الخرطوم حاليًا، حيث كانت هناك غرف لعرض بعض الآثار، أما انتقاله إلى مبناه الحالي فكان في عام ١٩٧١م، وضم الآثار التي كانت في المبنى القديم إلى جانب نتائج التنقيب التي تمت في وسط السودان وشماله، والآثار التي نقلت من شمال السودان عند قيام السد العالي، إذ إن هناك حملة عالمية لإنقاذ آثار النوبة قامت بها منظمة اليونسكو قبل بناء السد العالي.

ويتبع المتحف حاليًا الهيئة القومية للآثار والمتاحف التي تتشكل من ثلاث أمانات: الأولى: أمانة الكشف الأثري ودورها الإشراف على الأعمال التي تتم في المواقع الأثرية وجمعها وتصنيفها، والثانية أمانة المتاحف، ومسؤوليتها عرض الآثار والإشراف على

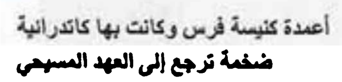
المتاحف في السودان، والثالثة أمانة الترميم والصيانة التي تقوم بترميم المقتنيات الأثرية الثابتة، كالمعابد والأهرامات والمباني، والآثار المنقولة، كتلك التي يتم عرضها في المتاحف.

كما تضم الهيئة القومية للآثار والمتاحف التي كانت تحمل في السابق اسم مصلحة الآثار إدارات للمكتبة والتوثيق والنشر والتطوير والصيانة الهندسية والشؤون المالية والإدارية.

وكان أول قانون للآثار قد صدر في عام ١٩٠٥م، واستمر العمل به إلى صدور قانون آخر في عام ١٩٥٢م، ثم صدر في شهر نوفمبر/تشرين الثاني من العام الماضي قانون لحماية الآثار، قام مدير الهيئة بعرضه في مؤتمر الآثار الخامس عشر الذي انعقد بدمشق في شهر مارس/ آذار الماضي برعاية المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم (إيسيسكو).



أسود تمثل الإله أبديماك المعروف في العهد المروي والذي أنهى عبادة الإله آمون



تمثال آمون وهو يحمي ترهاقا

المدخل والحديقة

عندما تضع قدميك على مدخل المتحف تواجه لوحات تزين جدران صالة صغيرة مخصصة لقطع تذاكر الدخول، وهذه اللوحات تقليد للوحات مماثلة ترجع إلى التاريخ المسيحي يجدها الزائر في داخل المتحف، وبعد المرور من الصالة يجد الزائر نفسه في حديقة تشقها بحيرة اصطناعية تتناثر على ضفتيها آثار ترجع إلى عصور مختلفة، فهناك ثلاثة أسود تمثل المعبود أبديماك الذي كان معروفاً في العهد المروي (٣٠٠ ق.م - ٣٥٠م). وقد وضع النهاية للمعبود آمون الذي كان يصور في شكل كبش، وهو يجلس في مقابل الداخل إلى المتحف بعد الأسود الثلاثة، حاملاً تهارقة الملك النوبي الذائع الصيت، وهناك تمثالان كبيران للملك أنلاماني أحد الملوك المرويين، وتقف أعمدة كنيسة فرس التي تم

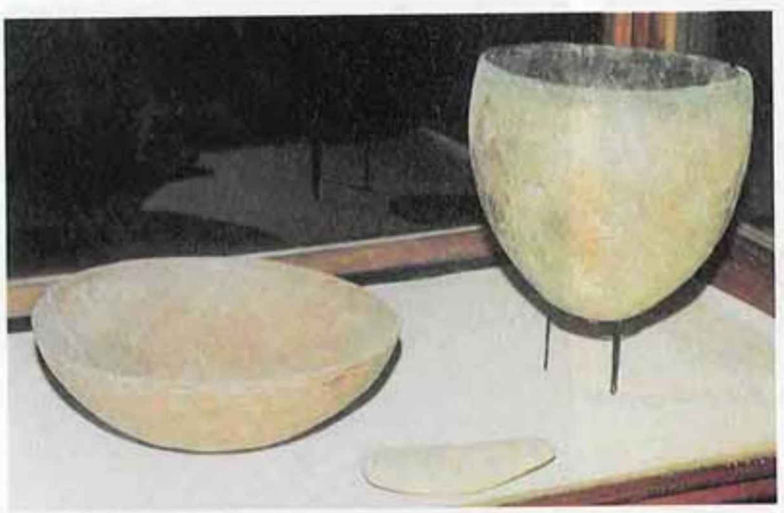
أعمدة كنيسة فرس وكانت بها كاتدرائية ضخمة ترجع إلى العهد المسيحي



إنقاذها ضمن آثار النوبة على يمين الداخل إلى الحديقة، وعلى ضفة البحيرة الاصطناعية في محاولة لمحاكاة بيئتها الطبيعية، ويرجع تاريخها إلى الفترة المسيحية (نحو القرن الثامن الميلادي)، وهي بقايا كاتدرائية ضخمة كانت في قرية فرس السودانية الواقعة عند الحدود الفاصلة بين مصر والسودان، وكانت تقع على الضفة الغربية على بعد ٣٨كم شمال مدينة وادي حلفا، وورد اسمها «أبشك» في النصوص الفرعونية، وعرفت في العصر المسيحي بـ «باخوراس» و«برس»، وكانت فرس عاصمة مملكة نوباتيا المسيحية التي كانت تمتد من الشلال الأول شمالاً إلى الشلال الثالث جنوبًا.

وهذه الأعمدة من الجرانيت، بينما كانت الجدران من الطين الأخضر مما صعب من مهمة إنقاذها، فغمرتها مياه النيل.

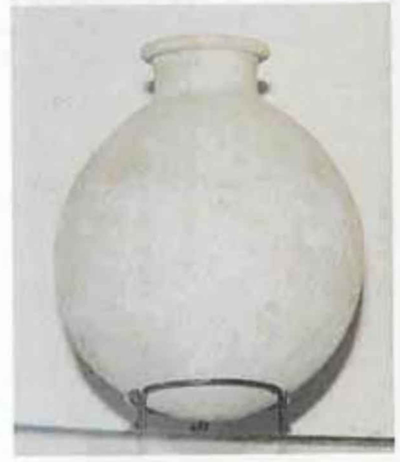
وقد وجدت في فرس بقايا حضارات غابرة من مقابر (جبّانات) أثرية، وقلاع ومعابد وكنائس يمتد تاريخها من عهد المجموعة الحضارية الأولى (٣١٠٠ ق.م) إلى القرن الماضي.



فخار من العصر الحجري (الشاهيناب)



فخار من العهد النبتي



جرة بطلاء أبيض من أميكول (حضارة كرمة)

وبعد هذه الجولة في حديقة المتحف، يجد الداخل إلى الصالة الرئيسة في المتحف أن التسلسل التاريخي هو المنهج الذي اتبع في تنظيم المقتنيات، وعليك أن تبدأ جولتك في هذه الصالة بإلقاء نظرة على خريطة لأهم المواقع الأثرية في السودان. وأول ما تستنتجه من هذه النظرة هو أن تمركز الآثار في المنطقتين الشمالية والوسطى لما شهدتهما هاتان المنطقتان من حضارات عظيمة تميزت آثارهما بالحجم الكبير مشاركة الحضارة الفرعونية في هذه الصفة، حيث تضمان القلاع والحصون والأهرامات والتوابيت والمقابر وغيرها. ولعل استقرار أحوالهما من أسباب نشاط الكشف الأثري فيهما.

آثار ما قبل التاريخ

وأول العصور التاريخية التي تقع عين الزائر على آثاره هو عصور ما قبل التاريخ المعروفة بالعصور





شكلان من أشكال الفخار (حضارة كرمة)



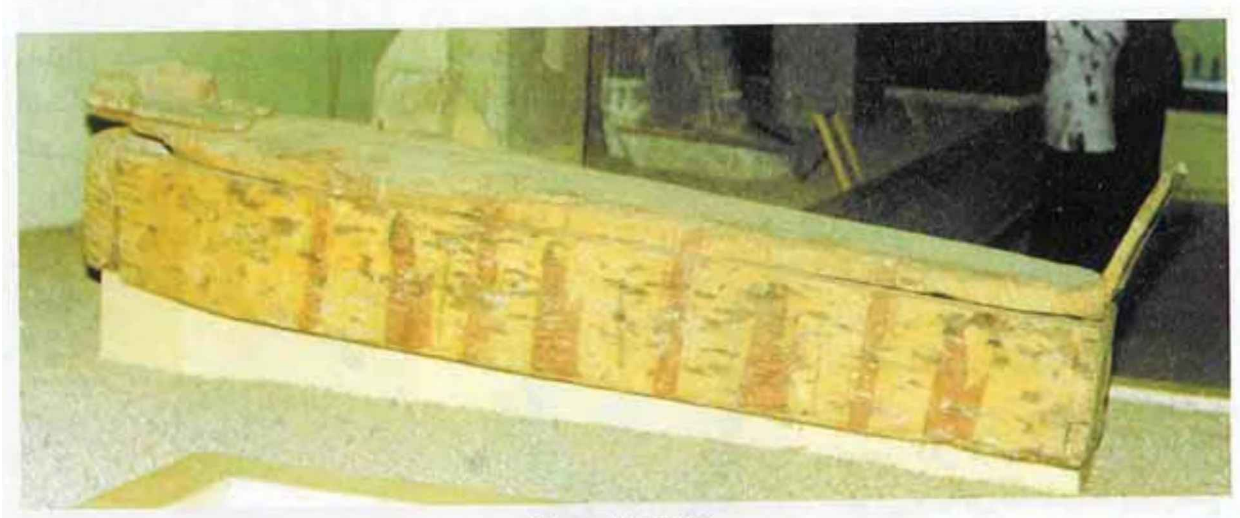
وجها كأس من الزجاج (حضارة مروي)

الحجرية التي تعد «معلوماتنا عنها محدودة ...إلا أننا نعلم من الأدوات الحجرية التي وجدت على سطح الأرض أن الإنسان سكن السودان في العصور الحجرية، وأنه مر تقريباً بنفس الأدوار التي مر فيها إنسان أوربا والأماكن الأخرى في القارة الإفريقية، ولكن من الحفائر التي أجرتها مصلحة الآثار السودانية نجد أن جنساً زنجياً اتخذ أول خطوة نحو الحضارة في السودان نعرفها حتى الآن، وكان ذلك بصناعة الفخار واستعماله»(١).

ويضم المتحف من آثار هذه العصور أوانٍ فخارية كبيرة الحجم مزخرفة بخطوط متموجة، وكان أصحاب هذه الحضارة في بدايتها يعيشون على صيد الأسماك والحيوانات وجمع الثمار، وإن كان لا يوجد ما يفيد معرفتهم بالزراعة أو استئناسهم الحيوان.

ويشار إلى أن هذا الجنس الذي خلف تلك الحضارة كان مختلفاً عن أي جنس زنجي يعيش اليوم، فكان وجه الفرد منهم كبيراً وفكه ضخماً بدرجة غير مألوفة، وكانوا يزيلون سنين قاطعين من الفك العلوي على عكس ما هو متبع عند قبائل سودانية زنجية اليوم تزيل سنين قاطعين من الفك السفلي(٢).

ويقسم الباحثون العصور الحجرية إلى عصر حجري قديم تمثله حضارة خور أبو عنجة في أم درمان من عام(١٨٠٠٠ق.م)، وعصر حجري وسيط تمثله حضارة الخرطوم القديمة، وتم الكشف عنها في موقع مستشفى الخرطوم القديم، وتعود هذه الحضارة إلى الفترة من (٨٠٠٠ ـ ٦٠٠٠ عام ق.م)، بينما العصر الحجري الحديث تمثله حضارة الشاهيناب بأم درمان وترجع إلى ٤٠٠٠ عام قبل الميلاد، وفيها تم استئناس الحيوانات.



تابوت عليه رسومات

وتميزت حضارة الشاهيناب بالفخار المصقول، وزخرفة الفخار بالمحار، وتزيين حافة الأواني، كما صنع أهلها الخرز من قشر بيض النعام، ومن حجر الأمزون ذي اللون الأزرق والأخضر، كما صنعوا أدوات الزينة من العظم والحجر.

ويشير الباحثون إلى أن هذه الحضارة سابقة على حضارة الفيوم التي هي أقدم حضارات العصر الحجري الحديث في مصر، التي عرفت الزراعة ورؤوس الحراب الحجرية المتطورة.



لوحة ترجع إلى عهد الدولة المصرية الحديثة

حضارة المجموعات

تلت العصور الحجرية ثلاث مجموعات حضارية في بلاد النوبة، وليس هناك معلومات كثيرة عنها، كما لا يعرف شيء عن الفترة من (٣٨٠٠ - ٣١٠٠ عام ق.م)، المعاصرة لحضارات ما قبل الأسرات في مصر.

وقد وجدت عدة قبور في بلاد النوبة تمثل حضارة المجموعة الأولى، وهي ترجع إلى نحو ٣١٠٠ عام ق.م، كما تم العثور على بعض الأواني الفخارية، والأدوات النحاسية في هذه القبور، ويُظن أنها استوردت من مصر، وينتمي مؤسسو هذه الحضارة إلى جنس البحر المتوسط.

ومن آثار هذه الحضارة الخزف الرقيق الجدران والمصقول باطنه الأسود إلى جانب رسوم وزخارف دكناء على أرضية حمراء.

وكانت أول حملة رسمية من مصر على بلاد النوبة في عهد الملك سنفرو مؤسس الأسرة الرابعة، ويقابلها في السودان حضارة المجموعة الثانية، وقد ازدهرت فيها العلاقات التجارية مع مصر. وذكرت أخبار هذه الحملة في حجر «بالرمو» الذي يرجع إلى نحو ٢٩٠٠ ق.م؛ وهو محفوظ في متحف «بالرمو» بجزيرة صقلية.

أما المجموعة الحضارية الثالثة والمرجح أن تكون مدتها بين (٢٢٤٠ ق.م - ٢١٥٠ عام ق.م)، فتقابلها في مصر الفترة الواقعة بين الأسرتين السادسة والحادية عشرة. ومن مخلفات هذه الحضارة التي تجدها في المتحف أوانٍ فخارية حمراء اللون، لها فوهة سوداء، وفخار أحمر له فوهة محزوزة،

وأطباق عليها حزوز بيضاء، كما وجدت مرايا من النحاس وقلائد من الخرز، وأساور مصنوعة من الحجر أو العظم.

واشتهر أهل هذه الحضارة بتربية الأغنام والمواشي، فكانوا يدفنون رؤوسها حول مقابرهم، بل هناك رسوم للمواشي على أوانيهم الفخارية، وكانت ملابسهم من جلود الحيوانات، كما عثر على بعض قطع الكتان في مقابرهم.

حضارة كرمة (٢٥٠٠ ق.م - ١٥٠٠ عام ق.م)

أثبتت الدراسات التي قامت بها البعثة السويسرية بقيادة شارلس بوني أن هذه الحضارة هي حضارة نوبية خالصة، وقد تميزت بشكل إداري منتظم، واستقرار سياسي، وعرفت عادات دفن غريبة جداً، فكان الدفن يتم في مدافن ضخمة، فيوضع الميت على عنقريب - نوع من السرير معروف إلى اليوم في السودان - له أرجل مغطاة بالذهب، ومعه كل مستلزماته من مراوح يدوية من ريش النعام، ومساند للرأس، وهي تتميز بقاعدتها الطويلة نسبياً على عكس مساند الرأس المصرية المعروفة بقاعدتها القصيرة، وقد دفن معه بعض القرابين الحيوانية والبشرية، بل إن بعض المقابر الكبيرة ضمت نحو ٢٠٠ - ٣٠٠ شخص من الرجال والنساء دفنوا مع سيدهم، مما يشير إلى وجود طبقات في المجتمع، وشكل من أشكال التدرج الإداري، وقد أكد ذلك ما وجد من أختام خاصة، وآثار لقصور كانت قائمة، وتوضح الدراسات أن هذه الحضارة عرفت نظاماً للملك.

ومن أكثر ما تشتهر به حضارة كرمة الفخار المصقول ذو الفوهة السوداء، وبدأ فيها استخدام الطوب الأحمر، وصهر النحاس إلى جانب استخدام البرونز. وانتشرت فيها

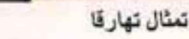


رأس مجوف من البرونز لهاتور وعليه طلاء ذهبي من العهد المروي

رجل عنقريب «سرير» من الفترة النبتية

شكل من أشكال الإله آمون وهو بين إلهين





تمثال تهارقا



تمثال أتلانيرس بن تهارقا



تمثال من الجرانيت للملك أنلاماني حفيد تهارقا

عادة التحلي بالأقراط المستديرة الأسطوانية الشكل.

وأقامت هذه الحضارة علاقات متميزة مع الحضارة المصرية، ومن أهم آثارها الدفوف الشرقية والغربية، وهي مبنيان من اللبن، وتشابه معبد جبل البركل الذي يرجع إلى عهد حضارة نبتة.

عهد الدولة المصرية الحديثة

تشير المصادر التاريخية إلى أن تحتمس الأول ثالث ملك في الأسرة الثامنة عشرة هو من وسع نفوذ مصر في عهد الدولة الوسطى، وهناك لوحة شهيرة في قرية تمبس جنوب الشلال الثالث (شمال السودان) تدل على انتصاراته، وفي عهد تحتمس الثالث تم احتلال السودان حتى الشلال الرابع مدة ستة قرون.

واعتنق السودانيون الديانة المصرية، وتثقفوا بثقافتها، وأصبح السودان جزءاً لا يتجزأ من مصر، ومن آثار هذه المرحلة المعابد الفخمة.

وكان فراعنة الدولة الحديثة يعينون نواباً لهم لإدارة شؤون السودان، وكان نائب الملك بوصفه أعلى موظف مسؤولاً عن توريد الجزية، وكان يختار من المقربين للفرعون.

ومن الجزية التي كانت تقدم بعض الصناعات اليدوية المحلية من زهريات فاخرة، وكراس ودروع وأقواس، إلى جانب الذهب الذي كان أهم المنتجات، كما كان هناك الأبنوس والعاج والعطور والبخور وريش النعام وأنواع الحيوانات من فهود وزرافات وقردة وكلاب الصيد والماشية، مما جعل للسودان دوراً كبيراً في ازدهار الحضارة المصرية، كما طبعت حضارة السودان بالطابع المصري في جميع مرافقها، واستخدمت الكتابة المصرية.

ومن الآثار الموجودة في المتحف التي ترجع إلى هذه الحضارة لوحة جنائزية ضخمة يسرد فيها الفرعون الانتصارات التي تحققت في فترة حكمه، وتابوت عليه رسومات لبعض الآلهة.

حضارة نبتة

نجح كشتا أول عظماء ملوك كوش في الاستقلال عن مصر، وأقام عاصمة ملكه في نبتة أسفل

الشلال الرابع، وتمكن ابنه بعانخي (٧٥١ ـ ٧١٦ عام ق.م)من احتلال مصر في عام ٧٢٥ ق.م، وأسس دولة امتدت من البحر المتوسط حتى مشارف الحبشة، واستمر حكم الكوشيين لمصر نحو ثمانين عامًا، وهم يمثلون الأسرة الخامسة والعشرين في التاريخ المصري، وعادوا إلى حدودهم متراجعين أمام جحافل الأشوريين. ومن أعظم ملوكها تهراقا الذي يعرف أيضًا بـ «ترهاقا» و«تهراقا» و«تهارقا»، ويذكر المؤرخون(٣) أن اسمه قد ورد في التوراة. حيث كان الملك شبتكو قد تحالف مع أمير مدينة صور الفينيقية، وملك يهوذا المدعو حزقيال، وعدد من رؤساء القبائل العربية في جنوب فلسطين، وأمراء المدن الفلسطينية ضد الملك الأشوري سنحريب الذي هزمهم جميعًا، وكان يقود جيش وادي النيل ترهاقا (تهارقا). ويوجد في المتحف تمثال لابنه أتلانيرس، كما يوجد تمثال لحفيده الأكبر أنلاماني (٦٢٣ ـ ٥٩٣ق.م). ويوجد رأس من الجرانيت الأحمر للملك تهارقا في المتحف المصري، إلى جانب رأس من الديوريت الأسود كان



تاج عمود من الحجر الرملي به نحت يمثل أغصانًا تنتشر حول القاعدة من كنيسة فرس (العصر المسيحي)

عليه ريشتان فقدتا، ويحتفظ متحف أثينا بتمثال صغير من البرونز، وهو جالس على أطراف الأصابع والركبتين.

كما تضم متاحف اللوفر، وتل النبي يونس بالعراق، وكوبنهاجن تماثيل لتهارقا.

وشاد ملوك نبتة المقابر على الطريقة المصرية، وزينوها بالرسوم المصرية، والنقوش الهيروغليفية.

حضارة مروي

ازدهرت حضارة كوش في هذا العهد بعد انتقال عاصمتها من نبتة إلى مروي (البجراوية حاليًا) في القرن السادس قبل الميلاد، وذلك في زمن الملك أسبلتا (٥٩٣ ـ ٥٦٨ق.م) وتميزت بالأهرامات الملكية، والمعابد، ومنها معبد الشمس، وقد نال هذا المعبد اهتمام الباحثين وكتب عنه المؤرخ هيرودت، كما ازدهرت فيها صهر الحديد، حتى وصفت ببرمنجهام إفريقية القديمة، وكان ذلك سببًا في إحداث تحول كبير في نمو الحضارة وتقدمها في قارة إفريقية.

وفي ظل هذه الحضارة حدث تحول من عبادة



عتبة كنيسة فرس

الإله أمون إلى عبادة الإله أبديماك، كما ظهرت اللغة المروية التي لم تحل رموزها بعد.

ويذهب بعض الباحثين إلى أن أهل هذه الحضارة كان لهم اتصال بأهل الحضارات الأخرى، ويدللون على ذلك بمعبد الأسد الذي نقش فيه إله على شكل أسد، له أربع أذرع وثلاثة رؤوس، ويظن أن ذلك من تأثيرات الحضارة الهندية، إضافة إلى أن هناك بعض تأثيرات الحضارة الرومانية التي تظهر في آثارهم. وقد حقق المرويون انتصارات على الرومانيين بقيادة الملك ترتقاس وزوجته الملكة أماني ريناس الملقبة بالكنداكة، وواصل ابنهما أكنداد ومعه أمه الملكة كنداكة الانتصارات، ومن ضمن ما غنمه الجيش المروي تماثيل للإمبراطور الروماني أغسطس، وقد عثر على تمثال برونزي له، نقل إلى المتحف البريطاني في لندن، وتوجد نسخة طبق الأصل منه في متحف السودان القومي.

وكانت نهاية حضارة كوش، وانهيار عاصمتها مروي في عام ٣٥٠م، على يد الملك المسيحي عيزانا ملك دولة أكسوم الحبشية.

ويضم المتحف من آثار هذا العهد أواني برونزية ومجوهرات وفخاريات.

المجموعة الغامضة X Group

العجيب أنه قد مرت فترة غامضة على السودان في أعقاب سقوط الحضارة الكوشية، واختلفت آراء العلماء حول القوم الذين جاؤوا في هذه الفترة هل هم من البجة، أم إنهم نوبيون؟، وقد أطلق عليهم المجموعة (×)، ويمتد هذا العصر من سقوط مروي في القرن الرابع الميلادي إلى ظهور المسيحية في السودان في القرن السادس.

وتوجد مقابر كثيرة ترجع إلى هذه الفترة في شمال السودان، وهي تأخذ شكل أكوام من التراب بنيت تحتها حجرات الدفن من الطوب الأخضر والأحمر، ويبدو واضحًا تأثرها في ذلك وفي صناعة الفخار بحضارة مروي، كما تأثرت بمصر الرومانية.

مقعد كان يجلس عليه السلطان عند التتويج «سلطنة الفونج»



شاهد قبر كتب بالخط الكوفي (سلطنة الفونج)

العصر المسيحي

يذكر المؤرخون أن هناك ثلاث ممالك نوبية قامت على أنقاض مملكة مروي، فكانت في الشمال مملكة النوباطيين الممتدة من الشلال الأول إلى الشلال الثالث وعاصمتها فرس، وعلى الجنوب منها، كانت مملكة المقرة التي تمتد حدودها إلى ما عرف عند العرب بالأبواب، ويظن أنه بالقرب من كبوشية جنوب مدينة مروي القديمة، وكانت عاصمتها دنقلا العجوز، واتخذت المملكة الثالثة المعروفة بـ«علوة» سوبا الواقعة بالقرب من الخرطوم عاصمة لها.

وقد دخلت الممالك النوبية في الدين المسيحي بتأثير البعثات التبشيرية البيزنطية، حيث وصلت أول بعثة إلى بلاد النوبة برئاسة قس يدعى يوليان



نحاس مشدود عليه جلد يرجع إلى عهد سلطنة الفونج

في عام ٥٤٣م، بإيعاز ودعم من الإمبراطورة ثيودورا.

وأصبحت المسيحية الديانة الرسمية في السودان ابتداء من عام ٥٨٠م بعد أن تنصر ملك علوة.

وتوحدت مملكتا النوباط والمقرة بين عامي (٦٥٠ - ٧١٠م)، ليتوحد بذلك النوبيون لمقاومة المد العربي بعد دخول الإسلام مصر في عام ٦٤٠م؛ لتنعزل بذلك هذه الممالك عن الكنيسة الأم في بيزنطة - عاصمة الإمبراطورية الرومانية الشرقية. بل توغل النوبيون في مصر إلى مدينة أخميم، حتى أخرجهم السلطان صلاح الدين الأيوبي في عام ١١٧٠م، ثم سقطت مملكة دنقلة في عام ١٣٢٣م أمام الفتوحات العربية الإسلامية، وكانت نهاية مملكة النوبة المسيحية العليا في عام ١٥٠٤م على يد الفونج.

ويضم المتحف لوحات ملونة وجدت على جدران كنيسة فرس، ومن بينها لوحات تجسد قصصاً من العهد القديم مثل ميلاد السيد المسيح عليه السلام، والسيدة مريم تحمل طفلها ويظهر بينهما بعض القديسين، والملك الآشوري نبوخذ نصر يأمر بحرق الموحدين الثلاثة، والسيدة مريم تحمل المسيح عليه السلام وتضع يدها على كتف الأميرة النوبية مارتا بقصد التبريك والحماية، وقصة فرعون وموسى، ويبدو الأثر النوبي واضحاً في هذه اللوحات.

ويضم المتحف نحو ١٢٠ لوحة نادرة لا يوجد لها مثيل في أي متحف في العالم.

ويضم المتحف قليلاً من آثار العهد الإسلامي؛ لأن معظم تلك الآثار يضمها متحف الخليفة بأم درمان، ومن بين ما يضمه المتحف من آثار إسلامية مقعد كان يجلس عليه السلطان في عهد سلطنة الفونج عند التتويج، إضافة إلى نحاس كبير مشدود عليه جلد مدبوغ، كان يدق عليه للإعلان عن الحروب والحوادث العظيمة، إلى جانب سيوف وشواهد قبور كتبت بخط كوفي جميل.

وعندما تكتمل جولة الزائر لمتحف السودان القومي يشعر أنه قد سافر عبر الزمان، وشاهد أحداثاً حية جرت في حالات السلم والحرب، فتمتع بما أبدعه القدماء من فنون عظيمة وألوان من التفاعل الإيجابي مع الحياة، وأعجب بما أبدوه من شجاعة وجسارة دفاعاً عن كيان وحضارة. وما يخرج به الزائر من معلومات عن حضارات أهل السودان عبر العصور يصعب كثيراً الحصول عليها مهما قرأ وطاف في بطون الكتب.

المراجع والهوامش

* نشكر للأساتذة حسن حسين إدريس مدير الهيئة القومية للمتاحف وصديق محمد قسم السيد، أمين أمانة المتاحف، وإخلاص إلياس والحسن أحمد الباحثين بالهيئة، ما قدموه من شرح واف ومعلومات قيمة، وما زودونا به من صور للمواقع الأثرية.

١. السودان القديم وآثاره، نجم الدين محمد شريف، مصلحة الآثار - دار الطباعة؛ قسم التأليف والنشر، جامعة الخرطوم، ١٩٧١م.
٢. المرجع السابق.
٣. انظر: تاريخ السودان القديم، د. محمد إبراهيم بكر، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٧م.

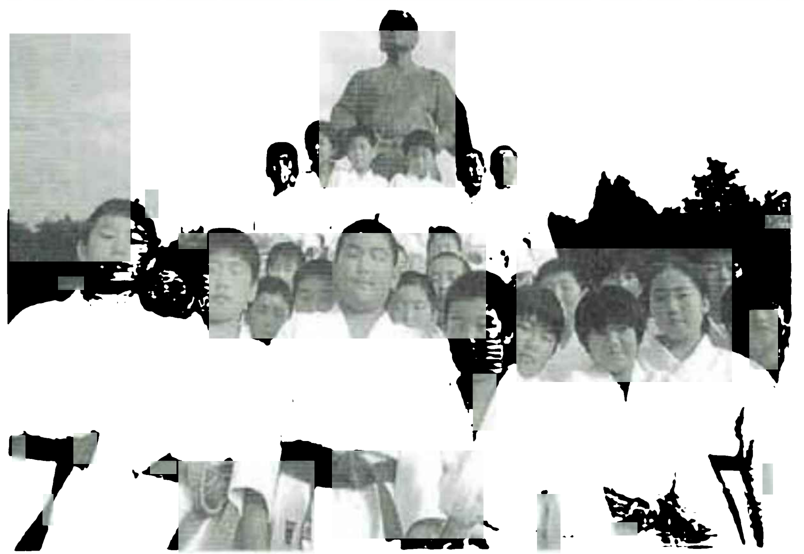
تربية واجتماع

العنف في المدارس.. اليابان في حيرة

أبو بكر خالد سعد الله
عناصر القبة - الجزائر

ديديه نوردون Nordon، أستاذ مادة الرياضيات بجامعة بوردو الفرنسية، وكاتب ساخر شهير، له عدد من المؤلفات التي تعكس مضامينها حالة تحولات المجتمع المعاصر.

كتب نوردون في الركن الخاص به في مجلة Pour la Science الفرنسية الصادرة في شهر تشرين الأول/ أكتوبر عام ١٩٩٩م قائلاً: « إن حياة البشرية سلسلة من المناسبات الفاشلة؛ ففي الخمسينيات أدخلت على الرياضيات مفاهيم جديدة تطلبت مصطلحات وتسميات جديدة. وقد اختار الرياضي المعروف جاك تيتس Tits آنذاك بعض التسميات، منها: «الهيكل العظمي»، و«المقبرة»، و«المعظمة» (أي المستودع الذي تحفظ فيه عظام الأموات)، إلخ، وصارت هذه المفاهيم الرياضية باللغة الأهمية في عصرنا الحاضر. لكن هل تعتقدون أن الرياضيين السذج أخذوا بهذه المصطلحات اليوم؟ إنهم تخلوا عنها شيئاً فشيئاً واستبدلوا بها المصطلحات التالية: «جدار»، «بيت»«مبنى»! لقد ارتكبوا بذلك خطأ قاتلاً، ذلك أن هذا الاستبدال قضى على أفضل الحظوظ التي كانت تمتلكها مادة الرياضيات لجلب انتباه الجمهور، وبوجه خاص فئة المراهقين. إن المراهقين يميلون اليوم كل الميل إلى ألعاب العنف والقتل والأيدي الملطخة بالدماء والأشباح ورؤوس القتلى.. فلو كان لعلماء الرياضيات القليل من صواب الرأي لاحتفظوا بتلك المصطلحات المرعبة التي جاء بها تيتس. لقد حرمنا هذا الاستبدال من مشهد عجيب ومثير: حشود من أولياء التلاميذ في حيرة من أمر أطفالهم الذين يحترقون ليلا نهاراً حبًا في الرياضيات وطلباً لها».



تحولات عميقة تقتلع التقاليد العريقة للشعب الياباني

بهذا الأسلوب الساخر يشير نوردون إلى ظاهرة حب العنف لدى المراهقين. لقد تجاوزنا اليوم مرحلة «حب العنف» إلى مرحلة ممارسته بالمدرسة. ذلك ما يحدث في اليابان بصفة خاصة، وفي بلدان أخرى بشكل عام. ويتساءل اليابانيون بكل طبقاتهم وفئاتهم عن الأسباب التي تجعل المراهقين يلجؤون إلى ممارسة العنف وخصوصاً داخل المدرسة، وهي ظاهرة تفشت خلال التسعينيات بشكل مخيف:

ـ هل هي ألعاب الفيديو والمسلسلات التلفازية؟

ـ هل هو ضغط المجتمع الذي يطلب من الشباب ما لا طاقة لهم به من الجهد الدراسي لتبوُّ مكانة مرموقة في المجتمع؟

ـ هل هي القيم الأسرية التي ضاعت من أهلها؟

ـ هل هي القيم المادية التي انتشرت في المجتمع، وحلت محل القيم التقليدية؟

ـ هل ضيع الشباب مفهوم الخير والشر؟

لعل هذه الأسباب مجتمعة هي التي أدت إلى الوضع المخيف الذي تعيشه اليابان حالياً.

هل النظام المدرسي مسؤول عما يحدث؟

يقوم النظام المدرسي في اليابان على منافسة شديدة بين التلاميذ؛ فبعد الروضة يقضي الطفل الياباني ست سنوات في المدرسة الابتدائية، ثم ثلاث سنوات في المدرسة الإعدادية تنتهي بمسابقة مصيرية يجريها المراهق وهو لم يتجاوز سن الخامسة عشرة؛ لابد أن يكون التلميذ من المتفوقين لكي يتمكن من مزاولة دراسته في ثانوية من الطراز الأول، ومن ثم يأتي التسجيل في أحسن الجامعات التي لا يتجاوز عددها سبع جامعات، وبهذا يتمكن المتخرج من الفوز بوظيفة في كبريات الشركات، أو بعض المرافق الحكومية التي توفر مناصب عمل مرموقة. ويرمي هذا السباق في آخر المطاف، حسب رأي المحللين النفسانيين، إلى كسب الثروة المادية، مما يدل على حدة النظرة المادية لدى الشباب الياباني اليوم.

> أصبح من الصعب الحديث إلى الأجيال الصاعدة عن القيم الأخلاقية في الوقت الذي كثرت فيه الفضائح السياسية والمالية والأخلاقية خلال التسعينيات

وللنجاح في مسابقة نهاية المرحلة الإعدادية يعمل الأطفال ست ساعات بالمدرسة يومياً، تليها ساعتان إجباريتان بالنادي الثقافي والرياضي التابع للمدرسة، ثم إن ثلثي التلاميذ يتابعون دروساً خصوصية (من ساعتين إلى أربع ساعات أسبوعياً). وينفق الأولياء في سبيل ذلك أموالاً باهظة؛ لأن تكرار السنوات الدراسية لا يجوز في الذهنية اليابانية. وهكذا يمارس النظام المدرسي والمجتمع ضغطاً كبيراً على التلاميذ، يؤدي بهم أحياناً إلى الانتحار، وممارسة العنف، والانقطاع عن الدراسة. لقد صار هذا الوضع الخطير اليوم جلياً لدى القاصي والداني.

بدأ النظام التربوي الحديث في اليابان منذ عام ١٨٧٢م عندما شيّدت الدولة مدارس ابتدائية وثانوية فوق التراب الياباني، وأجبرت الأطفال عام ١٨٨٦م على مزاولة الدراسة خلال ثلاث سنوات أو أربع، ثم صار التعليم الإجباري مجانياً عام ١٩٠٠م. وفي عام ١٩٠٨م صارت مدة التعليم الإجباري ست سنوات. وبعد الحرب العالمية الثانية ارتفعت هذه المدة إلى تسع سنوات، وانتشر التعليم انتشاراً واسعاً. غير أن سنوات الثمانينيات جاءت بآفات، كحدة التنافس والعنف، جعلت المسؤولين يوصون بضرورة احترام «الفردية»، وتشجيع التكوين المستمر، ومراعاة انفتاح المجتمع الياباني على العالم، وعلى ثورة الاتصال. كما أوصوا بزيادة حظوظ إمكانات التكوين للأفراد. وإذا كان النظام التربوي الياباني يسعى اليوم إلى تكوين المواطن المسؤول الذي يحترم حقوق الإنسان، ويحب السلام والحقيقة، في كنف أمة مسالمة وديموقراطية.. «فلأنه لم يصل بعد إلى هذا الهدف النبيل».

تحولات عميقة في المجتمع

كانت الأراضي اليابانية مسكونة منذ مئة ألف سنة، أي قبل أن تنشطر جزرها عن قارة آسيا، وهذا يدل على عراقة الشعب الياباني. فقبيل الحرب العالمية الثانية كان معظم اليابانيين يعيشون في البيت العائلي الموسع الذي كان يجمع بين ثلاثة أجيال، من الجد إلى الحفيد. وكانت القواعد التي تسير شؤون هذا البيت تقوم على السلطة القوية للأب الذي يفرض الاحترام والطاعة. كما أنه يخضع هو الآخر إلى طاعة والديه والأخذ برأيهما. أما النساء فمطالبات بطاعة الأزواج وذويهم. أما بعد الحرب العالمية الثانية فقد هزت الديموقراطية والنمو الاقتصادي السريع الكثير من التقاليد العائلية.

ففي عام ١٩٥٥م كانت العائلات التي تعيش على منوال النظام القديم تقدر بـ ٤٤٪ من مجمل العائلات اليابانية. وسقطت هذه النسبة إلى ١٩٪ عام ١٩٧٠م وإلى ١٥.٢٪ عام ١٩٨٥م. وفي الوقت نفسه تناقصت الولادات بشكل مخيف: في عام ١٩٣٠م كان متوسط عدد الولادات للمرأة المتزوجة يقدر بـ ٤.٧، ثم صار ٣.٦ عام ١٩٥٠م إلى أن بلغ ١.٨ عام ١٩٨٥م. أما الآن فهو لا يتجاوز ١.٠، وإذا كان عدد سكان اليابان اليوم يقدر بنحو ١٢٥ مليون نسمة ـ وهو الرقم الذي يضع هذا البلد في المرتبة السابعة في العالم من حيث تعداد السكان ـ فإن التوقعات تتنبأ بأن عدد سكان اليابان سيصل إلى ذروته عام ٢٠١٣، إذ سيبلغ ١٣٦ مليون نسمة آنذاك، ثم يأخذ في الانحدار.

وهكذا صارت العائلات اليابانية اليوم لا تنجب إلا طفلاً واحداً، ويعيش الأقارب بعيدين بعضهم عن بعض. وفي الغالب، لا يسمح الوقت وارتباطات العمل بالزيارات العائلية، ولذا تفككت الأواصر الأسرية. كما أن مبادئ حسن الجوار التي كانت سائدة في الماضي قد تلاشت بتلاشي القيم التقليدية. فعلى سبيل المثال، كان أولياء الأمور يتركون أطفالهم لدى الجيران خلال الغياب، أما اليوم فقد صاروا يتركونهم وحدهم في البيت. وأصبح الأب يخصص وقتاً قصيراً لعائلته بسبب انشغاله بأمور الدنيا. يقول أحد مفتشي الشرطة

اليابانية: إن لليابانيين منازل، وليس لهم بيوت عائلية، مضيفاً أنه أصبح من الصعب الحديث إلى الأجيال الصاعدة عن القيم الأخلاقية في الوقت الذي كثرت فيه الفضائح السياسية والمالية والأخلاقية خلال التسعينيات.

وواكب هذا التحول تزايدُ طلب الشباب وظيفة في المدن وسكناً فردياً. وبسبب زوال البيت العائلي الموسع، وامتداد متوسط عمر اليابانيين - بفضل جودة الرعاية الصحية - ازداد عدد المسنين الذين لا تربطهم صلة بأبنائهم. ويسود الشعور لدى اليابانيين بانتمائهم إلى طبقة متوسطة بعد أن عاش هذا المجتمع خلال عدة قرون في ظل المنطق الطبقي. والملاحظ بهذا الصدد أن سلم الرواتب في اليابان يتميز من كل الدول الأخرى بضيق الفارق بين أعلى راتب وأدناه.

عنف المراهقين

تتناقل وسائل الإعلام اليابانية الكثير من عمليات العنف البشعة التي ارتكبها المراهقون خلال السنوات الماضية، وهي، في معظمها، ذات صلة بالدراسة والمدرسة. ففي حزيران/يونيو عام ١٩٩٧م قام مراهق في سن الرابعة عشرة باغتيال طفلتين وطفل، ثم فصل رأس الطفل عن الجسد ووضعه أمام مدرسته تاركاً رسالة إلى جانبه موضحاً فيها أنه ارتكب هذه الجريمة للانتقام من المجتمع الذي أهمله.

وفي كانون الثاني/يناير عام ١٩٩٨م اغتال مراهق لم يتجاوز عمره ثلاث عشرة سنة أستاذه؛ لأنه لم يتحمل الملاحظات التي كان الأستاذ يوجهها له لدى تأخره عن الدرس. وفي شباط/فبراير من السنة نفسها، خرج توأمان مراهقان إلى الشارع واغتالا سيدة عجوزاً كانت مارة في تلك اللحظات إلى جانبهما، وعندما سئلا عن دافع الجريمة أجابا: قمنا بذلك كيلا نذهب إلى المدرسة بعد اليوم. ومن المعلوم أنه يحدث أن يتجمع مراهقون في يوم من الأيام - دون أن تكون هناك صلة مسبقة بينهم - ويشكلون عصابة مدة ليلة واحدة يقومون فيها باعتداءات، ويرتكبون في أثنائها جرائم، ثم يتفرقون.

ويرى أحد المختصين في العنف داخل البيوت العائلية بأن هذا النوع من العنف قد يبلغ أيضاً مستوى مذهلاً بالنظر إلى عدد البيوت التي يقدم فيها الأطفال على ضرب أوليائهم. ويشير، على سبيل المثال، إلى حالة طفل لم ينجح في الدخول إلى الثانوية التي اختارها بعد الانتهاء من الدراسة الإعدادية، وتسبب تأثره بهذا الإخفاق والرسوب في مسابقة الدخول إلى الجامعة، بإصابته بانهيار عصبي جعله يحمل أولياءه مسؤولية فشله، وصار يرهبهم ويضربهم ويهددهم بالسلاح الأبيض. ومع ذلك لم تتدخل الشرطة، وعدت القضية ذات طابع عائلي، خصوصاً أن سلوك الشاب خارج المنزل كان عادياً جداً. ويؤكد هذا المختص الذي يشتغل بأحد المستشفيات في طوكيو أن هذه القضية ليست حالة منعزلة، بل إنه يشاهد مثلها كل يوم.

وقد أصبحت المدرسة أيضاً محل عمليات عنف يومية. نذكر على سبيل المثال الطريقة المعروفة في اليابان التي صارت تحمل اسم إيجيمي Ijime. ويعني ذلك أن التلاميذ في المدارس يختارون أحدهم ويستضعفونه خلال مدة طويلة داخل المدرسة والقسم، حتى يؤدي به الأمر أحياناً إلى الانتحار، أو ترك المدرسة، أو الانتقام من معذبيه باللجوء إلى تصفيتهم جسدياً. والأسوأ من ذلك أن الأساتذة يمتنعون من التدخل في مثل هذه الحالات، فيجد التلميذ نفسه ضحية سهلة لزملائه. وقد قامت وزارة التربية بتحقيق واسع عام ١٩٩٧م حول هذه الظاهرة، واستخلص المحققون أن ثلث تلاميذ المدارس الإعدادية كانوا ضحية لهذا النوع من العنف.

وتشير إحصاءات وزارة التربية إلى أن ١٠٥٧٥ حادث عنف قد وقع في المدارس عام ١٩٩٦م، أي بزيادة تقدر بـ ٢٠٪ على السنة السابقة عام ١٩٩٥م. وخلال عام ١٩٩٧م وقع ١٣٠٠ حادث بين التلاميذ وأساتذتهم، أي بزيادة تقدر بـ ٥٠٪ على السنة السابقة عام ١٩٩٦م. وهذه الأرقام تؤكدها مصادر الشرطة: فمن عام ١٩٩٦م إلى عام ١٩٩٧م ازداد عدد الاعتداءات وعمليات الإجرام على ٥٠٪. وكذلك كانت النسبة من عام ١٩٩٧م إلى عام ١٩٩٨م. والملاحظ أيضاً أن العنف ليس حكرا على الذكور دون الإناث.

> ما يشغل بال الساسة وعلماء الاجتماع في اليابان أن الاعتداءات الأكثر بشاعة يرتكبها مراهقون بصفة مجانية دون دوافع واضحة

وما يشغل بال الساسة وعلماء الاجتماع في اليابان - أكثر من تزايد عمليات العنف - هو طبيعة الإجرام ومن مرتكبيه. فالاعتداءات الأكثر بشاعة يرتكبها مراهقون بصفة مجانية دون دوافع واضحة. ويؤكد أحد تقارير وزارة التربية أن مرتكبي أعمال العنف مراهقون عاديون في الظاهر، وأن الإشارات الخفيفة ذات الصلة بالعنف لديهم لا تلفت الانتباه.

تعددت الأسباب

يسأل الكاتب الياباني كارورو تاكامورا Takamura قائلاً: «هل حدثت تحولات عميقة في نفسية الشاب الياباني خلال العشرين سنة الفارطة؟ من المحتمل أن يكون المجتمع الياباني قد أصيب بخلل في الوقت الذي يبدو كل شيء فيه على ما يرام... فهل يعبر العنف المتفشي في أوساط المراهقين عن خلل في التوازن داخل المجتمع؟».

يوجه بعضهم أصابع الاتهام إلى المسلسلات التلفازية وألعاب الفيديو، ويستدلون على ذلك بالسكين المعروف باسم بترفلاي نيف Butterfly knife الذي ظهر في المسلسل التلفازي Gift (الهدية). يتميز هذا السكين بحدة شفرته وبمقبضيه الذهبين، ويباع هذا

السكين يثمن في متناول الجميع بالمحلات العمومية. وظهرت (موضة) هذا السكين لدى مرور المسلسل المذكور على شاشة التلفاز حيث كان البطل يجيد استعماله. وقد لوحظ أن أغلب الاعتداءات والعمليات الإجرامية التي ارتكبها المراهقون في المدة الأخيرة كانت قد استخدم فيها سكين «بترفلاي نيف».

وهناك آخرون اتهموا ألعاب الفيديو، غير أن الجمهور الذي يتردد على مراكز هذا النوع من الألعاب ليس جميعه من المراهقين. وهنا يشير أحد الصحافيين المختصين في أعمال العنف لدى المراهقين بأنه «لا توجد دراسة جادة تؤكد مخاطر ألعاب الفيديو». ويذهب آخرون إلى تحليل الأسباب العميقة للعنف، وردها إلى تفكك الأسرة اليابانية، وإلى أزمة النظام التربوي. كما أن انعكاسات النمو الاقتصادي دون مراعاة للجانب الاجتماعي منذ عام ١٩٤٥م ليس غريباً عن هذه الظاهرة.

سرعة تطور المجتمع الياباني لا تسعفه لإيجاد حلول ناجعة للعنف وأصابع الاتهام تشير إلى المسلسلات التلفازية وألعاب الفيديو

فمنذ الحرب العالمية الثانية ركز اليابانيون اهتمامهم في العمل والجهد بالمصنع وأماكن العمل مهملين الحياة الأسرية والعلاقات ذات الطابع الإنساني. وبعبارة أخرى فقد تخلى الياباني عن قيمه التقليدية الضاربة في التاريخ بسرعة مدهشة، فحدث له ما يحدث منذ عشرين سنة، وصار الشاب الياباني يعيش دون مرجعية تاريخية.

ماذا في أوربا؟

ويسأل المرء كيف لم تعرف أوروبا الظواهر نفسها لدى المراهقين مع توافر عدة عوامل محفزة للعنف، كالعنصرية المترتبة عن تكاثر الأجناس في البلاد الغربية؟ ويلاحظ المتتبعون أن الغرب أصيب بظاهرة الانعزالية، وتفكك الأسرة منذ أمد بعيد، وحدث ذلك بسرعة بطيئة خلافاً لما يقع في اليابان، ومع ذلك فأوربا لا تخلو من أعمال العنف في المدرسة، فالأخبار تطالعنا بأعمال عنف مأساوية يقوم بها مراهقون بالمدارس في بلجيكا وبريطانيا وفرنسا وغيرها.

يشير طبيب ياباني إلى أن «الخلل ليس في الشباب، بل في من هم أكبر منهم سناً.. انظر إلى تطور اليابان، منذ خمسين سنة، وانظر إلى وضعها الحالي: الحكومة تنفق مبالغ ضخمة لحماية البنوك ولا تنفق شيئاً تقريباً في الجانب الاجتماعي». ذلك ما يقال في اليابان لكن ما يقال في الاتحاد الأوربي أمر آخر. إذ يرى الاتحاد الأوربي أن ظاهرة العنف بالمدارس تعني المسؤولين السياسيين، وسلك المعلمين والتلاميذ، وأولياء الأمور والمستشارين، والسلطات المحلية ومختلف الهيئات العمومية والخاصة. ويلاحظ الاتحاد أن خطورة هذه الظاهرة تتزايد يوماً بعد يوم.

وقد شرع الاتحاد الأوربي في وضع الخطط لمحاربة هذه الآفة على الرغم من أن أعضاءه لم يصل بهم الحال إلى ما وصل إليه اليابان. وهكذا عقدت ندوة في شباط/ فبراير عام ١٩٩٧م حول «الأمن والعنف بالمدارس» بمدينة ألترخت الهولندية شاركت فيها الدول الأعضاء في الاتحاد. وقد اعترف مجلس وزراء الاتحاد الأوربي في اجتماعه المنعقد في حزيران/ يونيو عام ١٩٩٧م بخطورة انتشار هذه الظاهرة، وتبنى لوائح وتوصيات تدعو الدول الأعضاء إلى إنشاء فريق خبراء، والقيام بتجارب نموذجية على المستوى الأوربي. ومن بين مواضيع التعاون بين دول الاتحاد الأوربي في مجال العنف بالمدرسة نذكر:

- الوقاية من العنف بالمدرسة، والتدخل الوقائي المبكر في رياض الأطفال والمدارس الابتدائية.
- إقحام التلاميذ وأولياء الأمور والعائلات في برامج الوقاية من العنف في المدرسة.
- دراسة سبل دعم المؤسسات التعليمية التي يستهدفها العنف، وتأكيد ممارسة الديموقراطية في الحياة المدرسية قولاً وفعلاً.
- التربية البديل للأطفال المطرودين نتيجة ارتكاب أعمال عنف، والدعم الذي ينبغي تقديمه لضحايا العنف وعائلاتهم.
- العمل على توعية التلاميذ من طرف زملائهم الأكبر منهم سناً.
- التعاون بين المؤسسات التعليمية والسلطات المحلية.
- إعادة النظر في السياسات المتبعة إزاء العنف بالمدرسة في مختلف دول الاتحاد.

فيرى الاتحاد الأوربي أن الاهتمام الحديث العهد بالأمن والعنف داخل المدرسة يعكس تطوراً عميقاً في المجتمع، ويأمل الاتحاد أن يؤدي هذا الاهتمام إلى نسج إستراتيجيات وقائية ضد الخوف والترهيب والعنف بالمدرسة. أما اليابان فما زال في حيرة من أمره، فسرعة تطور مجتمعه لم تسعفه في إيجاد الحلول الناجعة.

المراجع

1- Nordon, D : Morbidites mathematiques, In Pour la Science, October 1999.
2- Esnault, D : Au Japon, une jeunesse ultraviolente, Le Monde Diplomatique, August 1999.
3- Takamura, K & Masaaki, N : La Societe japonaise et le psychopathe, Cahiers du Japon, Paris, Spring 1998.
4- The International Society for Educational Information (Ed.), The Japan Today, Tokyo, April 1990.

بلاغة المقالة الاجتماعية: مقوِّماتها الموضوعية وخصائصها الفنية

الصادقي العماري
فاس - المغرب

المجتمع هو «طائفة من الناس يخضعون لسلطة واحدة، وتجمع بينهم تقاليد وعادات ونظم واحدة»(١)، ومن المجتمع تستمد المقالة الاجتماعية موضوعها الخاص بظواهر ومشكلات معينة، وبوصفها كتابة ينشئها الأديب، أو يعدها الباحث، فهي مقيدة بحيز محدود في بضع صفحات، مراعيًا في عرضها خطة متّسقة، وتصميمًا محكمًا، وأسلوبًا مشرقًا واضحًا متخيّر العبارات، مع توخي الصحة والصدق، ودقة الدلالة، مبتغيًا بذلك كله إفادة القارئ، وإغناء خبرته بمضمون اجتماعي معين، وإمتاعه فنيًا، والتأثير فيه، وهذا كله يتطلب تحليلاً لعناصره، وبيانًا لمقاصده، فالمجتمع له بنيته، وهي مكونة من سكانه حسب مراتبهم التي تحددها أعمالهم، وهناك توزيع هؤلاء السكان على رقعة البلاد، وما يكون بينهم من علاقات، وظواهر سائدة، وما تتضمنه من تقاليد، وما يحكم هذا المجتمع من نظم وسلطة، وكل ذلك منه ما هو موروث وما هو طارئ بفعل المتطلبات الداخلية والتأثيرات الخارجية، وتأثير الأفراد بعضهم في بعض بحكم الاتصال والتعامل، وكذلك القيم والمثل والعقائد الصحيحة أو الزائفة من أوهام وخرافات، وما ينشأ من مشكلات كثيرة في التعليم والصحة والإنتاج والاستهلاك والسلوك كالبخل والإسراف والتهاون والاعتداء والظلم. ومن هذه المشكلات ما هو عام، ومنها ما هو خاص بفئة أو جهة، كالجهل والفقر والبطالة والأوبئة والانحراف والإجرام والرشوة والتفاوت الطبقي الشاسع والفساد السياسي والهجرة، وأكثر ما يتجلى كل ذلك في الأسرة - وهي نواة المجتمع - بكل عناصرها ومتطلباتها(٢).

تلك هي أبرز المجالات التي يتخذ منها الكاتب موضوعًا لمقالته الاجتماعية، ولا يخفى أنه ليس هناك عامل وحيد يتسبب في حدوث الظواهر والمشكلات الاجتماعية وتطورها، بل هناك عدة عوامل متداخلة، منها ما هو عائد إلى البيئة الطبيعية، ومنها ما هو عائد إلى سلوك الأفراد المحدد بالأعراف والتقاليد، ثم هناك القيم والمثل العليا التي تتجلى في العقائد والإنتاج الفكري، والطموح إلى تحقيق غايات، وكل ذلك يتم بحركة مستمرة مع إدخال مبدأ النسبية في تقدير كل عامل من العوامل المذكورة.

المشكلات وتصنيفها

مما لا يجوز إغفاله أن المشكلات الاجتماعية منها ما يختفي ثم يظهر، ومنها ما يطرأ أو يتوالد، ويمكن تصنيف المشكلات كما يلي:(٣)

- مشكلات أساسية تتجلى في نقص الخدمات المقدمة.
- مشكلات تنظيمية تنشأ عن سوء توزيع المؤسسات الخاصة بالخدمات على رقعة الوطن، بكيفية تناسب توزيع السكان.
- مشكلات مرضية تتجلى في الانحرافات كالسرقة وغيرها من ضروب الإجرام، وفي التشرد والتسول والبغاء، وهذه - على نحو ما - ليست منفصلة عن السابقة.
- مشكلات مجتمعية تتضح فيما يصيب العلاقات القائمة بين الفئات الاجتماعية من خلل، وإهمال الناس لمشكلاتهم، مثل البطالة وانحراف الأحداث وظلم بعض الجهات أو المؤسسات لفئات اجتماعية.
- مشكلات الكوارث الطبيعية كالزلازل والفيضانات والقحط والتلوث والحرائق وكذلك هناك مشكلات الحروب وما ينتج منها من ضحايا ودمار.

ويمكن القول بصفة عامة: إن هناك مشكلات ناشئة عن

العلاقات الاجتماعية ونابعة من سوء أحوال المجتمع وما يعتري نظمه من سوء التدبير والتيسير، ومشكلات الانحرافات الفردية نتيجة الاختلالات النفسية، وعدم التزام العقيدة الدينية، والخضوع لمقتضى الرسالة الإلهية، وإن كان هذا العنصر مرتبطا بسوء التنشئة الأسرية والتعليمية وفساد العشرة.

كاتب المقالة الاجتماعية

بعد هذا التحديد لموضوع المقالة الاجتماعية، ننتقل لتناول ما يتعلق بكاتبها، ومما يجب أن نبادر إلى بيانه أن هناك صنفين من المفكرين يتصديان لكتابة هذا النمط من فن المقالة:

ـ أحدهما: ينطلق من موقف ذاتي، وهو يصدر عن مشاعره في نظرته إلى موضوع مقالته، وفي أثناء معالجته له.

ـ الثاني: يقبل على إنجاز عمله مستبعداً ذاته ومشاعره، ويتخذ موقفاً محايداً من موضوع مقالته.

إن الكاتب الذي أشرنا إليه أولاً بأنه ينطلق من مشاعره وعقيدته وعمق إحساسه بالظاهرة التي يرغب في تناولها إنما ينشئ ـ تبعاً لذلك الموقف ـ مقالة اجتماعية ذاتية ذات صبغة أدبية. فالكاتب، وهو بهذه المواصفات في أثناء مواجهة موضوع مقالته، ليس إلا فرداً داخل المجتمع، مرتبطاً به في عيشه وتعامله وعلاقاته؛ وبحكم قدرات الكاتب الفكرية ومعارفه ورهافة حسه ويقظة شعوره ودقة ملاحظته يتأثر بما يجري في مجتمعه، ومن المفروض في الكاتب أيضاً، أن يمتلك مواهب تسعفه بحسن التعبير وجودة الصياغة؛ وذلك ليتمكن من إيصال أفكاره ومشاعره إلى الآخرين، فيتاح له أن يؤثر فيهم، ومن ثمة يتيسر له أن يحدث تغييراً إيجابياً في مجتمعه.

ومهما كان الانتماء السياسي أو الاتجاه الفكري والمذهبي للكاتب، فإنه منتظر منه أن يكون أقوى الناس إيماناً بمقومات مجتمعه وقوميته، وأعمق بصيرة بأصالة أمته، وأدرى بمتطلباتها في حاضرها ومستقبلها، وما هو نافع مفيد، وما هو ضار مفسد، لا يتمسك بالقديم لقدمه، ولا ينساق مع الجديد لجدته، والكاتب ـ بناء على هذا ـ مسؤول من الوجهة الأخلاقية المدنية أن يكون له موقع للمشاركة في بناء مجتمعه والنهوض به، ومن الناحية الدينية مأمور أن يعمل على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتصدي بقدر ما يستطيع، وبما أنعم الله عليه به من مواهب، لينفر الناس من كل الشرور والمفاسد والمنكرات، ويحبب إليهم الصلاح والمحاسن والمكرمات.

إن ما سبق ذكره قد توافر لكثير من كتاب المقالة الاجتماعية في أدبنا العربي الحديث. أمثال محمد عبده والمنفلوطي والرافعي والعقاد والزيات وغيرهم.

عنصر المقالة الاجتماعية

يجد كاتب المقالة الاجتماعية نفسه، وهو بصدد إنجاز مقالته، في مواجهة ثلاثة عناصر:

ـ وجود قضية أو ظاهرة اجتماعية.

ـ إحساسه العميق بهذه الظاهرة إلى درجة تستغرق كل اهتمامه، وتملك عليه مشاعره وفكره، كأن هذه الظاهرة أو المشكلة من أخص همومه الشخصية لرهافة شعوره، وقوة إحساسه بالانتماء الاجتماعي والديني؛ لأن الكاتب الأصيل بحق لا يرى أنه منفصل عن مجتمعه أو بمعزل عما يجري فيه، بل هو مندمج فيه، فالمجتمع مجال لذات الكاتب، ولهذه الذات امتداد في الآخرين من مواطنيه وبني جنسه انطلاقا من قوله تعالى: *والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر.* **التوبة: ٧١.**



احمد امين

ـ العنصر الإنجازي الذي يتمثل في صياغة المقالة التي تتضمن الظاهرة أو المشكلة صياغة فنية، وما يتطلبه ذلك من اختيار عنوان مشوق واضح الدلالة على الموضوع، وخطة محكمة، وتصميم محدد يتم عرض المضمون وفقها، وما يقتضيه ذلك من أسلوب فصيح ومشرق يتسم بالخصائص الفنية، وبذلك يتمكن الكاتب من إيصال مشاعره وأفكاره إلى قرائه، ويؤثر فيهم، ويبصرهم بالظاهرة أو المشكلة، وما يجب عليهم فعله.

إن توفيق الكاتب في إنجاز مقالته رهين بما تسعفه به مداركه، وما يمتلكه من دقة ملاحظة، وقدرة على الموازنة والاستنتاج، ورهافة حس، وبما يملأ جوانحه من صدق شعوري، وما سبق أن استوعبه من حصيلة معرفية، وما استفاده من تجارب وخبرات، ثم ما رزقه من مواهب فنية وبراعة في الكتابة الشائقة التي من شأنها أن تفيد وتؤثر وتمتع.

إذا كان الكاتب يعبر في مقالته عن شعوره الخاص وموقفه

من الظاهرة أو المشكلة التي التقطها من الواقع الاجتماعي، فإنه يعبر أيضاً عن مشاعر الآخرين من مواطنيه وبني جنسه، ويشاركهم همومهم وتطلعاتهم، ينفرهم من المساوي، ويحبب إليهم المحاسن والمكارم، فيجدون في أعماقهم تجاوباً معه، ويقبلون على ما سطره في مقالته بتلقائية، وليست العبرة بتفخيم الأسلوب وبالجلجلة الخطابية الجوفاء، وترادف الكلمات والاندفاع الزائد على الاعتدال والخارج عن الطبع، واصطناع الأوامر والنواهي الوعظية المبتذلة، وما يعد من قبيل البلاغة الشكلية. ولكن العبرة بسلاسة العبارة وعمق دلالتها وإشراقها وصحتها، وما تنم عليه من صدق وقوة إيحاء، سواء أكان الأسلوب تقريرياً أم سردياً أم وصفياً جدياً أم هزلياً صريحاً أم رمزياً، وقد يلجأ، رغبة في الإيضاح والإقناع والتأثير، إلى ضروب من الاقتباس والتضمين، فيستدل بالآيات والأحاديث والأقوال المأثورة، والحكم والأمثال السائرة، والمعلومات الإحصائية، والوقائع الغابرة، وغير هذه مما يضفي على مقالته رونقاً وجمالاً ومتعة وفائدة.

إن مما يحسن التنبيه عليه أن ورود بعض الصور الخيالية، والمظاهر الوجدانية، لا يتنافى مع توخي الحقيقة والتزامها، كما هي ماثلة في الواقع الاجتماعي، إلا أن الكاتب يصوغها صياغة فنية، ويكسوها حلة رائقة، كأن يأتي الكاتب بمقطع قصصي أو حواري أو بصور بيانية، يستحضر بهذه الوسائل الفنية مشاهد ووقائع منتزعة مما يجري في المجتمع، كل ذلك مما يزيد في تعميق المعرفة لدى القارئ بمحتوى المقالة الذي يعايشه في حياته.

ومما يجرد المقالة من الرونق المطلوب لها أن يعمد الكاتب إلى اختلاق وقائع، أو أن يصرف جهده إلى التهويل والإفراط في المبالغة بما يخرج الوقائع عن المألوف.

إن كاتب المقالة الاجتماعية يماثل في عمله كلاً من القصصي والروائي والكاتب المسرحي، حينما يتصدون جميعاً لمعالجة ظاهرة أو مشكلة اجتماعية، إلا أن كل واحد منهم يصوغ المضمون، ويسوق مكوناته، ويرسم خطته حسبما يتناسب مع الخصائص الفنية، والعناصر البنائية للجنس الأدبي الذي يتخذه وسيلته للإبلاغ.

الانطلاق من موقف موضوعي

كل ما تقدم يصح في حق الكاتب الذي ينطلق من الموقف الذاتي، وهو يعالج ظاهرة أو مشكلة اجتماعية، ولكن الكاتب الذي يتخذ موقفاً موضوعياً يختلف عن السابق ويتجلى ذلك فيما يأتي:

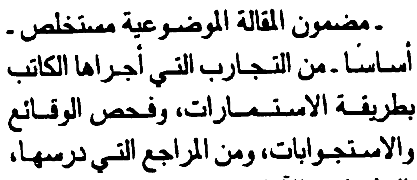
- المقالة الاجتماعية الموضوعية، تتميز بمماثلتها للدراسة الاجتماعية، ولا تكاد تختلف عنها إلا في محدودية الحيز الذي تستغرقه، وبوضوح أسلوبها؛ لأنها موجهة إلى القراء عامة من غير المتخصصين بالدرجة الأولى، وبتسلسل أفكارها، وتوازن عناصرها، ودقة خطتها، لا تخوض في التفاصيل والتحليل، وتكتفي بالأساسي وما هو جوهري.

- تبعاً لذلك لا مجال فيها لمشاعر الكاتب، ولا للصور البلاغية؛ لأنها تتوخى الإفهام والإبلاغ والإيضاح، ولا يتوق الكاتب إلى الإثارة والتأثير ولا إلى الإمتاع الفني، ولكن يتطلع فقط إلى الإفادة والإقناع وعرض أفكاره بيسر ودقة، مع ما تدعو إليه الضرورة من صحة العبارة، وتوظيف المصطلحات المناسبة بالقدر الذي ينم على المضمون، ولا يرى الكاتب بأساً من تقديم إحصاءات وأرقام وتحليل بإيجاز ما يستدعي التحليل وإجراء المقابلات والموازنات...



مصطفى لطفي المنفلوطي

- مضمون المقالة الموضوعية مستخلص - أساساً - من التجارب التي أجراها الكاتب بطريقة الاستمارات، وفحص الوقائع والاستجوابات، ومن المراجع التي درسها، ومن مقابلاته بين النظريات والآراء المختلفة، ومن ذلك يستنبط النتائج التي يثبتها، فمادته علمية، ومنهجه محدد الخطوات، وأسلوبه دقيق بمصطلحات مضمونه، ووضوح عباراته وصحتها، وتصميمه المحكم مع التزام الإيجاز والتقيد بالحيز المعلوم للمقالة.



ولعل أوضح ما تتجلى فيه شخصية الكاتب هو مدى تيسير مضمون مقالته، وتنظيم عرضها، وترتيب أفكارها، وإحكام بنائها، واستيفائها للقصد المعرفي، مما يدل على تمكن كاتبها من الحصيلة العلمية المناسبة للموضوع.

ومن نافلة القول التذكير بالمستلزمات المعرفية التي يعد توافرها ضرورياً في كاتب المقالة الاجتماعية، ومن ذلك معرفة شاملة بكل ما يتعلق بالمجتمع: مكوناته وطبقاته وتاريخه واقتصاده، ودينه وما يروج فيه من معتقدات وخرافات، وما يتعلق بالجوانب النفسية والتربوية

والسياسية. ثم لا يجوز أن يجهل واقع الأمم والمجتمعات الأخرى، وما هو شائع من ثقافة عصره ومذاهبه وصراعاته، ثم لابد له من خصوصيات نفسية ومواهب ومهارات منها: دقة الملاحظة، وقوة الحدس، والصبر والصدق والجرأة والقدرة على البيان. وهذه أمور يشترك فيها كل المبدعين والباحثين الذين يعتدّ بإنتاجهم.

وهناك جانب جدير أن نثبته وهو استخلاص التصورات التي هيمنت على الكتّاب العرب منذ النهضة إلى الآن، ويمكن القول بصدد هذا: إن كُتاب المقالة الاجتماعية كانوا محكومين بالرؤية الدينية والنفسية في نظرهم إلى الظواهر والمشكلات الاجتماعية، ثم غلبت عليهم الرؤية الأيديولوجية والوطنية، وما تقتضيه من ضروب التكافل، ثم النظر إلى ما تسبب فيه الاستعمار من إخلالات وأدواء. وبعد ذلك كان التركيز على ما أصاب الأنظمة والعلاقات الاجتماعية من اضطراب وفساد بعد جلاء المستعمر، وما صار يعرفه العالم وقواه العظمى من تحولات وتطلعات، وتأثير ذلك كله في المجتمع.

سبل سلكها كتاب المقالة الاجتماعية

يبدو أن هذه القضية تستدعي نوعاً من الحصر مع الإيجاز لتبيين السبل التي سلكها الكتاب في مقالاتهم الاجتماعية ومن ذلك ما يأتي:

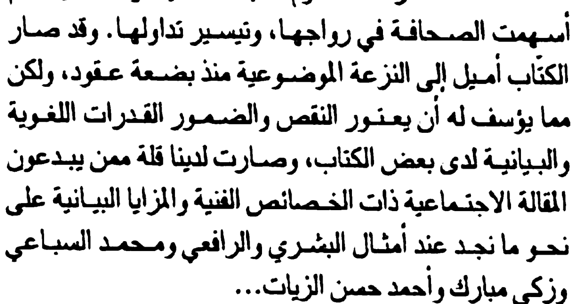
- بعض الكتاب يعرض الظاهرة أو المشكلة، دون الخوض في البحث عن أسبابها، ويكتفي ببيان المشكلة وأضرارها. ثم كيف يتم التخلص منها؟
- بعض الكتاب يحاول استجلاء الأسباب الكامنة وراء ظهور المشكلة ثم يقترح كيفية التخلص منها باستئصال الأسباب التي أدت إليها من الوجهة الدينية أو النفسية أو الأيديولوجية أو الاقتصادية.
- من الكتاب من يبسط المشكلة أو الظاهرة دون أن يخوض في أضرارها أو منافعها، وإنما يقف عند حدود وصفها وبيان مختلف وجوهها، ويترك ما قد يكون من سلبيات وإيجابيات للقارئ.
- من الكتاب من يستعرض أوجه الظاهرة ثم يعبر عن ابتهاجه بما فيها من وجوه إيجابية، أو يبدي أسفه على ما يكتنفها من مساو وما تسببه للناس من أضرار، وقد يقابل بين ما كان عليه فيما مضى وما آل إليه في الحاضر، مع إبداء شعوره في كلتا الحالتين بالحنين أو التعاطف أو الاستحسان أو المقت والاستهجان.

إن مما يؤاخذ عليه بعض الكتاب - من الوجهة النقدية - أن يرجع الكاتب سبب ظاهرة أو مشكلة إلى عامل أو إلى سبب وحيد، لأن ذلك قد يفسر بأنه مظهر لسطحية الرؤية أو ضحالة الحصيلة المعرفية للكاتب. كأن يرجع - مثلاً - شيوع السرقة أو جريمة القتل أو اللجوء إلى العنف في التعامل أو الإسراف في الحفلات، إلى سوء التربية وحده، أو إلى الفقر بمفرده أو إلى عدم التزام التعاليم الدينية فقط، دون أن يكلف نفسه البحث عن أسباب أخرى، كالعوامل النفسية، وفساد الأنظمة السياسية والتربوية، وغياب العدالة، وشيوع المحسوبية والرشوة، والتهاون في إنزال القصاص بالمذنبين، وتولي غير المستحقين للمناصب، وغير ذلك من العوامل السلبية التي تكون وراء ما يظهر من مساو اجتماعية، وانحرافات فردية.



أحمد حسن الزيات

فكل ظاهرة أو مشكلة لها عدة عوامل أو أسباب غالباً، والوقوف عند سبب واحد أمر لا يستساغ منطقياً وواقعياً، ويتنافى مع الرؤية الشاملة اللازمة في أثناء تناول ظاهرة أو مشكلة اجتماعية.



ومن الملاحظ في مسيرة كتابة المقالة أن إقبال الكتاب على إنجاز المقالة الاجتماعية الموضوعية، لم يكن واسعاً إلا بعد أن شاعت دراسة العلوم الاجتماعية والنفسية، ثم أسهمت الصحافة في رواجها، وتيسير تداولها. وقد صار الكتّاب أميل إلى النزعة الموضوعية منذ بضعة عقود، ولكن مما يؤسف له أن يعتور النقص والضمور القدرات اللغوية والبيانية لدى بعض الكتاب، وصارت لدينا قلة ممن يبدعون المقالة الاجتماعية ذات الخصائص الفنية والمزايا البيانية على نحو ما نجد عند أمثال البشري والرافعي ومحمد السباعي وزكي مبارك وأحمد حسن الزيات...

من نماذج المقالة الاجتماعية

- لجمال الدين الأفغاني(٤) ١٨٣٨ - ١٨٩٧م «الفخر بالماضي ونسيان الحاضر» و«التقليد النافع وأنجع الوسائل للنهوض».
- ولمحمد عبده(٥) ١٨٤٩ - ١٩٠٥م «الشرف» و«الفضائل والرذائل».
- ولقاسم أمين (٦) ١٨٦٣ - ١٩٠٨م «كيف يصرف

المال»، و«حالة المرأة في الهيئة الاجتماعية» و«المرأة والأمة».

- ولمحمد السباعي(٧) ١٨٨١ - ١٩٣١م «الزواج» و«العائلة».

- ولمحمد توفيق دياب(٨) المتوفى نحو ١٩٦٠م «الأخلاق والمجتمع» و«أمراض المدنية وأعراضها» و«مآتمنا» و«الصغائر المزعجة».

- ولمصطفى الغلاييني(٩) ١٨٨٦ - ١٩٤٤م «العادات» و«الميسر» و«السل الاجتماعي» و«الخرافات والبدع الدينية».

- وللمنفلوطي والرافعي والزيات، ومحمد علي الطنطاوي(١٠) وغيرهم من الكتاب الكثير من المقالات الاجتماعية التي تنوعت موضوعاتها ومناحيها وأساليبها مما يعد كسباً كبيراً، وزاداً معرفياً للأجيال، وذخيرة فنية نفيسة في الأدب العربي الحديث، كما أن هذه المقالات الكثيرة تعد وثيقة ذات أهمية بالغة لمعرفة الأدواء والظواهر الاجتماعية التي عرفتها المجتمعات العربية، منها ما اختفى، ومنها ما تحول وتشكل في صور أخرى، ومنها ما طرأ دون أن يكون له سابق وجود.

ورغبة في استجلاء ما سبق ذكره عن المقالة الاجتماعية من الوجهة النظرية، نرى أن نقدم نموذجاً تحليلياً بصورة موجزة، وتخيرنا أن يكون مقالة لأحمد أمين ١٨٨٦ - ١٩٥٤م(١١) وهو من أبرز الباحثين والأدباء، وقد أغنى المكتبة العربية بأبحاثه في مجال تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، وفي الدراسة الأدبية والنقدية، وكذلك في مجال الإبداع المقالي خاصة.

وقد اخترنا مقالة له بعنوان «الاحتكام إلى العقل»(١٢) وقبل الخوض في التحليل نورد بعض ما قيل عن العقل لما له من أهمية:

العقل مما ميز الله به الإنسان. وهو نعمة كبرى، وبها كانت خلافته في الأرض للبناء والتعمير وإقامة العدل، وبالعقل كان تكليفه بما يضمن صلته بخالقه وحسن تعامله مع بني جنسه.

وقد عرِّف العقل - من حيث الأصل اللغوي بأنه من العقال الذي يربط به البعير، ومن هنا سمي العقل عقلاً لكونه يضبط سلوك الإنسان ويقيه الضلال، وهو، وإن كان جوهراً لطيفاً، فإن له آثاره المادية الابدية والدالة على وجوده.

وقد ورد في القرآن ذكر العقل في كثير من آياته البينات، وكلها تُعلي من شأنه مما يدل على رفعة قدره، وسمو مكانته، فبه يُدرك الخالق سبحانه، وبه تنال المعارف وتعرف الأوامر والنواهي، ويتم التمييز بين الخير والشر، فمن رُزقه فقد نال خيراً كثيراً إذا استعمله، وإذا غيبه فقد كفر بنعمة ربه وأضر بنفسه، ولهذا يبين القرآن الكريم ما لحق الكفار من ندم بعد أن سيقوا إلى سوء المصير في قوله تعالى: *وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ*. الملك: ١٠. ومن الآيات التي ورد فيها ذكر العقل قوله تعالى: *أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ*. البقرة: ٤٤.

يخاطب الله سبحانه وتعالى أولئك الذين يأمرون الناس بالخير والفضل، ولكنهم ينسون أنفسهم، وهم أولى بالموعظة والأمثال لأنهم يتلون الكتاب، ولكنهم يتنكبون الجادة، وهذا التصرف في حقيقته، تغييب للعقل وإبطال لعمله، مما جعلهم يقعون في المحظور؛ ولهذا كان الخطاب الموجه إليهم محملاً بما يفيد التوبيخ مع التعجب من تصرفهم الأهوج، ثم جاء ما يفيد الإنكار: «أفلا تعقلون».


عباس محمود العقاد

وروي عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه قال: «ما اكتسب المرء مثل عقل يهدي صاحبه إلى هدى أو يردُه عن ردى»(١٣)، ومعناه أن الإنسان لم ينل شيئاً أعظم من عقل تستقيم به حياته في كل ما يفعله أو يتركه، وما يسعى إليه، فلا يخطئه الصواب ما احتكم إليه، ولا يضل السبيل ما عمل بما يرشد إليه.

وروي عن علي بن أبي طالب - رضي الله عنه وكرم وجهه - قوله: «لما أهبط آدم من الجنة أتاه جبريل، فقال: إني أمرت أن أخيِّرك في ثلاثة فاختر واحدة ودع اثنتين، فقال آدم: وما الثلاث؟ قال: الحياء والدين والعقل، فقال آدم: فإني اخترت العقل، فقال جبريل: للحياء والدين انصرفا ودعاه، فقالا: إنّا أمرنا أن نكون مع العقل حيث كان(١٤)، فهذا يبين أهمية العقل وأن الدين والحياء ملازمان له. لا ينفكان عنه، فحيثما وجد لازماه. وينسب إلى علي رضي الله عنه. قوله:

إن المكارم أخلاق مطهرة
فالعقل أولها والدين ثانيها(١٥)

ومما يذكر للحسن البصري أنه قال: «ما تم دين عبد قط حتى يتم عقله»(١٦).

وقال إبراهيم بن حسان:

يزينُ الفتى في الناسِ صحةُ عقله
وإنْ كانَ محظوراً عليه مكاسبه
يشينُ الفتى في الناسِ قلةُ عقلِه
وإن كرمت أعراقه ومناسبه
إذا أكمل الرحمن للمرء عقله
فقد كملت أخلاقه ومآربه(١٧)

ومن المشهور قول الفرزدق:

ولا خيرَ في حُسنِ الجُسوم وطولها
إذا لم تَزِنْ حُسنَ الجُسوم عقولُ

نكتفي بهذه اللمحة عما قيل في العقل، مما يبين فضله وقيمته في حياة الأفراد والجماعات، فكتب السلف التي استقينا منها تلك اللمحة، زاخرة بما ورد عن العقل(١٨).

أحمد أمين والاحتكام إلى العقل

ننتقل بعد الذي تقدم إلى تناول مقالة الكاتب أحمد أمين «الاحتكام إلى العقل».

يرى الكاتب أن كل ما يقع من خصومات في المجتمع مرده - في الغالب - إلى عدم الاحتكام إلى العقل؛ وهذه هي القضية المركزية الأساسية في مقالته.

يتجلى عدم الاحتكام إلى العقل في عدة مظاهر في المجتمع:

- في نطاق الأسرة تقع نزاعات بين الزوجين، تتعلق مثلاً باحتياجات الزوجة أو بمتطلبات البيت والأبناء، تلك التي قد تتجاوز الإمكانية لرب الأسرة، وقد يتغاضى الزوج حرصاً منه على ماله، وانسياقاً مع هواه الذي مرده إلى البخل، أو إلى عدم اقتناعه بضرورة تلك الاحتياجات والمتطلبات، ولو تم الالتجاء إلى العقل وتحكيمه بتجرد عن كل الدوافع الذاتية لتم حل كل إشكال، ولما كان للنزاع مجال.

- أما خارج الأسرة فهناك صور كثيرة من النزاعات والخصومات منها:

- ما يكون بين خصمين.

- ما يكون بين جماعة وأخرى، ومن ذلك ما يقع بين الأحزاب السياسية، وقد تجري خصومات داخل كل حزب على حدة بين ما يضمه من تيارات ونزعات فئوية، وما قد يطرأ بين فرد وجماعة الحزب، وتنتقل هذه الخصومات إلى الصحافة وما قد يكون لذلك من تأثير في أفراد المجتمع ممن ينتمون إلى هذا الحزب أو ذاك أو لا ينتمون.

- ما يقع من خلافات داخل الإدارة تصل في أكثر حالاتها إلى نزاعات وخصومات، وقد يتعلق الأمر بمحاباة بعض الرؤساء للأفراد أو لفرد من أجل ترقية بغير موجب معقول، وإنما لغرض خاص بهؤلاء الرؤساء.

- تلك بعض الصور للنزاعات والخصومات التي تنغص على الناس حياتهم، وتبث الأحقاد، ولا تبقي للمودة مجالاً، ولا يخفى ما قد تؤدي إليه من مآس وجرائم ومفاسد، والسبب الجوهري في كل ذلك، عدم الاحتكام إلى العقل، والانسياق مع الأهواء. وقد يلجأ من يتنكب الاحتكام إلى العقل إلى ضروب من المسوغات الواهية، واصطناع الحجج الشكلية أو المسوغات التي يحاول صاحبها أن يلبسها لباس العقل في الظاهر لجعلها مقبولة، وهذا التصرف في حقيقته نوع من المغالطة.

إن تحكيم العقل ليس أمراً هين التحقيق يمكن أن يسود بيسر تصرفات الأفراد والجماعات داخل المجتمع، إنه أمر شاق يتطلب انتزاع الأنانية والخرافة، والانسياق مع الأهواء، ومحاربة الجهل والضعف الخلقي، والتمرن على التصرف الصحيح القويم؛ ولا يحصل ذلك إلا بالتربية وإشاعة المعرفة حتى تكون رؤية الناس إلى الأمور رؤية نافذة يدركون بها جوهر الأشياء وعمقها، ولا يكاد يخطئهم الصواب في تصرفهم ورأيهم، وكل هذا من صميم الاحتكام إلى العقل والاهتداء بنوره. ومن المعلوم أن التربية الصحيحة تتم في المنزل أولاً، وفي المؤسسات التعليمية، ثم هناك وسائل مكملة، مثل وسائل الإعلام بما تضمه من إذاعة وتلفزة وأشرطة مسموعة ومرئية وصحافة، وما يتبع هذه الوسائل من أندية ودور الثقافة، ثم ما يوجد في المجتمع من مرافق إدارية ومؤسسات.

> في المقالة الاجتماعية الموضوعية لا مجال لمشاعر الكاتب ولا للصور البلاغية لأنها تتوخى الإفهام والإبلاغ والإيضاح

فلو ساد الاحتكام إلى العقل في كل ما يعترض سير الأمور سيراً قويماً في المجتمع؛ داخل الأسرة أو خارجها، وعلى مستوى الأفراد والجماعات، بما في ذلك الهيئات والأحزاب والإدارات، لحلت كل المشكلات، ولما كانت هناك خصومات ونزاعات وأحقاد. والأعم من هذا أن ما يقع بين الدول من خلافات مرده إلى تغييب العقل سواء تعلق الأمر بالتعاون أو بالتبادل التجاري أو بالتعامل السياسي.

> **إقبال الكتّاب على المقالة الاجتماعية الموضوعية لم يصبح واسعًا إلا بعد شيوع دراسة العلوم الاجتماعية والنفسية، ثم أسهمت الصحافة في رواجها**

بلاغة الموضوع

نلاحظ من حيث الخطة التي سلكها أحمد أمين، أنه استهل مقالته بحصر عناصر الموضوع كلها بصورة مركزة.

وفي صلب المقالة أخذ يتناول كل عنصر على حدة منتقلاً من فكرة إلى أخرى مع ما يلزم من تحليل، ثم أتى بخاتمة تضمنت لُباب ما انتهى إليه.

واعتمد الكاتب على أمثلة منتزعة من الواقع ليدعم كل فكرة، وربما لهذا لم يرَ ما يدعوه إلى الاستدلال بالآيات والأحاديث، أو بالأمثال والأقوال المأثورة باستثناء قولة منسوبة لحكيم صيني تتعلق بما يشترط توافره فيمن يتقدم لزواج ابنته الوحيدة، فذكر أنه يشترط فيه فقط روح التعقل.

ونلاحظ أن الكاتب قصد إلى أن تكون مقالته مجملة، ولهذا لم يسق تفاصيل عن كل عنصر، واكتفى بما يوضح الغاية من أقرب سبيل. كما تعمد أن تكون صياغته ميسرة، وعباراته واضحة تدرك دون عناء، فقد استعمل ما هو كثير التداول؛ ولهذا يمكن وصف أسلوبه بأنه يتسم ببلاغة الوضوح في مقابل ما يعرف ببلاغة الغموض تلك التي غدت سمة لبعض أساليب شعر التفعيلة، وتتطلب من القارئ أن يبذل جهداً لإدراك ما وراء الظاهر، وكأنه يعيد إنتاج النص بضروب من تأويل الحمولة الدلالية.

لقد تمكن الكاتب من أن يسلك خطة محكمة متسقة، وسار عبر مراحل مقالته وفق منهج متدرج من الإجمال إلى التحليل مع الاقتصار على ما يبين قصده.

ويبدو أن مشاعر الكاتب ميّالة إلى تحبيب القارئ إلى الاحتكام إلى العقل، ويتطلع بصدق إلى أن يطبع سلوك الأفراد في المجتمع ويتجذر بعمق حتى يمكن تلافي كثير من الآفات، وهذه المشاعر لا يظهرها بصورة المندفع وإنما يستطيع القارئ أن يستشفها، ويدرك أنها منبثة في ثنايا عباراته بهدوء وتعقل؛ ولهذا لم يلجأ إلى استعمال الجمل الندائية والترغيبية والإغراء، ولم يصب جام غضبه على من يحتكم إلى هواه مستبعداً عقله، وعمد إلى الإقناع بسوق أفكاره بيسر وأمثلة واضحة لها نظير في الواقع المعيش، وقد اضطره ذلك إلى الإتيان ببعض الكلمات أو الجمل المترادفة لتقوية الدلالة وإبرازها بما يضمن استيعاب القارئ لها.

المراجع والهوامش

١. مبادئ علم الاجتماع، د. محمد بدوي، ص٢٠٧، دار المعرفة الجامعية ـ الإسكندرية، ط٢، ١٩٩٣م.
٢. المرجع السابق، ص: ١٧٩ ـ ٢٠١، وقابل بما ورد في كتاب المدخل إلى علم الاجتماع، تأليف: جماعي، ص٢٢ ـ ٢٥، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان ـ الأردن ١٩٩٢م.
٣. المشكلات الاجتماعية، د. محمد أحمد بيومي، ص ٢٢ ـ ٥٣، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية ١٩٩٣م.
وازن بما ورد في كتاب: «المدخل إلى علم الاجتماع» مرجع مذكور سابقاً، ص٣٧٢.
٤. خاطرات جمال الدين الأفغاني الحسيني، محمد باشا المخزومي، ص ٢٨٩، ٢٩٩، دار الحقيقة، بيروت ط٢ ـ ١٩٨٠م.
٥. العروة الوثقى لمحمد عبده وجمال الدين الأفغاني، ص ١٣٩ ـ ٩٩، دار الكتاب العربي، بيروت ط١ ـ ١٩٧٠م.
٦. قاسم أمين، الأعمال الكاملة، جمع وتحقيق محمد عمارة، ص ١٨٥، ٣٢٢، ٣٧٤، دار الشروق ـ بيروت ـ القاهرة، ط٢ ـ ١٩٨٩م.
٧. الصور لمحمد السباعي، ص ٧٩، ٨٧ كتاب الهلال، العدد ٢٠٧ ـ يونيو ١٩٧٦م، إصدار دار الهلال ـ القاهرة.
٨. اللمحات، لمحمد توفيق دياب، ص ٤٦، ٥٦، ١٥٠، ١٥٧، مطبعة مصر ـ القاهرة ١٩٤٧م.
٩. أريج الزهر للشيخ مصطفى الغلاييني، ص١١٠،١١٢، ١٣٤، ١٤٧، المكتبة العصرية ـ صيدا ـ بيروت ١٩٦١م.
١٠. انظر كتاب «النظرات» للمنفلوطي، ٣ أجزاء، وللرافعي «وحي القلم»، وللزيات «وحي الرسالة»، وللطنطاوي «فكر ومباحث» و«مع الناس» و«رسائل الإصلاح» و«مقالات في كلمات».
١١. ولد أحمد أمين في القاهرة، وبعد حفظ القرآن الكريم والمتون دخل الأزهر ثم مدرسة القضاء الشرعي التي تخرج فيها، مارس التدريس في الابتدائي وفي مدرسة القضاء وزاول القضاء، وانتقل بعد ذلك إلى التدريس في كلية الآداب، وبعد سنوات صار عميداً لها، كما عين مديراً للإدارة الثقافية في وزارة المعارف وفي الجامعة العربية، له عدة مؤلفات منها: فيض الخاطر في عشرة أجزاء، توفي ـ يرحمه الله عام ١٩٥٤م.
١٢. فيض الخاطر لأحمد أمين، ج٩، ص:٢٨٩، مكتبة النهضة المصرية، ط٣ ـ القاهرة.
١٣. أدب الدنيا والدين للماوردي، ص:٣٣، تحقيق مصطفى السقا، مراجعة وتعليق الشيخ محمد شريف سكر ـ دار إحياء العلوم بيروت، ط١ ـ ١٩٨٨م.
١٤. روضة العقلاء ونزهة الفضلاء لأبي حاتم محمد البستي، ص:٢٠، شرح وتحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد ومحمد عبدالرزاق حمزة ومحمد حامد الفقي، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٧٥م.
١٥. من الشعر المنسوب للإمام علي بن أبي طالب، ص١٥٤، جمعه وشرحه عبدالعزيز سيد الأهل، دار صادر بيروت، ط٢، ١٩٨٠م.
١٦. روضة العقلاء، ص١٩.
١٧. أدب الدنيا والدين ص٣٤.
١٨. انظر ـ على سبيل المثال ـ عيون الأخبار لابن قتيبة، ج١، ص٢٧٩، وبهجة المجالس وأنس المجالس لابن عبدالبر القرطبي، ج١، ص: ٥٣٦، ومحاضرات الأدباء للراغب الأصبهاني ج١، ص:١٣.

النشاطات الحِرْفيَّة والمِهْنيَّة في صدر الإسلام

حسن عبدالغني أبو غدة
الرياض ـ السعودية

الحِرْفة (بكسر الحاء وسكون الراء): جمعها حِرَف، وهي في لغة العرب: طرائق ووسائل الكسب من زراعة وتجارة وصناعة وغيرها، ويقال للواحد: حِرْفيّ (بكسر الحاء وسكون الراء) وهو من يكسب رزقه بالعمل في حرفة ما، بصفة مستمرة ومنتظمة.
أما المِهْنة (بكسر الميم وسكون الهاء): فهي غالبًا تخص ماله صلة بالعمل اليدوي الذي يصاحبه ـ عادة ـ ابتذال واتّساخ في اليدين والملابس كالحدادة ونحوها.
وقال بعض أهل اللغة: إن المهنة تزيد على الحرفة بوجود خبرة ومهارة وحذق نتيجة الممارسة الأطول. وفي الموضوع أقوال وآراء أخرى، لا فائدة كبيرة من ذكرها.

وعلى العموم فإن الحِرَف والمهن هي: مجموعة من النشاطات التي يتكسَّب بها الإنسان المال، سواء ببذل جهد بدني أو فكري.

مكانة العمل والكسب في الإسلام

عدّ الإسلام الكسب والاحتراف عبادة يؤجر عليها الإنسان المستخلف في الأرض؛ لأن مفهوم العبادة لا يقتصر على الصلاة والصوم والحج، بل إن جميع الأعمال والوظائف والمهن والحرف التي يتوصل بها الإنسان، أو بشيء منها إلى تحقيق احتياجاته الفردية، أو احتياجات المجتمع، أو نفع الناس والسعي في راحتهم، وازدهار حياتهم هي من العبادات بالمعنى العام.

روى البزار والطبراني عن كعب بن عجرة ـ رضي الله عنه ـ قال: «مرَّ على النبي صلى الله عليه وسلم رجل، فرأى أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم من جلده ونشاطه فقالوا: لو كان هذا في سبيل الله. فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن كان خرج يسعى على ولده صغارًا فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يسعى على أبوين شيخين كبيرين فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يسعى على نفسه يعفُّها فهو في سبيل



لوحة «سوق عربي» للفنان فيليب بيفي توضح أنواعًا من النشاطات التي تمارس في هذا السوق

الله، وإن كان خرج يسعى رياء ومفاخرة فهو في سبيل الشيطان». وبذلك نرى أن النبي صلى الله عليه وسلم جعل العمل مكافئًا للجهاد في سبيل الله، وذلك من أوضح العبادات.

وروى البيهقي والطبراني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ قال: «إن الله يحب المؤمن المحترف».

ومن الثابت في القرآن والسنة: أن آدم كان حرّاثًا، وكان نوح نجارًا، وكذلك زكريا، وكان داود زرّادًا يصنع لباس

الحرب، وكان إدريس خياطًا، وكان موسى راعيًا، بل إن النبي محمدًا صلى الله عليه وسلم - عمل تاجرًا وراعيًا للغنم، وهو الذي قال - كما في صحيح البخاري: «ما بعث الله نبيًا إلا رعى الغنم».

أهداف الاحتراف والكسب

يرمي الإسلام من وراء دفع الفرد إلى الكسب والاحتراف إلى تحقيق عدة أمور ذات أبعاد تربوية ومعيشية واجتماعية وتنموية وإنسانية، ومن ذلك: حفظ كرامة الإنسان عن مذلة السؤال والتسول، وتعويده الاعتماد على نفسه في كسب معيشته بالعمل المنتج المفيد له ولمجتمعه، وفي الحديث الذي رواه البخاري: «لأن يأخذ أحدكم أحبله، فيأتي بحزمة من حطب على ظهره، فيبيعها فيكفُّ الله بها وجهه (عن التذلل للناس) خير له من أن يسأل الناس أعطوه أم منعوا».



نسج السجاد وبيعه من الحرف الشائعة «اللوحة للفنان جوليو روساتي»

ومن هذه الأهداف: تعويد الفرد تحقيق ذاته، والمشاركة في بناء المجتمع صناعة أو تجارة أو زراعة أو وظيفة، بعيدًا عن الكسل والتواكل والخمول.

ومن هذه الأهداف أيضًا: إقامة المجتمع الإسلامي القوي المستغني عن غيره؛ وذلك من خلال استخراج المواد الأولية ومعالجتها وتصنيعها واستثمارها في الميادين التنموية وتصدير الفائض منها، فضلاً عن تصنيع السلاح الذي تصان به البلاد، ويدافع به عن الأنفس، ويرهب به عدو الله.

قال الله تعالى: *وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم*. الأنفال: ٦٠. وفي السيرة النبوية: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أرسل عروة بن مسعود، وغيلان بن سلمة إلى جرش، ليتعلما صناعة الدبابات والمنجنيقات، وبذلك تحقق للمسلمين الاعتماد على أنفسهم.

ومن هذه الأهداف: إرساء قاعدة التعاون الاجتماعي والإنساني؛ لأجل استمرار الحياة وتحقيق المنافع المختلفة للناس؛ لأن كل واحد محتاج إلى غيره في طعامه وشرابه ولباسه وأثاثه ووسائل حياته، فكان لابد من ممارسة الحرف والمهن كافة وتشجيع أصحابها، لتنتظم حياة الأفراد والمجتمعات ليصل كل واحد منهم إلى مطلوبه.

ونتيجة لما تقدم، فقد كانت أسواق المسلمين في صدر الإسلام حافلة بالحرف والمهن والصناعات والنشاطات الاقتصادية المتنوعة ومن ذلك ما يلي:

بيع الأقمشة والثياب

يطلق العرب على هذه الحرفة «البزازة» ويقال للثياب: «بزّ» ولبائعها «بزّاز».

وكان في المدينة المنورة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم - سوق للبزّازين، قال أبو هريرة: دخلت السوق مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فجلس إلى البزازين فاشترى سراويل بأربعة دراهم، وكان لأهل السوق وزّان يزن للناس.. رواه أحمد والطبراني وأبو يعلى.

وممن اشتغل بهذه الحرفة عثمان بن عفان - رضي الله عنه - فقد ذكر ابن قتيبة في كتابه «المعارف» أن عثمان كان بزّازًا، وكذلك كان طلحة بن عبيد الله، وكانت غلته كل يوم ألفي درهم، ومنهم سويد بن قيس العبدي الذي اشترى منه النبي صلى الله عليه وسلم السراويل، ومنهم سماك بن حرب، وكان يشتري البزّ من هجر (وهي اليوم في المنطقة الشرقية من المملكة العربية السعودية) ومنهم عمر بن الخطاب وابنه عبدالله، وعبدالرحمن بن عوف....

خياطة الثياب ونحوها

كانت هذه الحرفة موجودة ومنتشرة في صدر الإسلام، وكان لها آلاتها وأدواتها وأماكنها، ومما روي في هذا: أنّ خيّاطًا دعا النبي صلى الله عليه وسلم إلى طعام صنعه له، فذهب إليه. رواه البخاري.

ومن الخيّاطين المعروفين في عصر النبوة عثمان بن طلحة الذي دفع إليه النبي صلى الله عليه وسلم مفتاح الكعبة في فتح مكة في السنة الثامنة للهجرة. ومنهم عيسى بن أبي عيسى.

نسج الثياب وحياكتها

كان في المدينة المنورة نسّاجون ونسّاجات يحيكون الثياب وغيرها من خيوط الحرير والصوف والكتان وغيرها. وكان بعضهم يمارسون هذه الحرفة في الأسواق، وبعضهم يمارسونها في البيوت، ولاسيما النساء.

قال سهل بن سعد: حُكْتُ للنبي صلى الله عليه وسلم جبة من صوف، وجعلت حاشيتها سوداء، فلما لبسها قال: انظروا ما أحسنها، وما أبهجها! فقام إليه أعرابي فقال: يارسول الله هبها لي، قال: فكان إذا سئل شيئاً لم يبخل به، فدفعها إليه، وأمر أن تحاك له جبة أخرى، فمات وهي في المحاكة. أخرجه الطبراني والطيالسي.

وأخرج البخاري: أن امرأة جاءت ببُرْدة منسوجة إلى النبي



الخرازة من الصناعات التي ازدهرت في صدر الإسلام

صلى الله عليه وسلم فقالت: إني نسجت هذه بيدي، فجئت أكسوكها، فأخذها النبي صلى الله عليه وسلم. وكانت هذه البردة من صوف، وجُعل لها في حاشيتها خطوط وزخرفات.

وذكر ابن الجوزي: أن نفراً كانوا يعملون في نساجة الصوف والحرير ونحوه، منهم الزبير بن العوام، وعمرو بن العاص، وعامر بن كريز.

بيع العطور والطيب

كان منتشراً في عصر صدر الإسلام ويقال لصاحبه: العطّار، وفيه ورد حديث البخاري: «مثل جليس الصالح والسوء كحامل المسك ونافخ الكير. فحامل المسك إما أن يحذيك وإما أن تبتاع منه وإما أن تجد منه ريحاً طيبة، ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك وإما أن تجد ريحاً خبيثة».

ومن العطارين المعروفين زمن النبوة: عبدالله بن ربيعة وأمه أسماء بنت مخربة، والحولاء بنت ثويب.

حرفة الصرافة

اشتغل المسلمون بالصرافة، فكانوا يبدلّون ويستبدلون العملات السائدة وقتئذ، وكانت من الدنانير الذهبية المصنوعة في بلاد الروم، ومن الدراهم الفضية المصنوعة في بلاد الفرس. ثم ضرب المسلمون العملات في بلادهم زمن عبدالملك بن مروان الخليفة الأموي، واستغنوا عن النقد الأجنبي، وفكوا ارتباطهم به.

وتنوعت العملات بعدئذ داخل الدولة الإسلامية فعرف منها: الدينار الدمشقي، والدينار المرسل، والدينار الجيشي، والدينار الخراساني، والدرهم الأبيض، والدرهم الصغير، والدرهم الوافي، والدرهم الأسود..

ومن الصرافين المشهورين في صدر الإسلام: زيد بن أرقم، والبراء بن عازب، والحارث بن الحكم، وأبو المنهل.

وفي زمن الخليفة عثمان بن عفان اتسع سوق الصرافين، فوضع له عثمان مراقباً ليراعي أمر المثاقيل والموازين في أثناء صرف العملات التي كانت مصنوعة من الذهب والفضة ونحوها.

صناعة الرماح والنبال والسيوف

انتشرت في صدر الإسلام بعض الصناعات الحربية الخفيفة، كصنع السيوف والرماح والنبال وغيرها، وكان لهذه المهن أماكن مستقلة خاصة بها، يمارسها الحدادون من ذوي الكفاءة العالية والمهارة المميزة، وكان الواحد منهم يسمى صانعاً.

ومن أشهر هؤلاء الصناع أبو سيف الذي زاره النبي صلى الله عليه وسلم، فصادفه ينفخ في كيره، وقد امتلأ المكان دخاناً، فلما رأى النبي صلى الله عليه وسلم أمسك عن نفخ الكير، إكراماً له.

ومن أشهر صناع أدوات القتال والحرب أيضاً: خبّاب بن الأرتّ أحد السابقين إلى الإسلام والمعذبين في سبيل الله، ومنهم سعد بن أبي وقاص الذي كان يجيد بري النبال، ومنهم الأزرق بن عقبة الثقفي الذي أسلم في أثناء حصار الطائف.

وقد سعى النبي صلى الله عليه وسلم لتنشيط الصناعة الحربية بين المسلمين، حتى يقووا على قتال عدوهم، فقد روي

أنه لما افتتح خيبر أسر ثلاثين قيْنًا (حداداً وصانع سلاح) فقال لأصحابه: «اتركوهم بين المسلمين ينتفعون بصناعتهم، ويتقوون بها على جهاد عدوكم».

وقد ازدهرت هذه الصناعة داخل الدولة الإسلامية، ومما يدل على هذا انتشار المتاجرة بها لبيعها للمجاهدين الذين كانوا يمولون أنفسهم، ويشترون أدوات الجهاد بأموالهم، بسبب محدودية مال الدولة التي كانت في طور نشأتها الأولى.

روى ابن سعد في الطبقات أن نوفل بن الحارث بن عبدالمطلب كان يتاجر في الرماح، وأن المسلمين أسروه ببدر، ففدى نفسه بألف رمح، ثم أسلم بعدئذ، وتبرع للنبي صلى الله عليه وسلم يوم حنين بثلاثة آلاف رمح، فقال له: كأني أنظر إلى رماحك يا أبا الحارث تقصف في أصلاب المشركين.

الزراعة والغراسة

كثر اعتناء المسلمين بالزراعة والغراسة لسدِّ احتياجات المجتمع المسلم، وتحقيق الاكتفاء الذاتي في الأمن الغذائي، حتى لا يكون تحت رحمة غيره من المجتمعات الأخرى. وقد شجع النبي صلى الله عليه وسلم على ذلك فقال: «ما من مسلم يغرس غرساً أو يزرع زرعاً فيأكل منه إنسان أو طير أو بهيمة، إلا كان له به صدقة». أخرجه مسلم.

إن جميع الأعمال والوظائف والمهن والحرف التي يتوصل بها الإنسان، أو بشيء منها إلى تحقيق احتياجاته الفردية، أو احتياجات المجتمع هي من العبادات بالمعنى العام

وقد عمل كثير من الصحابة في الزراعة، واشتهرت المدينة المنورة بمزارعها وبساتينها، وأقطع النبي - صلى الله عليه وسلم - رجالاً من أصحابه الأراضي الواسعة ليعمروها ويزرعوها ويستثمروها، ومن هؤلاء: أبو بكر الصديق، وعمر بن الخطاب الذي أعطي أرضاً نفيسة بخيبر، ومنهم ربيعة الأسلمي.

وأعطى أبو بكر - في خلافته - أرضاً زراعية لطلحة بن عبيد الله، وأرضاً أخرى لعيينة بن حصن، وأرضاً ثالثة للزبير بن العوام.

وتوسع عمر في توزيع الأراضي ليقوم الناس بإحيائها وزراعتها واستثمارها، فأعطى سعد بن أبي وقاص وعبدالله بن مسعود والزبير بن العوام وعلي بن أبي طالب وأسامة بن زيد وآخرين.

وكذلك فعل من بعده من الخلفاء والحكام عثمان وعلي ومن بعدهما.

وكان الناس يزرعون أراضيهم بأنفسهم وأهليهم، أو يؤجرونها للزراعة والغراسة، أو يعطونها للزُّراع بالربع والثلث.

قال موسى بن طلحة: رأيت سعداً وابن مسعود وجبر بن عتيك يعطون أرضهم بالثلث وبالربع..

وكانت بعض المزارع والبساتين تحمل في السنة مرتين، وكان يزرع فيها أنواع الحبوب وأصناف الثمار المعروفة وقتذاك، ويذهب بها إلى سوق المدينة المنورة، أو أسواق الأماكن المجاورة.

حرفة الحلاقة والحجامة

عُرف بعض الناس في صدر الإسلام باحتراف حلاقة شعر الرأس، وكان أكثر الحلاقين يمارسون حرفة الحجامة، ويقال للواحد منهم: حجّام، وهو من الأطباء الشعبيين قديماً، ويقوم بامتصاص الدم من جسم المحتجم بأدوات خاصة.

وممن اشتغل بهذه الحرفة: خراش بن أمية الذي حلق رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم مرات عدة.

ومن الحلاقين: معمر بن نضلة، وأبو رحيمة، ومن الحجامين: أبو هند وأبو طيبة وسالم الحجام، وقد احتجم عندهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومن حجامي التابعين: خراش بن مالك.. وكانت أجرة الحجامة درهماً واحداً.

القصّاب (اللحّام)

كانت القصابة من الحرف المعروفة في صدر الإسلام، وكان للجزارين أماكن مشهورة في أسواق المدينة المنورة وغيرها. وقد ورد في الصحيح عن ابن مسعود قال: جاء رجل من الأنصار يكنى أبا شعيب، فقال لغلام له قصاب: اجعل لي طعاماً يكفي خمسة، فإني أريد أن أدعو رسول الله صلى الله عليه وسلم - خامس خمسة.

وممن اشتهر ببيع اللحم خالد بن أسيد الأموي، ورجل يقال له: كرَّام، كان له محل في زقاق معروف بالمدينة.

واشتغل الزبير بن العوام وعمرو بن العاص وعامر بن كريز في بيع اللحم.

حرفة الماشطة

الماشطة هي: امرأة تُحسن صناعة المَشْط وتجميل النساء وتحسين هيئاتهن، وبخاصة في المناسبات الاجتماعية، وهي تقوم بدور بيوت التجميل اليوم.

وكانت الماشطة في صدر الإسلام تتصف بالفصاحة والثقافة العامة وإجادة الكلام ومؤ انسة زبائنها.

ومن الماشطات المعروفات: أم سليم بنت ملحان التي مشطت وأصلحت من أمر صفية بنت حيي حين أعرس بها رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ومنهن امرأة يقال لها: زُفَر، كانت ماشطة مشهورة في مكة، وجاءت إلى النبي صلى الله عليه وسلم في المدينة، فأكرمها واحتفى بها، وقال: إنها كانت تأتينا أيام خديجة.

ومن الماشطات آمنة بنت عفان أخت عثمان، وشبرة بنت صفوان القرشية، وأم رعلة القشيرية واشتهرت بفصاحة لسانها وحسن مؤانستها للنساء.

وكان يقال للماشطة: قَيْنة، وهذا من التقيين الذي هو التزيين ومشط الشعر للعروس ولمسواها.

حرف ومهن أخرى

عرف الناس في صدر الإسلام حرفًا ومهنًا أخرى غير ما تقدم ومن ذلك: الدباغة، والخرازة، و السمسرة، والنجارة، وبيع العقاقير، والتجارة في العنبر، وصياغة الذهب (كان يقال لمحترفها: صائغ).

ومن ذلك أيضًا: النقاشة (حرفة النقّاش الذي ينقش الخواتم وغيرها) ومنها: حرفة السقّاء (للمياه) والطبّاخ، والبنّاء (للبيوت) والخبّاز، والختّان، واللّبان (بائع اللبن والحليب)، والصبّاغ (الذي يصبغ الثياب) والخوّاص (الذي يصنع القفاف والسلال من خوص ورق النخل). وبها عمل سلمان الفارسي الصحابي المشهور.

وكان هناك من يصنع الأنوف من المعادن، ويربط الأسنان بها. ذكر أبو داود وابن حجر: أن الضحاك بن عرفجة قطع أنفه في إحدى الغزوات، فاتخذ أنفًا من فضة فأنتن - تغيرت رائحته وخبثت - فأمره النبي صلى الله عليه وسلم أن يتخذ أنفًا من ذهب.

وروى أهل السيرة والتاريخ أن عددًا من الصحابة شدُّوا أسنانهم بالذهب، منهم عثمان بن عفان رضي الله عنه. وهذا يدلك على دقة الصنعة والإتقان التي بلغته النشاطات المهنية في صدر الإسلام.

ومن الحرف الأخرى: الرسم، ففي صحيح البخاري: أن رجلاً قال لابن عباس: إني رجل معيشتي من صنعة يدي، وإني أصنع هذه التصاوير - يعني الرسومات - فقال ابن عباس: اصنع الشجر ومالا روح فيه.

هذه صورة مجملة عن النشاطات المهنية والحرفية التي كانت منتشرة في صدر الإسلام، والتي تمثل صورة حضارية بسيطة في ذلك المجتمع الناهض، الذي كافح ليثبت وجوده في ذلك الوقت العصيب.

كانت أغلب النشاطات تمارس في الأسواق والطرقات، وقد أفرد لبعضها أسواق خاصة تناسب السلع والنشاطات التي ترد إليها

وقد كانت أغلب هذه النشاطات تمارس في الأسواق والطرقات، وقد أفرد لبعضها أسواق خاصة تناسب السلع والنشاطات التي ترد إليها.

روى الطبراني أن رجلاً جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: إني رأيت موضعاً للسوق ، أفلا تنظر إليه؟ قال: بلى، فقام معه حتى جاء موضع السوق، فلما رآه أعجبه، وركض - ضرب - برجله وقال: نعم سوقكم هذا.. وفي رواية لابن ماجه: أنه ذهب إلى سوق النَّبَط - مكان ينبط بالماء، ويجعل التربة حوله رطبة - فنظر إليه فقال: ليس هذا لكم بسوق، ثم رجع إلى موضع، السوق فطاف فيه، ثم قال: هذا سوقكم.

فهذه الصور والمعالم من تاريخنا الماجد، فيها ذكرى وعبرة لأبناء أمتنا، لعلهم يغذُّون السير في الاعتماد على أنفسهم، والإفادة من مواردهم وإمكاناتهم العظيمة.

المراجع

١. القرآن الكريم.
٢. مجموعة من كتب الحديث النبوي الشريف.
٣. إحياء علوم الدين للغزالي.
٤. الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر.
٥. إمتاع الأسماع بما للرسول من الأبناء والأموال والحفدة والمتاع للمقريزي.
٦. البداية والنهاية لابن كثير.
٧. التراتيب الإدارية للكتاني.
٨. السيرة النبوية لابن هشام.
٩. الطبقات الكبرى لابن سعد.
١٠. القاموس المحيط للفيروز أبادي.
١١. المعارف لابن قتيبة.
١٢. المعجم الاقتصادي الإسلامي للدكتور أحمد الشرباصي.
١٣. المعجم الوسيط لمجمع اللغة العربية بالقاهرة.
١٤. المقدمة لابن خلدون.
١٥. المنتظم في تاريخ الملوك والأمم لابن الجوزي.

مخازن الكتب المخطوطة في طاجيكستان

صادق العبادي
طهران - إيران

في قلب العاصمة دوشنبه وفي مساحة ألف متر في قبو بناية (مركز مخطوطات أكاديمية علوم جمهورية طاجيكستان) يرقد ما يقارب ستة آلاف مخطوطة إسلامية باللغات العربية والفارسية والتركية، تعبر عن التاريخ الحضاري للمسلمين في خراسان وما وراء النهر.

لقد دخل الإسلام منذ القرون الأولى هذه البلاد، وعمت الثقافة الإسلامية أكثر من ألف عام، ولكن منذ القرن الماضي وبعد سقوط بلاد ما وراء النهر بيد الروس القياصرة، ومن ثم على يد الشيوعيين، انقطعت هذه البلاد عن المسلمين، فماذا بقي يا ترى من حضارة المسلمين، وما ماضي هذه البلاد، وما جهود أبناء طاجيكستان للحفاظ على تراثهم الأدبي والديني والثقافي العريق؟

الإسلام في طاجيكستان

طاجيكستان جمهورية مسلمة ومستقلة حديثًا عن الاتحاد السوفييتي السابق، وهي جزء من بلاد بخارى وما وراء النهر شرق خراسان، وتقع بين نهري جيحون وسيحون شمال أفغانستان.

هذه الجمهورية كانت مدة ثلاثة قرون قبل ثورة عام ١٩١٧م الشيوعية في روسيا تابعة لإمارة بخارى، ولكنها سقطت بيد الروس القياصرة عام ١٨٧٣م.

تقع طاجيكستان الحديثة بين أزبكستان وقرغيزستان والصين وأفغانستان، وعدد سكانها اليوم نحو ٨ ملايين نسمة، وعاصمتها دوشنبة على طريق الحرير القديم، ومن مدنها المهمة طاشقند وخجند.



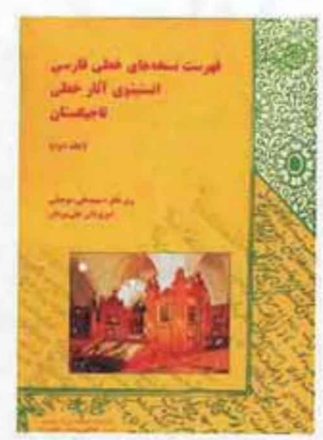
لوحة من كتاب تاريخ جهانكشاي للجويني، نسخة ٨٤١هـ

أكثر سكان طاجيكستان من المسلمين الطاجيك (على المذهب الحنفي)، ويتكلمون ويكتبون باللغة الفارسية، وقد كان الخط والحرف العربي هو السائد حتى عام ١٩٣٠م، ومنذ ذلك التاريخ، وبضغط من الحكم الروسي الشيوعي تم تبديل الخط العربي والفارسي إلى الخط اللاتيني، ومنذ عام ١٩٤٠م تم تبديله إلى الخط السيريلي الروسي Cyrillicalphabet(١)، وعلى الرغم من مقاومة السكان المسلمين لذلك خلال خمسين عامًا من السيطرة الروسية، تم تعميم الخط الروسي عليهم، ولم يبق اليوم من المسلمين إلا نحو ١٠٪ منهم ممن يعرف الكتابة بالخط العربي، وهناك سعي حثيث من الجهات الرسمية والإسلامية لنشر الثقافة الإسلامية، والخط العربي بدل الخط الروسي في طاجيكستان، وإنشاء المدارس وطباعة الكتب العربية والفارسية، ولكن المانع الرئيس هو انتشار اللغة الروسية بين الطاجيكيين المتعلمين. والميزانية الكبيرة التي يحتاج إليها هذا المشروع لتغيير الكتب الدراسية.

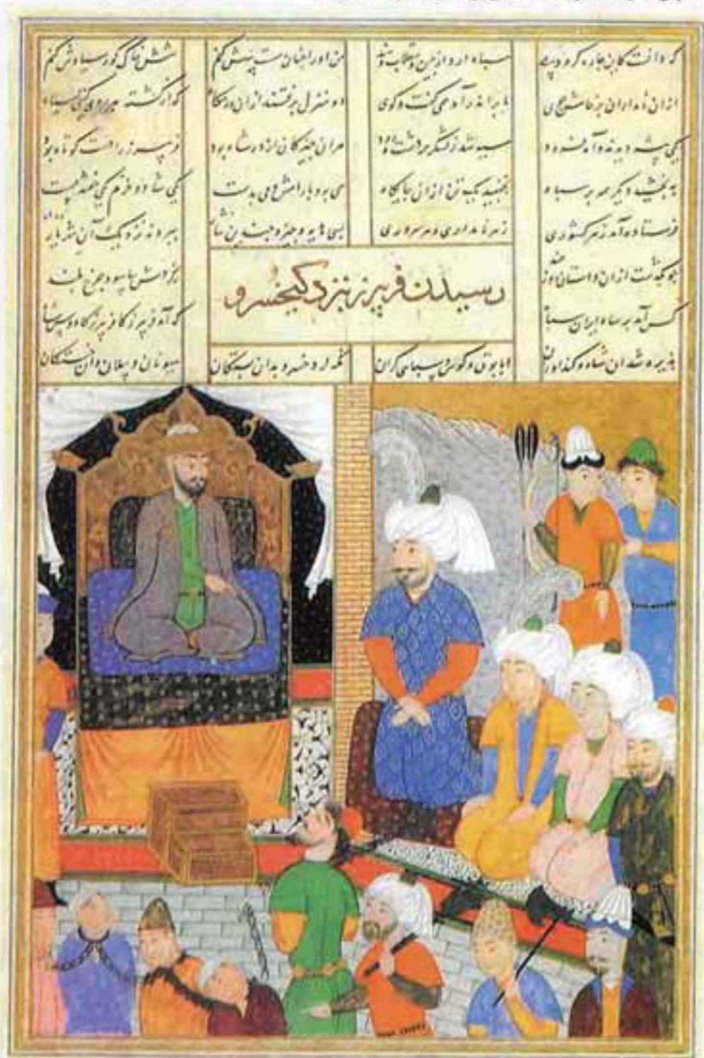
وتعد اللغة الطاجيكية لغة فارسية قريبة جدًا من الفارسية السائدة في إيران اليوم باستثناء بعض المفردات، ويذهب بعض الباحثين إلى أن مصدر الفارسية الحديثة الإيرانية ونموها كان من منطقة خراسان

وما وراء النهر غرباً إلى بلاد فارس(٢)، وقد ظهر كبار الشعراء الفرس من أمثال أبي عبدالله الرودكي (ت٣٠٤هـ) وأبي القاسم الفردوسي (ت٤١١هـ)، وعمر الخيام (ت٥١٧هـ)، والنظامي العروضي السمرقندي (ت٥٦٠هـ)، وعبدالرحمن الجامي (ت ٨٩٨هـ) في منطقة خراسان الكبيرة وبلاد ما وراء النهر.

وقد أصبحت هذه المناطق في فترة من الفترات من المراكز العلمية المهمة، حيث ظهر منها كبار المحدثين والفقهاء والشعراء والكتاب وعلماء الطب والنجوم من أمثال الإمام البخاري والإمام الغزالي وأبي منصور السمرقندي وأبي زيد البلخي وأبي معشر البلخي وأبي العباس السرخسي وابن سينا والزمخشري وكثيرين. وقد أنتج هؤلاء خلال مئات السنوات آلاف الكتب في مختلف العلوم والمعارف الإسلامية.



غلاف الكتاب



لوحة من الشاهنامه، مدرسة تركمان، القرن التاسع

المكتبات في طاجيكستان

مكتبات طاجيكستان من المراكز المهمة التي تحتوي على آلاف المخطوطات الإسلامية باللغات العربية والفارسية والتركية، وتزخر هذه المكتبات بمئات الكتب في العلوم الإسلامية المختلفة، كالتاريخ والفلسفة والأدب والفقه والحديث وعلم الكلام، وأكثرها كتب مخطوطة. وبالإضافة إلى المخطوطات العربية التي تحتاج إلى رعاية واهتمام من البلدان الإسلامية هناك الكثير من هذه المخطوطات النادرة باللغة الفارسية خصوصاً في مجال التاريخ والجغرافيا والوثائق السياسية والأدب، وتعد بعض هذه المخطوطات من أندر المخطوطات التي كتبت بخطوط إسلامية جميلة ومزينة بالنقوش والزخرفة والتذهيب.

إن مراجعة هذه الكتب تكشف لنا عن مدى اهتمام المسلمين بالخط والتذهيب والفن والتجليد مما يعكس الجوانب الفنية للمسلمين. ولقد كانت مكتبات بخارى وسمرقند في عصر السامانيين من أعظم المكتبات العالمية.

الدراسات الشرقية في آسيا المركزية

اهتمت روسيا القيصرية منذ بداية القرن التاسع عشر بالدراسات الشرقية لدراسة مناطق المسلمين في تركستان وبخارى وإيران وشمال الهند كمدخل للسيطرة على هذه المناطق، وتحولت بطرسبورغ مركزاً مهماً في العهد القيصري للدراسات الشرقية، فتأسس فيها مكتب الدراسات الشرقية، والمتحف الآسيوي في أكاديمية العلوم عام ١٨١٨م، وكلية اللغات الشرقية لجامعة بطرسبورغ، واستمرت هذه المراكز حتى سقوط القياصرة عام ١٩١٧م.

ولكن التحول الأكبر بدأ منذ العهد الشيوعي؛ وذلك للأطماع التوسعية للحكومة الجديدة، فبالإضافة إلى المراكز السابقة أسسوا مراكز في مناطق المسلمين

بشكل مباشر، فأسست عام ١٩٢١م الجمعية العلمية للدراسات الشرقية في روسيا، ولكنها أغلقت عام ١٩٣٠م، ثم أسست مؤسسة الدراسات الشرقية لأكاديمية العلوم الروسية عام ١٩٣٠م، واستطاعت أن تشرف على المتحف الآسيوي، وباقي المراكز العلمية الأخرى، واستقرت عام ١٩٤٢م في الحرب العالمية الثانية في طاشقند، قبل أن تنتقل عام ١٩٥٠م إلى موسكو، وبإشراف مباشر للحكومة الشيوعية(٣).

وطاجيكستان من المراكز المهمة للدراسات الشرقية بشكل عام، والفارسية بشكل خاص، بسبب انتمائها إلى مجموعة الدول الناطقة باللغة الفارسية، وفيها ثلاث مؤسسات مهتمة بالدراسات الشرقية تابعة لأكاديمية العلوم الطاجيكية وهي: معهد أحمد دانش التاريخي Ahmed Danish Institute Of History، ومعهد رودكي للغة والآداب، ومؤسسة الدراسات الشرقية، بالإضافة إلى جامعة طاجيكستان الحكومية(٤).

إنشاء أول مكتبة خطية

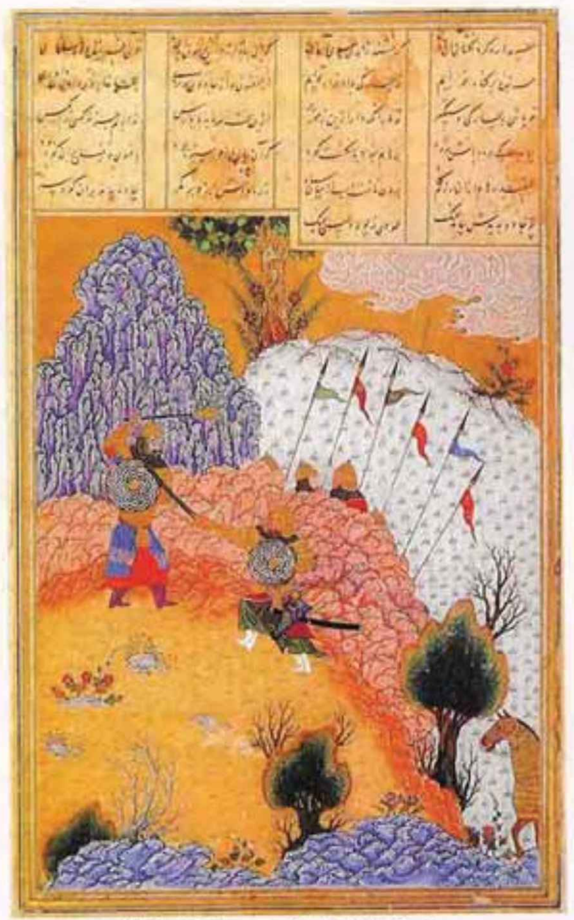
لقد بدأت نواة مخازن المخطوطات منذ تأسيس جمهورية طاجيكستان الروسية عام ١٩٢٦م؛ إذ سعت بعض المؤسسات إلى شراء الكتب المخطوطة وجمعها مثل: المكتبة العامة لجمهورية طاجيكستان، ومكتبة أكاديمية العلوم الروسية، ووزارة المعارف، وكلية تربية المعلمين في دوشنبة وخجند، واستطاعت هذه المؤسسات أن تجمع عدداً كبيراً من المخطوطات من المساجد والمدارس والمكتبات الخاصة والأشخاص. وفي عام ١٩٥٣م أسس قسم المخطوطات في أكاديمية العلوم الطاجيكية المستقلة، واستطاعت هذه المؤسسة أن تجمع المخطوطات من المراكز الأخرى في مركز واحد.

وبالإضافة إلى هذه الأكاديمية هناك مخطوطات كثيرة في المكتبة الوطنية الحكومية، ومخزن أبي القاسم الفردوسي، وكلية اللغة والآداب الطاجيكية، ومتحف سيميونوف التابع لمركز دراسات التاريخ والآثار، ومركز رودكي لدراسات اللغة والأدب الطاجيكي، ومكتبة دار المعلمين في دوشنبة وخجند، ومراكز فرعية أخرى(٥).

فهارس المخطوطات الفارسية

قامت أكاديمية علوم طاجيكستان أيام العهد الشيوعي بطباعة ستة مجلدات باللغة الروسية من فهارس المخطوطات الفارسية والتركية بإشراف عبدالغني ميرزاييف، وبالتعاون مع الباحثين الطاجيك(٦).

وقد قام الباحثان سيد علي موجاني من إيران، وامريزدان علي مردان من طاجيكستان بإعداد هذا الفهرس الجديد باللغة الفارسية



لوحة من الشاهنامه للفردوسي، هرات، نسخة ٨٣٣هـ

وبالحروف العربية اعتماداً على الفهارس الروسية، وهي أول محاولة في الترجمة في هذا المجال. وحمل هذا الكتاب عنوان «فهرست نسخه هاى خطى فارسى انستيتوى آثار خطى تاجيكستان»، وصدر في جزأين عن مركز دراسات آسيا المركزية والقوقاز في إيران بالتعاون مع معهد أبي ريحان البيروني للدراسات الشرقية التابع لأكاديمية العلوم في جمهورية طاجيكستان.

طريقة تعريف النسخ الخطية

استخدمت طريقة الباحث أحمد منزوي(٧) في تعريف الكتب الخطية في هذه المجموعة، وهذه الطريقة تشمل: اسم الكتاب، ورقمه، واسم المؤلف، وتاريخ التأليف، والموضوع، ونوع الخط، ونوع الورق، واسم الكاتب، وتاريخ الكتابة ومحلها، وعدد الأوراق، والنقوش، ونوع الغلاف، والملاحظات الأساسية.

وقد تناولت المجموعة نحو ١٣٠٠ مخطوطة في مختلف العلوم

من الطب والتاريخ والجغرافيا والآداب والنجوم والموسيقى والرياضيات والفقه والتصوف والصناعات والشعر والنثر.

ولم يتناول هذا الكتاب إلا الكتب الفارسية الخطية الموجودة في أكاديمية علوم جمهورية طاجيكستان، وسوف تصدر أجزاء أخرى تشمل المخطوطات العربية. وهذا الفهرس جاء من أجل التعريف بنماذج من الكتب الخطية المهمة في هذه المراكز، وتعدّ هذه الأكاديمية التي أسست قبل نصف قرن من المراكز المهمة للكتب المخطوطة في آسيا المركزية حيث تجمع فيها نحو ٥٧٥٠ مخطوطة يدوية و٦٣٤٠ كتاباً بالطباعة الحجرية. وتشكل الكتب العربية ثلث المكتبة، بينما تشكل الكتب الفارسية ثلثي المكتبة، وتغطي الكتب الفترة الزمنية من القرن السابع الهجري حتى القرن الرابع عشر.



لوحة إهداء كتب تاريخ الصين إلى الأمير أولجايتو من كتاب مجمع التواريخ للحافظ أبرو - هرات ٨٣٠هـ

نوادر المخطوطات وأقدمها

من أقدم المخطوطات في هذه المكتبة التي كتبت في القرنين السابع والثامن الهجريين، نسخة من «تاريخ الطبري» مع ترجمة وتكميل بالفارسية للبلعمي (ت ٣٦٣هـ) برقم ٢٠٠٠، و«التفهيم لأوايل صناعة التنجيم» لأبي ريحان البيروني (ت٤٣٠هـ) برقم ٣٨٥، و«كيمياء السعادة» لأبي حامد الغزالي (ت ٥٠٦هـ) برقم ١٠٠٧، و«ديوان سعدي الشيرازي» (ت ٦٩٠هـ) برقم ٥٠٣، و«شرح الكافية في النحو» لرضي الدين محمد الأسترابادي (ت نحو ٦٨٦هـ) برقم ٤٣٢١.

وهناك الكثير من المخطوطات والكتب النادرة التي كتبت بيد مؤلفيها، حتى إن بعض هذه النسخ فريدة لاتوجد نسخ منها في المكتبات الأخرى في العالم الإسلامي أو الغربي(٨).

ومن المخطوطات النادرة في هذه المكتبة «رسالة المقامات» للشيخ أبي سعيد أبي الخير، و«شرح المغني» لأبي محمد المنصور، و«إسكندرنامه» لابن عنايت بزاز سنائي، و«المرآة الطيبة» لمعين الدين ابن خواجه خاوند، و«أنيس الشعراء» لابن راجي الغزنوي.

ومن الكتب الأدبية الخطية التي كتبت في عصور مؤلفيها «نفحات الأنس من حضرات القدس» برقم ١١٨٣ لعبدالرحمن الجامي (ت٨٩٨هـ)، و«ديوان كليات عبيد الزاكاني» برقم ٥٥٥/١٣ من القرن الثامن، وكتاب «كليات الكاتبي النيسابوري» برقم ٨٨٤/١ من القرن التاسع.

وتعدّ الكتب الخطية لدواوين شعراء منطقة خراسان وما وراء النهر الموجودة في هذه المخازن، نسخاً فريدة مهمة للباحثين في مجال الأدب الفارسي وما وراء النهر.

وتحتوي هذه المكتبة على ١٢٠٠ لوحة من الخطوط الإسلامية من أشهر الخطاطين في خراسان وما وراء النهر من أمثال: سلطان علي مشهدي، ومير علي هروي، ومير عماد الحسيني الذين أبدعوا في مجال الخط والنقوش الإسلامية.

والاهتمام بفهرسة هذه المخازن، ودعم هذه المكتبات للحفاظ على التراث الإسلامي ثم طبعه ونشره هما مسؤولية المسلمين جميعاً.

المراجع والهوامش

١. مهدي سنائي، جايكاه إيران در آسياي مركزي «موقع إيران في آسيا المركزية» دار الهدى، طهران، ١٩٩٧م، ص ٨٧٠.

٢. للتفصيل عن تاريخ اللغات واللهجات الفارسية انظر: إيران كلباسي، فارسي إيران وتاجيكستان، طهران، ١٩٩٥م مؤسسة انتشارات الخارجية الإيرانية.

٣. انظر: ايرانشناس در شوروي [الدراسات الإيرانية في روسيا] مرتضى أسعد، مجلة نشر دانش، السنة٩، العدد١، ١٩٨٩م، وللمزيد انظر مجلة الدراسات الإيرانية في أمريكا.
Iranian Studies, VOL. xx, no. 2-4 (Iranian studies in Europe and Japan by Rude Mathee and Nikki Keddie), U.S.A, 1987.

٤. المصدر نفسه ص٢٢.

٥. من مقدمة الكتاب ج١ ص١٣.

٦. فهرس المخطوطات الشرقية في أكاديمية علوم طاجيكستان، دو شنبه، ١٩٧٠ باللغة الروسية.

٧. أحمد منزوي من الباحثين المعاصرين في إيران، وصاحب عدة مجموعات وفهارس للكتب الخطية كفهرس النسخ الفارسية (٧مجلدات) طهران ١٩٧٤، وفهرس الكتب الفارسية (فهرستواره كتابهاي فارسي) طهران ١٩٩٥م، والفهرس المشترك للكتب الخطية الفارسية في باكستان (١٣) مجلداً، إسلام آباد طبعت في ١٩٨٣ - ١٩٩١م.

٨. انظر فهرس المخطوطات الشرقية في أكاديمية علوم طاجيكستان، الجزء١، دوشنبه، ١٩٧٠م.

الأزياء الشعبية اليمنية
سماتها وخصائصها

علوي عبدالله طاهر
عدن - اليمن

يميل الفرد - أحياناً - إلى إبراز شخصيته، أو إظهار هويته عن طريق الأزياء التي يرتديها، من حيث اختيار نوع ملابسه، أو نوعية قماشه، أو شكل غطاء رأسه، أو طريقة وضعه لقطع ملابسه على جسمه على السواء.

وفي بعض الحالات قد تكون الأزياء تعبيراً عن انفعالات الفرد وصراعه مع محيطه، لذلك قد نجد بعض الشبان يرتدون ملابس ذات ألوان زاهية، وأشكال غريبة، ربما لتلافي توترهم النفسي، أو انفعالهم العاطفي، أو لتلبية حاجتهم إلى الطمأنينة، أو لجلب الانتباه نحوهم.

وقد ارتبطت الأزياء في بعض الحالات بشعائر معينة، أو عقائد دينية، أو عادات اجتماعية، كما ارتبطت في بعض المجتمعات بأغراض سحرية، أو علاجية. أي إنها لم تقف عند حد ستر الجسم والوقاية من البرد أو الحر، أو نحو ذلك، بل تجاوزتها إلى أغراض أخرى، كأن تكون لمنع الحسد، أو لجلب الخير، أو لضمان الإكثار..إلخ.



الألوان الزاهية والنقوش البديعة سمة ملابس المرأة اليمنية

إن الأزياء ظاهرة إنسانية مرتبطة بالأحوال النفسية، والاجتماعية للأفراد في أي مجتمع من المجتمعات، وربما تكون منحدرة عن أزياء عصور سابقة قام المجتمع بتكييفها بحسب الذوق الشعبي، بمقتضى المكان والزمان، وما يرتبط بهما من مناخ، أو ربما تكون تقليداً لأزياء شعوب أخرى تأثر بها المجتمع، نتيجة الغزو والاحتلال أو الهجرة، وما رافق ذلك من احتكاك تجاري وثقافي واجتماعي واقتصادي، وحضاري.. أو نحو ذلك. لذلك لا غرابة أن نجد تشابهاً في أزياء بعض الشعوب، واختلافاً في بعضها، ذلك أن بعض الشعوب قلدت أزياء شعوب أخرى، وبعضها ظلت محتفظة بهويتها وتميزها في أزيائها. وفي الحالتين فإن اختيار الملابس في أي مجتمع من المجتمعات نابع من شعور داخلي في الفرد أو الجماعة بأهمية المظهر الخارجي في الحياة الاجتماعية، ويتجلى ذلك بعناية الفرد بمظهره المتمثل باختيار ملابسه، وانتقاء الحلّي التي يتزين بها، وطريقة تسريح الشعر، لغرض الظهور بالشكل اللائق بموقعه الاجتماعي في المجتمع. وربما، لهذا السبب، نجد بعض الطبقات في المجتمع الواحد تميّز نفسها بأزياء معينة دون غيرها لإبراز تفوقها ويسر حالها، أو لإظهار كيانها المتميز من غيرها من

الطبقات، وهذا يدل على أن الأزياء وسيلة الفرد للتعبير عن نفسه، وعن علاقته بمجتمعه وبالمجتمعات الأخرى، فإذا انتشرت أزياء معينة في أي شعب، أو لبسها عامة الناس فيه، جيلا بعد جيل، فإن تلك الأزياء تصبح مع الأيام منسوبة إلى هذا الشعب، وتظهر هويته، وتميزه من غيره من الشعوب.

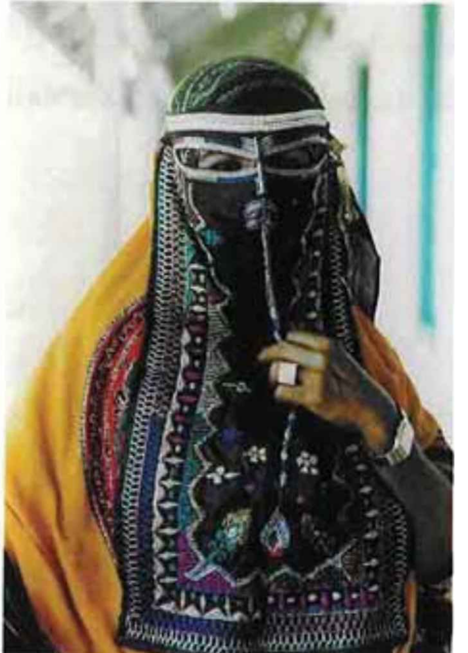
والشعب اليمني قد لا يُعنى بمظهره الخارجي ولا بزيّه، وما يتصل بذلك من ملابس وحليّ، قدر عنايته بباطن النفس، وما يتصل بها من طيبة القلب، وصفاء الروح، وحسن الأخلاق؛ وذلك لأن اليمنيين لا تغريهم المظاهر المزيفة، ولا تخدعهم الثياب المزركشة الجميلة، أو بريق ألوانها الزاهية، لاعتقادهم أن الفرد لا يقاس بملابسه ولا بمظهره، وإنما بجوهره ومخبره، فشخصية الفرد تتجلى - في نظرهم - في طهارة قلبه، ونقاء روحه، وصفاء فؤاده، إلى جانب نظافة الثوب والبدن، ولذلك هم لا يميلون إلى البذخ في الثياب، ويمقتون الأشخاص الذين يتباهون بثيابهم، وفي ذلك قال شاعرهم القديم عمرو بن معدي كرب الزبيدي (ت:٢١هـ):

ليس الجمال بمئزر
فاعلمْ وإن رُدِّيت بُرْدا
إن الجمال معادنٌ
ومناقب أورثن مجدا

فهم لا يرون المظهر الخارجي مقياساً لشخصية الفرد، ولا هو سر جماله، ولا معياراً لمكانته الاجتماعية، فقد قال أبو إدريس الخولاني (ت:٨٠هـ): «قلبٌ نقي في ثوب دنس، أحبُّ إليَّ من قلبٍ دنس في ثوبٍ نقي».

ومن أقوالهم المأثورة: «لا ينبغي للمرء أن يزيد في نظافة ثيابه إلا بالقدر الذي ينظف به قلبه، ليماثل ظاهره باطنه»، وقولهم: «عجبت لمن يغسل وجهه مرات في اليوم، ولا يغسل قلبه مرةً واحدة في السنة».

والشائع عند اليمنيين عدم اهتمامهم بمظاهرهم الخارجية قدر اهتمامهم بجوهر نفوسهم، إذ قد يكتفي بعضهم بالثوب الذي يستر به عورته، أو يقيه من البرد والحر، ولا يهمه إن كان شكل الثوب جميلا، أو منظره حسناً، أو ألوانه زاهية ما دامت غايته ستر الحال، وستر العورة. وفي ذلك يقول المثل الشعبي اليمني: «ثوبي ساتر عورتي، وبيتي ساتر أسرتي»، أي: إن ستر الحال، وهدوء البال، إلى جانب ستر العورة بأي ثوب أحب إليه من الثياب الفاخرة المعارة، وفي ذلك يقول المثل الشعبي اليمني ما معناه: إن الثوب المعار لا يعتمد عليه في ستر العورة، لأن صاحبه قد يسترجعه في أية لحظة؛ ولذلك فإن الثياب الفاخرة المستعارة مهما كانت جميلة، أو غالية الثمن، فإنها ربما تخفي تحتها همّاً أو غمّاً، سواء في مناسبة العيد أو غيره، فلا قيمة للثياب إذا كان الفؤاد مغموماً، والقلب مهموماً. ولذلك تراهم يرددون في أيام الأعياد عند لقاء بعضهم بعضا للتهنئة: «كسا العافية»، أو «ليس العيد لمن لبس الجديد، بل لمن في يومه سعيد». وفي الوقت نفسه تراهم يسخرون من الشخص الفقير المتظاهر بالغنى والمتباهي بثيابه، مرددين المثل الشعبي اليمني القائل: «الكسوة ريش، والمأكل حشيش».


غطاء الرأس متعدد الأشكال والألوان

ولا ينبغي أن يفهم مما قلناه أن اليمنيين عندما لا يعطون اهتماماً كبيراً للمظهر الخارجي أنهم مهملون لأنفسهم، أو أنهم لا يعنون بنظافتهم، أو لا يحسنون انتقاء ملابسهم، وإنما يجب أن يفهم أنهم يحبذون أن يلبس المرء ما يناسبه من الثياب بحسب ظروفه الاقتصادية والاجتماعية، وبما يليق بوضعه الاجتماعي، من غير مبالغة أو إسراف، حتى لا يؤدي ذلك إلى «التيه المؤدي إلى الهلاك»، انطلاقاً من المثل الشعبي اليمني القائل «على قدر فراشك وسّع» أي مد رجليك.

ولتوضيح ذلك لا بد من تسليط بعض الأضواء بشيء من الإيجاز على بعض خصائص الأزياء الشعبية اليمنية وسماتها، بنوعيها الرجالي والنسائي.

خصائص أزياء الرجال وسماتها

ـ غطاء الرأس: إن من ينظر إلى غطاء الرأس عند بعض رجال قبائل اليمن سيجد أنه لا يختلف كثيراً عن غطاء الرأس في عصر ما قبل الإسلام، والعصر النبوي، فغطاء الرأس عند رجال القبائل يتكون من خرقة كبيرة تلف حول الرأس تسمى (العمامة)، وهي قطعة ملفوفة من القماش الأبيض أو الأسود أو الملون، تلتف حول (الكوفية) وتتدلى من خلف الرأس (عَذَبة) تسدل على الكتف، وقد تسدل عذبتان من أعلى ومن أسفل. وهذا النوع من أغطية الرأس كان شائعاً في عصر الرسول محمد صلى الله عليه وسلم، فقد روى بعض كتاب السيرة النبوية أن النبي محمداً صلى الله عليه وسلم، كان يضع على رأسه عمامة بيضاء أو سوداء، تاركاً جزءاً من طرفها مسترسلاً على الظهر، وربما كان التجار اليمنيون هم الذين نقلوا هذا النوع من العمائم إلى عرب الجزيرة؛ لأن العمامة على هذه الهيئة كانت شائعة في الدويلات اليمنية التي ظهرت قبل الإسلام، كالسبئية والمعينية والحميرية. غير أن العمامة أخذت مع الزمن أشكالاً مختلفة، تختلف باختلاف المناطق والمكانة الاجتماعية للشخص.

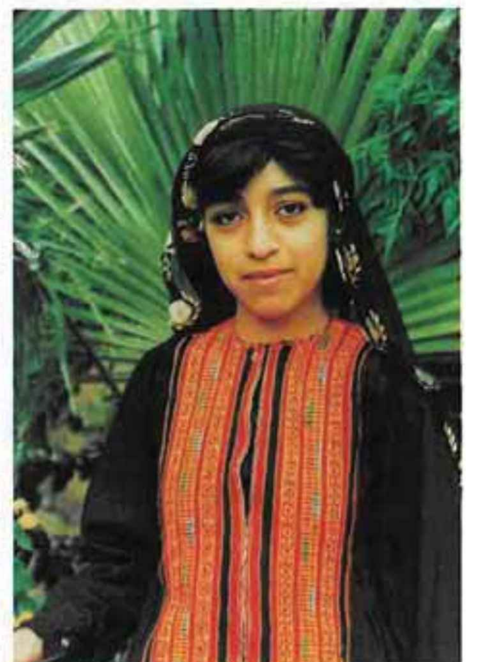
إن عمامة السيِّد تختلف عن عمامة عامة الشعب، فهي تتكون من قطعة قماش أبيض تلف حول (ألفيَّة) مصنوعة من الورق المقوّى، بطريقة تشبه (القدر) يغطيها القماش من جوانبها المتعددة باستثناء سطحها الذي يبقى مكشوفاً ليظهر ما على حواشيها من نقوش زخرفية بديعة.

أما عمامة العامة فهي تشبه إلى حد ما عمامة رجال القبائل باستثناء طريقة لفها على الرأس، فهي تختلف في طريقة اللف بين منطقة وأخرى.

وفي بعض المناطق يكتفى بتغطية الرأس بالكوفية المصنوعة يدوياً بمهارة فائقة، وهي تختلف من حيث المادة المصنوعة منها، فبعضها مصنوع من الخيوط البيضاء أو الملونة، وبعضها مصنوع من الصوف، وبعضها مصنوع من الخيزران.

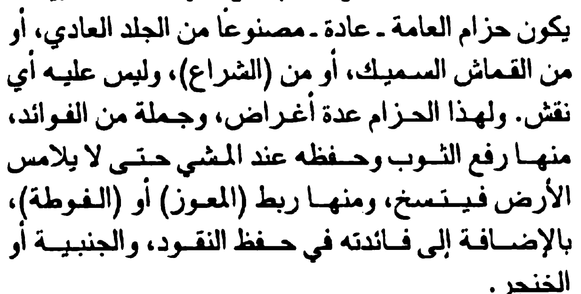
وفي بعض المناطق التي يستوطنها البدو الرحل يستغنى عن الكوفية ويستعاض عنها بلف الرأس برداء مربع الشكل يستر به الشعر يسمى (البرنس) أو يربط الرأس بسير من الجلد لحفظ ذوائب الشعر.

ـ لباس البدن: أما لباس البدن فإنه يختلف من منطقة إلى أخرى، فبعض الرجال يغطون أجسامهم بالثياب الطويلة البيضاء المعروفة بـ (الزَّنَّات) مفردها (زنَّة) وهي تغطي الجسم من الرقبة حتى القدمين، ولها كمَّان طويلان وعريضان يتم لفهما وربط طرفيهما بخيط خلف الرقبة، بحيث يصبح كل كم بمنزلة كيس مغلق عند الساعد، يستفاد منه لحفظ الأغراض الصغيرة عند السفر، أو عند العمل بالأرض،؛لأن هذه الأكمام تسهل الحركة، وفي الوقت نفسه لا تعيق عملية الوضوء للصلاة.



التطريز من مظاهر جمال الملابس اليمنية

ويربط الثوب ـ عادة ـ عند الخصر بحزام من الجلد أو نحوه، ويختلف هذا الحزام باختلاف ظروف صاحبه، فحزام القضاة والسادة والمشايخ يختلف عن حزام رجال القبائل والبدو الرحل وسكان المدن، فهو يتميز بنقوشه الزخرفية البديعة المعمولة من خيوط الفضة أو الذهب، أو منهما معاً، بينما يكون حزام العامة ـ عادة ـ مصنوعاً من الجلد العادي، أو من القماش السميك، أو من (الشراع)، وليس عليه أي نقش. ولهذا الحزام عدة أغراض، وجملة من الفوائد، منها رفع الثوب وحفظه عند المشي حتى لا يلامس الأرض فيتسخ، ومنها ربط (المعوز) أو (الفوطة)، بالإضافة إلى فائدته في حفظ النقود، والجنبية أو الخنجر.



ويلبسون تحت هذا الثوب ـ عادة ـ (الإزار)، أو ما

يعرف شعبيًا بـ (المعوز) وفي عدن (الفوطة)، وقد يلبسون تحتها السروال الداخلي المسمى (نكس)، وفائدته ستر العورة عند الجلوس.

ومن فوق القميص يلبسون (الصديرية) وتغطي جزءًا من الظهر والصدر، وليس لها أكمام، وتسمى (البلق).

ومن فوق (البلق) يلبسون (الكوت) وهو معطف سميك مصنوع من الجوخ أو الصوف، له بطانة قطنية من الداخل لامتصاص العرق، ويلبس ـ عادة ـ في أيام الشتاء حين يكون الجو باردًا. وهناك نوع آخر ليس له بطانة من الداخل يلبس في المناطق الحارة.

و (الكوت) لباس شعبي يلبسه معظم الناس في المناطق الجبلية ذات الطقس البارد، وأكثر الذين يلبسونه رجال القبائل.



لوحة من المقامة البغدادية تبين أنواعًا من الملابس اليمنية

أما رجال الدين أو خطباء المساجد وأئمتها وبعض القضاة فإنهم يلبسون فوق الثوب (الجُبَّة) وهي (كوت) طويل له شق من الأمام وله أكمام طويلة.

وهناك لباس آخر للجسم يتلاءم مع المناطق الحارة، ولا سيما المناطق الساحلية، فهم يلبسون ما يعرف بـ (المعوز) أو (الجوجرة) والمسمى في عدن بـ (الفوطة)، وهي إزار يتم لفه حول الجسم أسفل الخصر، ثم يتم ربطه بالحزام المعروف باسم (الكَمَر). وتغطى بقية الجسم بالقميص المعروف في عدن باسم (الشَّميز)، ويفضل الناس ـ عادة ـ الأنواع المصنوعة من القطن، لملاءمتها للطقس الحار.

وهناك نوع آخر من الإزار عند رجال البادية ولاسيما البدو الرحل، يتزر به البدوي، وهو مصبوغ بالنيلة، أو غيرها يغطي مابين السرة والركبة، ويربطه البدوي بحزام من الجلد، يضع فوقه ذخيرة (خرطوش) البندقية.

وفي بعض المناطق يوجد رداء شعبي يلتحف به الشخص أو يتخذه إزارًا بحسب الحاجة، ويسمى (الدَّسمال)، وربما يضعه على كتفه عند السفر كالرداء، وهناك رداء آخر يشبه (الدَّسمال) يسمى (الشَّيذر)، وكان لا يلبسه إلا الأمراء والسلاطين، لغلاء ثمنه، وجودة قماشه.

وفي السنوات الأخيرة صار (البنطلون أو البنطال) ينافس الثوب و(الفوطة)، وخاصة في المدن، كما أن كثيرًا من الناس قد تخلوا عن لبس (الكوفية)، وتركوا العمامة التي كادت تختفي من بعض المدن اليمنية.

خصائص أزياء النساء وسماتها

ـ **غطاء الرأس**: الغالب على نساء المدن في اليمن الاحتجاب عن الرجال منذ أن تصل الفتاة إلى سن البلوغ، أما في الريف فإن عوامل كثيرة تحول دون تمكنها من ذلك، فهي مضطرة إلى الخروج من البيت لعدة أغراض، إما لجلب الماء، وإما لجمع الحطب، وإما لفلاحة الأرض، وإما لرعي الماشية، وإما لأغراض أخرى. ولذلك فإنها تحرص على تغطية رأسها سواء في داخل البيت أو في خارجه، مع بقاء الوجه مكشوفًا.

وفي داخل البيت تضع على رأسها منديلا مثبتًا، ومزينًا ببعض الورود أو النقوش الزاهية، ويسمى (المصَر)، ويصنع من قماش القطن أو الحرير، ولا تزيله إلا في حالات استبداله أو غسله، أو تمشيط الشعر، إذ يبقى ملازمًا لها طوال الوقت حتى في أثناء النوم، وإذا ما خرجت من البيت لقضاء بعض الأغراض فإنها تلبس فوق هذا (المصر) منديلا كبيرًا آخر ذا لون أبيض ـ عادة ـ يسمى (فرَّادي) يصل طوله إلى ذراعين تقريبًا، وفي أطرافه حواش حمراء أو سوداء، تتدلى منه (عذبات) من القطن أو نحوه. وربما لا تكتفي بذلك فتضع فوق هذه المناديل قطعة أخرى من القماش المزخرف بالخيوط الذهبية تسمى (سماطة)، ثم تربط هذه المناديل جميعها بحزام من الحرير مزخرف بخيوط ذهبية يسمى (تزجة)، طوله نحو ذراعين ونصف الذراع، وفي بعض

الحالات قد يصل طوله إلى ثلاث أذرع، وعرضه عرض الكف، ويصنع في صنعاء، ثم تضع المرأة فوق هذا كله قطعة رقيقة من قماش الحرير الملوّن، والمستورد من الهند، تسمى (الطَرحة) يصل طولها إلى ذراعين ونصف الذراع، أو ثلاث أذرع، وعرضها ذراع وربع الذراع.

أما إذا كان خروج المرأة لغرض الزيارة في مناسبات الأعياد أو الأفراح فإنها تضيف فوق ذلك كله قطعة أخرى من القماش الملون والمزخرف، تكون عادة أطول من الأولى وأعرض، تثنيها ثم تطبقها فوق الرأس تسمى (القناع) ويسمى ما فوق الرأس كله (العُصبة)، ويكثر هذا النوع من غطاء الرأس في صنعاء وضواحيها.



رسم للجبة أو للفراجية



تمازج الألوان طابع مميز للأزياء الشعبية اليمنية

وتتدلى من عنق المرأة عقود من الكهرمان الخالص الثمين، ذوات الحبوب الكبيرة الحجم، يصل عددها إلى أربعة أو خمسة عقود، بحيث تغطي كل أجزاء عنقها. وربما تضع بين هذه العقود عقداً واحداً من الفضة أو الذهب يسمى (السُكة) يتكون - عادة - من عدد من الحبوب ذوات الأشكال الهندسية البديعة، تتخللها حبات اللؤلؤ أو المرجان.

وفي بعض المناسبات والأفراح تضع المرأة على رأسها تاجاً من الفضة أو الذهب تتدلى منه بعض القطع من المعدن الثمين ذاته، لتغطي مقدمة الرأس عند الجبهة.

أما في حضرموت فإن المرأة تضع على رأسها قطعة قماش تسمى (الخمار) فتلفه على رأسها ليغطي شعرها، وفوقه تضع قطعة أخرى تسمى (المقنع) وهو قماش شفاف يوضع على الرأس وضعاً. وفوق القطعتين تضع قطعة قماش أخرى خفيفة تصل إلى الصدر والكتفين، تسمى (الشيلة)، كما تضع قطعة أخرى تغطي بها وجهها تكون خفيفة لتستطيع أن ترى من خلالها، تسمى (النُقبة)، وهناك قطعة أخرى تضعها المرأة على رأسها تكون - عادة - مخيطة لها فتحة يظهر منها الوجه، وتسمى (البنص)، وإلى جانب هذا كله تضع (البرقع)، وهو غطاء شفاف يوضع على الوجه مشدوداً إلى الرأس، وله ثقب تظهر منه العينان عند المشي.

- لباس البدن: يتكون لباس المرأة في بعض المناطق اليمنية من ثوب داخلي مربع الشكل له فتحة في أعلاه لدخول الرأس، وهو مخيط يلامس البدن، ويصل إلى الركبة، يسمى (المعرقة). أما الثوب الرئيس فله خصائص وسمات مميزة، فله كمّان طويلان، وله فتحة يدخل منها الرأس، وله (ذيل) في الخلف يسحب فوق الأرض يفيض عن الثوب بمقدار نصف ذراع. كما يرتفع الثوب في مقدمته إلى ما فوق القدمين لتسهيل عملية المشي، ويسمى هذا (القدمة). وينتشر هذا النوع من الثياب في كل من محافظتي حضرموت والمهرة وغيرهما من المحافظات الشرقية.

كما تلبس النساء في هذه المناطق ما يعرف بـ (الشلحة) وهي ثوب يلامس الجسم يصل طوله إلى الركبتين، وثوباً آخر واسعاً فضفاضاً قصير الكمين، يصل إلى القدمين، يسمى (الدّرع)، أو تلبس (الكُرتة) وهي ثوب ضيق عند الخصر واسع عند الكعبين إن كان طويلاً، أو ضيق عند

الخصر وواسع عند الركبتين إن كان قصيراً.

ومن ملابس النساء الداخلية في هذه المناطق ما يعرف بـ (الفوطة) وتلبسها المرأة تحت (الدِّرْع) تغطي فيها ما بين السُّرَّة والقدمين، وينحصر هذا اللباس داخل البيت فقط، أما عندما تريد المرأة الخروج من البيت لقضاء بعض الأغراض، فإنها تلبس ثوباً أسود له (قدمة) و (ذيل) يمتد من الرقبة حتى القدمين، وتتخذه لوقاية الثوب الرئيس من التراب أو لحمايته من التمزق والاتساخ، كما تتخذه المرأة، بديلا عن الحجاب عندما تمشي في الطريق، بل هو الحجاب ذاته؛ لأنه يستر معظم جسمها، ويغطي جميع ملابسها، ويخفي زينتها وجمالها.

أما في المناطق الريفية فإن نساءها يلبسن في الغالب بعض الثياب القطنية السوداء المزخرفة بالخيوط الملونة أو المطرزة بالتل، حيث تتولى النساء أنفسهن القيام بعملية تطريزه بأشكال هندسية جذابة. أما ثوب الزفاف فإن قماشه يكون من نوع (البوبليل) الأسود، ويطرز بكامله تقريبا بالخيوط البيضاء والملونة فلا يبقى من اللون الأسود إلا بضعة خطوط عمودية، ويمتاز هذا الثوب بأكمامه الطويلة الفضفاضة التي يتم عطفها وربطها إلى الخلف بخيط أو أزرار خلف الرقبة، وفي بعض الحالات يستعاض عنه بـ (الكرتة)، وهو ثوب مصنوع من القماش الملون بالألوان الزاهية، والنقوش البديعة.


فرقة للتراث الشعبي اليمني بالملابس التقليدية

وتحت هذا الثوب تلبس المرأة سروالا طويلا، يكون - عادة - واسعاً عند الخصر، وضيقاً عند القدمين، ثم يربط بحزام من الجلد أو غيره يسمى (المحجش)، وتشده المرأة على خصرها حتى لا يسقط عند المشي والحركة، وفيما بعد حلّ المطاط (اللاستيك) محل الحزام في شد السروال وربطه. وهذا السروال يسمى (الخليقة)، وتلبسه عامة النساء في سائر الأيام، وهو يختلف عن سروال العروس المسمى (الحُزَّة) إذ يمتاز سروال العروس بكثافة تطريزه بالخيوط الملونة، بتغطية الجزء الأسفل منه حتى الركبتين بالخطوط الأفقية المتداخلة، بحيث يختفي القماش، ولا يرى منه إلا الجزء غير المطرز الذي يعلو الركبتين.

أما لباس النساء في المدينة فإنه يخضع عادة لطبيعة المناخ من حيث حرارة الجو وبرودته، ومدى تأثرها بملابس المستوطنين فيها من الوافدين إليها من المناطق الأخرى، فمدينة عدن - مثلا - يغلب على ملابس نسائها التأثر بالملابس الهندية والإندونيسية والإثيوبية والأوربية، بالإضافة إلى الملابس اليمنية التقليدية، لذلك فإن الثوب الشائع عند نساء عدن هو (الدِّرع) وهو ثوب طويل فضفاض مصنوع من قماش (الويل) الشفاف، وتلبس المرأة تحته (الفوطة) المصنوعة من القماش غير الشفاف، تشدها إلى الخصر (باللاستيك)، وتغطي ثديها بما يعرف في عدن بـ (الكنشلي)، أما رأسها فيبقى مكشوفاً في الغالب، إذا كانت في بيتها، وفي وسط محارمها، أما إذا ظهر عليها شخص غير محرم أو أرادت الخروج من البيت فإنها تغطي رأسها بمنديل، وتغطي جسمها بـ(الشيذر) أو (البالطو) أو العباءة السوداء.

فالأزياء الشعبية تعد - من دون شك - لوناً من ألوان الفن الشعبي الأصيل، وتراثاً له خصائصه ومزاياه، به تتميز الأمم، وتتضح مقومات هذا الشعب أو ذاك، سواء من حيث الثقافة وأنماط الحياة الاجتماعية والاقتصادية، أو من حيث عادات المجتمع وتقاليده، فإذا تمت دراستها ميدانياً على أسس علمية ومنهجية، فإن نتائج تلك الدراسات سوف تفيد الباحثين في هذا المجال أيما إفادة؛ لذلك فإننا ندعو المؤسسات البحثية في اليمن وغيرها إلى إعطاء هذا الجانب أهمية خاصة؛ لأن الحياة المعاصرة صارت متغيرة باستمرار، وبصورة سريعة، بحيث لن يكون هناك في المستقبل أية امكانية لدراسة هذا المجال، نتيجة للمتغيرات السريعة التي ستتسبب تغيير ملامح المجتمع، وتلاشي خصوصياته، ومن ثم تحتم تغيير أنماط ملابسه.

تاريخ

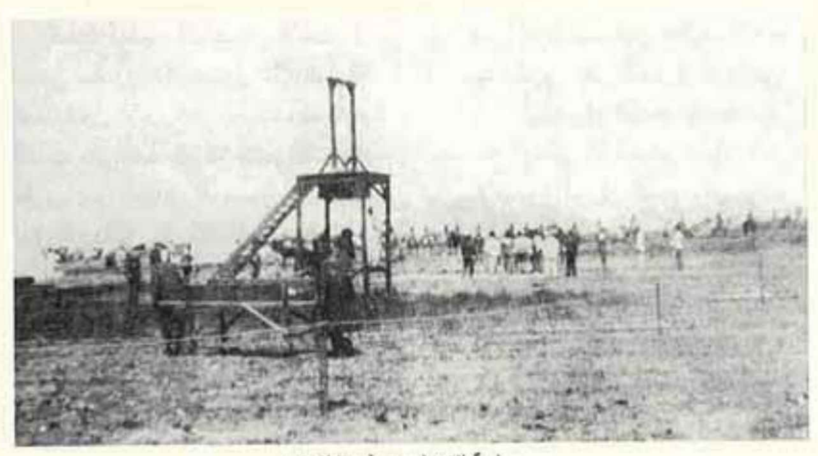
دُنْشُوَاي جوهرة الشهداء

عبدالمقصود السعيد عبدالمقصود
المنصورة - مصر

«دنشواي» إحدى قرى مركز الشهداء بمحافظة المنوفية المسماة «روضة البحرين»؛ لوقوعها في وسط الدلتا بين فرعي النيل: دمياط ورشيد، مما كان له أثر كبير في خصوبة أراضيها، وجودة محاصيلها، وتبلغ مساحة المحافظة ٢٠٣٨٨كم٢، وتبعد عن القاهرة ٧٢كم، وهي من أكثر المحافظات ازدحامًا بالسكان لضيق الرقعة الزراعية بها، مما وجه أبناءها إلى طلب العلم والتعليم منذ القدم، ويمتهن أكثر أبناء دنشواي حرفة الزراعة التي تتعلق بها حياتهم؛ حيث تمتزج حبات العرق المتساقطة من جباههم بما ينتجونه من مزروعات ومحاصيل، فتغطي سنابل القمح حقولها - في الشتاء - بلونها الأخضر ثم الأصفر الذهبي الذي يخلب الألباب، وفي الصيف: تُطِلُّ «شجيرات القطن» من قلب حبات الطين؛ فيشحذ الأهالي هممهم لرعايتها، حتى تبدو نَوّارَتُهُ الصفراء وكأنها قناديل من ذهب تتدلى من الأفرع الخضراء التي سرعان ما تجف فتأخذ اللون البني؛ فيُطِلُّ «الذهب الأبيض» من قلبها حاملاً الخير والنعيم لأهلها لصبرهم وعطائهم.

إن دُنْشُوَاي ومثيلاتها من قرى مصر تستحق أن نطلق عليها «بلاد الذهبين: الأصفر والأبيض».

ودنشواي جوهرة قرى مركز الشهداء البالغ عددها ٢٧ قرية، ولا أكون مغاليًا حينما أقول: إنها «جوهرة مصر» التي أشعلت نار الانتفاضة الوطنية، وأثارت اهتمام الصحافة والرأي العام محليًا وعالميًا، فالتفت العالم إلى ما يرتكبه الإنجليز من أعمال وحشية على أرض مصر، فضلاً عن أن ما وقع على أرضها أحدث تحولاً هائلاً في البنية الثقافية



ساحة الإعدام يحيط بها الجنود

والفكرية لأجيال الأمة، ويكفي أن نشير إلى أن تأسيس الجامعة المصرية التي أثمرت على مدار القرن العشرين أجيالاً ممن قادوا بناء العقول، ومواقع الفكر والعمل من أبناء مصر والأمة العربية هو أحد المعطيات المهمة لحادثة «دنشواي».

ماذا حدث في «دنشواي»؟

في يوم الاثنين الموافق ١١ يونيو/حزيران عام ١٩٠٦م خرجت كتيبة عسكرية بريطانية عددها ١٥٠ ضابطًا وجنديًا من القاهرة إلى الإسكندرية برًا، وفي يوم الأربعاء ١٣ يونيو وصلت الكتيبة إلى «منوف»، وتوجهت مجموعة منهم عددها خمسة من الضباط لصيد الحمام في دنشواي، وهم: الميجور (العقيد) باين كوفن قائد القوة، والكابتن (النقيب) سيمور كلارك بول، والملازمان بورتو «سميث ويك»، والكابتن «بوستك» الطبيب البيطري، واصطحبوا معهم العريف زقزوق، والمترجم عبدالعال صقر(١).

وكانت تعليمات جيش الاحتلال تقضي بضرورة الحصول على موافقة العمدة قبل الشروع في الصيد، مع عدم الصيد على بعد يقل عن مئتي متر من القرى، مع الأخذ في الحسبان أن الحمام الذي يقع داخل هذا النطاق حمام داجن مملوك للأهالي ولا يجوز صيده، وذلك أن أهلها ليسوا في سعة من الرزق، وكانوا يعتمدون على الحمام وما يحصلون عليه من مقابل موردًا للرزق، وهو «رأسمالهم» يبنون له أبراجًا عالية، ويسمى البرج منها «الطيارة»، ويضم ما بين ٧٠٠ إلى ١٠٠٠ قادوس من الفخار مبنية في جوانبه، فتحتها إلى الداخل؛ ليتخذها الحمام بيوتًا وأكبر الأسر التي كانت تملك أكبر عدد من «الطيارات» هي أسر: محفوظ، والسيد علي، والسيسي(٢).

وعند وصول الضباط إلى دنشواي طلبوا من العريف زقزوق، إخطار العمدة بوصولهم واستئذانه في الصيد، وبعد حين قابل الشيخ حسن محفوظ الضباط، وطلب منهم الصيد بعيدًا من القرية، فأخبروه أنهم سيستأذنون العمدة، ولم ينتظروا وصول العمدة، ولم يستجيبوا لطلب الشيخ حسن محفوظ، ووزعوا أنفسهم على نقط ملائمة للصيد: فريق على الطريق الزراعي، وآخر داخل أجران القمح، ولم يعبؤوا بصياح الأهالي للكف عن إطلاق النار حتى لا تحترق أجران القمح، وأصابوا أم محمد (زوجة مؤذن القرية) بطلق ناري فسقطت على الأرض تتخبط في دمائها، كما اشتعلت النيران في أجران القمح.

أبراج الحمام المسماة «الطيّارات» بدنشواي

وعلى إثر ذلك: بدأت معركة بين المواطنين وجنود الاحتلال الذين انتهكوا حُرْمَةَ الديار، واعتدوا على كرامتها، وأصيب الميجور باين كوفن بكسر في ذراعه، كما أصيب الملازمان سميث، وبورتو بجروح، وفر الكابتن بول، والطبيب البيطري، وأخذا يعدوان تحت وهج الشمس حتى وصلا إلى بلدة «سرسنا»، حيث سقط بول من فرط الإعياء، أما الطبيب فاستمر يعدو حتى وصل إلى معسكر الكتيبة في بلدة «كمشيش»، وأبلغ زملاءه نبأ الصراع الذي حدث. وكان قد أصيب ثلاثة رجال من المصريين هم: شيخ الخفراء عامر عدس، والخفير محمد داود، وعلي الدبشة، وتوجهت بقية جنود الكتيبة إلى دنشواي، ووجدوا في الطريق شهيد «سرسنا» سيد أحمد سعيد يسقي الضابط بول ماء وهو في النزع الأخير من حياته، فانهالوا عليه طعنًا وضربًا حتى هشّموا رأسه، وأثاروا الرعب بين أهالي البلاد.

بلاغ الحكومة

في السابع عشر من يونيو/حزيران صدر بلاغ الحكومة في قضية دنشواي الذي اتهم الفلاحين بالتحرش أولاً برجال جيش الاحتلال، مع رفض فكرة أن يكون سبب الحريق الذي اشتعل في أجران القمح طلقة رصاص من بنادق الضباط، وفي تجاهل غريب رأى أن أبناء دنشواي هم الذين أحدثوا الحريق لإيجاد المسوغ لاعتداءاتهم على الضباط، وعلى حد تعبير التقرير: «أن الأقرب إلى العقل أنهم أشعلوها عمدًا إشارة إلى بدء الهجوم العمومي»، ونفى التقرير أن يكون الضابط القتيل قد توفي بالسكتة القلبية؛ وإنما لأنه «أصيب بضربتين قويتين على الرأس»(٣).

بلغ عدد المقبوض عليهم ٩١ شخصًا اقتيدوا إلى مشفى طنطا، حيث كان يرقد

الميجور كوفن مصاباً لاستعراضهم(٤).

وتطوع بعض كبار المحامين للدفاع عن المتهمين وهم: إسماعيل بك عاصم الذي أرسل أحد المحامين العاملين بمكتبه وهو الأستاذ أحمد أفندي محمود لمتابعة التحقيق، وانضم إليه أحمد بك لطفي السيد، ومحمد بك يوسف، وأحمد بك توفيق، وعيِّنت كل جريدة من الجرائد المصرية مندوبين لها لحضور الجلسات(٥).

صدور قرار الاتهام

شمل قرار الاتهام الصادر ٥٩ شخصاً تم تقديم ٥١ منهم إلى المحاكمة بينما فرَّ ثمانية، وبلغ عدد الشهود ٢٨ شاهداً، على رأسهم الضباط الأربعة المصابون، ولكي يبدو قرار الاتهام دقيقاً استعرض القرار سوابق المتهمين، وكانت سوابق مضحكة؛ مثل: الحبس يومين لضرب شخص قبل ثماني سنوات، وغرامة ١٠٠ قرش لضرب شخص قبل عامين...إلخ، وذلك بهدف محاكمتهم كمجرمين من أصحاب السوابق(٦).

تشكيل المحكمة

قبل انقضاء سبعة أيام على وقوع الحادثة أصدر «بطرس غالي باشا» وزير الحقانية (العدل) بالنيابة في العشرين من يونيو/حزيران عام ١٩٠٦م أمراً بتشكيل المحكمة برئاسته وعضوية: مستر بوند (وكيل محكمة الاستئناف الأهلية)، ومستر وليم جود (نائب المستشار القضائي بالنيابة)، والكولونيل لادو (القائم بأعمال المحاماة والقضاء في جيش الاحتلال)، والسيد أحمد فتحي زغلول باشا (رئيس محكمة مصر الابتدائية)، والسيد عثمان بك مرتضى (سكرتير محكمة مصر الابتدائية)، على أن تنعقد المحكمة يوم الأحد الموافق ٢٤ يونيو/حزيران ١٩٠٦م بمدينة «شبين الكوم».

وتم الاتفاق مع أحد الفراشين(٧) على إقامة السرادق الذي ستجرى فيه المحاكمة بساحة المديرية بشبين الكوم، استعداداً لوصول أعضاء المحكمة الذين غادروا القاهرة مساء السبت ٢٤ يونيو/حزيران، وقد استأجرت الحكومة إحدى بواخر شركة «كوك» ليقيموا فيها، وأرسلت محافظة القاهرة ٢٢ خفيراً إلى دنشواي مما أثار استياء جريدة الأهرام، فعلقت بقولها: «إننا ننتقد الحكومة على لجوئها إلى القوة ضد دنشواي، مع أنها بلدة صغيرة ضعيفة يكفي لحفظ الأمن بها ثلاثة عساكر،



«العروسة» لجلد المتهمين، وإلى جوارها على العربة نقالة لحملهم بعد الجلد

وأهلها الآن في وجل وخوف من سلطة القانون»(٨)، وفي الوقت نفسه أرسلت قوة الأورطة (الجنود) التي كانت بمعسكر «كمشيش»، التي كان الكابتن «بول» أحد قوادها. ولا أدل على دقة التحضير والاستعداد وحرص المسؤولين على أن يوفروا لرجالهم كل أسباب الراحة، من أن مفتش الداخلية وأحد ضباط الأورطة زارا معمل الكازوزة (الكوكا كولا) الذي يديره الخواجة ساوا أرفا نيتيليس، وكلفاه بأن يقدم لرجال الأورطة أنواع (الكازوزة)؛ وذلك بعد فحصها، وكلفاه أيضاً بإنشاء دكان بجوار المعسكر ليبتاع الجنود منه حاجاتهم(٩).

وتوافد على شبين الكوم قبل انعقاد المحكمة عدد كبير من الجماهير من شتى أنحاء مصر؛ فارتفعت أجور اللوكاندات (الفنادق) حتى بلغت أجرة السرير الواحد جنيهاً!، وفضل الكثير منهم الذهاب إلى «طنطا» في القطار الأخير، والعودة إلى شبين الكوم في أول قطار يسافر صباحاً، كما ارتفعت أسعار المأكولات!(١٠).

ومن طريف ما يذكر: «أن أجرة الحمار بلغت عشرين قرشاً ذهاباً وإياباً من «البتانون» إلى «دنشواي»؛ وهي أجرة قال عنها مراسل الأهرام: «إنه لم يسمع بها طوال إقامته بالمنوفية؛ لأن أجر الحمار طوال اليوم لا يزيد على خمسة قروش»(١١).

ومع بزوغ فجر الأحد ٢٤ يونيو ازداد الزحام حول مبنى المديرية التي خصص بابها البحري لدخول الأعيان والأهالي ورجال الصحف ومحرريها الذين يحملون تصاريح خاصة، أما السرادق الذي أعد فإنه يسع نيفاً وألفي شخص، وضع في نهايته من الجهة القبلية منصة القضاء، وفي نهاية الجهة الشرقية حجرة صغيرة لاستراحة أعضاء المحكمة، وأمام منصة القضاء طاولة المحامين الذين سيدافعون عن المتهمين، وطاولتان أخريان: إحداهما على الشمال، والأخرى على اليمين للصحفيين العرب والأجانب، ثم حاجزان لوضع المتهمين، ووراء كل ذلك جمهور الحاضرين(١٢).

نص الأحكام

لم تترك المحكمة سوى ثلاثين دقيقة لواحد وخمسين متهماً ليقولوا ما عندهم، ورفضت سماع أقوال رجال الشرطة، وظهر تحاملها الكبير على المتهمين، وحكمت المحكمة حضورياً «حكماً لا يقبل الطعن» بتاريخ ٢٧يونيو/حزيران

عام ١٩٠٦م على أربعة متهمين بالإعدام، وعلى تسعة متهمين بالأشغال الشاقة مددا متفاوتة، وعلى ثلاثة متهمين بالحبس مدة سنة والجلد، وعلى خمسة متهمين بالجلد، وتبرئة المتهمين الباقين.

احتشاد الجماهير

في الساعة الرابعة من فجر الخميس ٢٨ يونيو/حزيران عام ١٩٠٦م ازدحمت شبين الكوم بالجماهير الواقفة أمام سجن المدينة في انتظار خروج المتهمين إلى دنشواي لتنفذ عليهم الأحكام، وفي الساعة الرابعة وخمس وثلاثين دقيقة أطلت وجوههم «فركبوا عربتي نقل وأيديهم مكبلة بالحديد، وحولهم العساكر، وسار الموكب إلى نقطة الشهداء حيث حجزوا إلى قرب الموعد المحدد للتنفيذ، وكان المحكوم عليهم بالشنق في عربة مستقلة، ومن ورائهم تسير العربة التي تحمل المشنقة»(١٣).

أعد في جنوب دنشواي ساحة مربعة الشكل لتنفيذ الأحكام في المتهمين، وفيها ثلاث خيام: إحداها لوضع جثث الذين يعدمون، والثانية لوضع جميع المتهمين بها قبل تنفيذ الأحكام، والأخيرة لوضع المتهمين الذين تم تنفيذ أحكام الجلد فيهم، وقد أقيمت المشنقة في وقت طويل بمعرفة النجار المخصص لها، يساعده عدد كبير من الخفراء في عمله (المشؤوم)، ويلاحظه عشماوي (من يقوم بتنفيذ عملية الإعدام)، وقد علقت في أطراف المشنقة آلات الجلد (السياط)(١٤)، كما أقيمت العروسة؛ وهي قائمتان من الخشب متصلتان من أعلاهما، بهما فتحة تسمح بدخول رأس المُعذَّب، وعلى القائمتين الخشبيتين تُشدُّ رجلاه، ويتصل بهما «عضادتان» فيتكون حينئذ من مجموع القائمتين شكل صليب، ويُمدُّ الذراعان على هاتين العضادتين، ثم تشد إليهما يدا المجلود. وآلة الجلد: هي سوط من الخشب له خمس شعب من الحبال الرفيعة المجدولة ينتهي كل حبل منها بعقدة، وأعد بجانب «العروسة» مضخة لغسل المشنوقين بعد موتهم(١٥).

وفي استعراض للقوة اصطف حول الساحة جيش من المشاة الراكبين وهم شاهرون الأسلحة، ومن ورائهم نطاق من الفرسان المصريين «وكان الجنود شاهرين سيوفهم وهم متقلدون بنادقهم



مسجد سيدي شبل بالشهداء

المحشوة في منظر رهيب مهيب»(١٦).

في الساعة الواحدة ظهرا ارتفع الغبار من الجهة الشرقية وظهر رجال جيش الاحتلال مقبلين «وبعد خمس عشرة دقيقة وصل المتهمون إلى الساحة، فلا تسل عن الصراخ والبكاء، ولما مرّ المتهمون بالساحة كانوا كلهم غاضين من أنظارهم إلا محمود درويش زهران فإنه نظر إلى المشنقة طويلاً من طرف عينيه».

وفي الواحدة والنصف أودع المتهمون الخيمة، ودخل عليهم الطبيب الشرعي وطبيب مركز شبين الكوم وحكيمباشي المنوفية لفحصهم وسؤالهم عما يتمنون، وبعدها بخمس دقائق بدأ تنفيذ أكبر مجزرة يرتكبها المحتلون في حق الإنسانية.

تنفيذ الأحكام

نودي على أول الشهداء حسن علي محفوظ فخرج من الخيمة مرتديا ثوبا أسود وعلى رأسه «لبدة بيضاء»(١٧) وهو في الخامسة والستين من عمره، وتلا المدير حكم الإعدام عليه بصوت مسموع، وهو مطرق إلى الأرض، وأشير إلى «عشماوي» لاستلامه، وشد وثاقه وهو يصيح بصوت عال «لا إله إلا الله محمد رسول الله» حتى صعد إلى المشنقة، وتم تنفيذ الحكم، وترك جسده متدليا من حبل المشنقة ربع ساعة، ومن بعده حسن إسماعيل السيسي لتنفيذ الحكم عليه بخمسين جلدة؛ فأخذه رجال المطافئ، وربطوه على «العروسة» بعد خلع قميصه، وبدأ الجلاد يضربه بالسوط فتململ من شدة الجلد حتى الجلدة الثلاثين وسكت بعدها حتى آخر الجلد فحلّ وثاقه وأودع خيمة المجلودين، وتبعه علي إبراهيم حسنين السيسي، ولما بدأ جلده صار يصرخ ويقول: «سقت عليك النبي يا هوه» حتى الجلدة الخامسة والعشرين وسكت، وأخذ يرتعش إلى أن تم الجلد، ولما حلّ وثاقه وقع مغشيا عليه.

وفي تلك الأثناء كان يتم الاستعداد لشنق الشهيد الثاني يوسف حسين سليم، وهو شاب في مقتبل العمر نحيف الجسم اتُّهم بضرب الكابتن بول، وكان كل ما قاله قبيل إعدامه: «اللهم انتقم لي من الظالمين». ثم تلا ذلك تنفيذ الأحكام بين إعدام وجلد.

ولم يسمح للأهالي بتشييع جثمان الشهداء إلى المقابر، إذ قام رجال الشرطة بدفنهم.

وفي الساعة الثالثة كان الجلادون

يجمعون أدواتهم استعدادًا للرحيل عن القرية الحزينة، تلاحقهم صرخات «دنشواي ولعنات أهلها وجماهير الحاضرين لتلك الواقعة العظيمة»(١٨).

صدى المأساة

شنت الصحافة المصرية، وفي مقدمتها جريدة «اللواء» التي كان يديرها الزعيم الوطني مصطفى كامل - الذي تلقى أنباءها وهو في أوربا - حربًا شعواء على الاحتلال وهو بعقر دارهم، فكتب مقالته الشهيرة في جريدة «الفيجارو» الفرنسية، وأعادت «اللواء» نشرها في عددها الصادر في ١١ يوليو/تموز عام ١٩٠٦م. وأثار في مقالته شجون المتصدين للمعرفة أو من تهمهم حقوق الإنسان، وفي عرض قانوني سجل كثيرًا من المخالفات التي وقع فيها الضباط الإنجليز، وناشد أوربا أن تهتم بمصر، فإن مصالحها فيها جسيمة، وكثيرين من رعاياها جمعوا ثروات كبيرة فيها»(١٩)، ولم يكتف بذلك، بل توجه إلى لندن ليتصل بحملة الأقلام ليشرح لهم موقف مصر، وترجم مقالته إلى الإنجليزية، ووزعها على جميع الوزراء، وأعضاء البرلمان، ورجال الصحافة، فألقى وزير الخارجية بيانًا مطولا أمام مجلس العموم، وأتبعته الخارجية البريطانية بإصدار كتاب أبيض عن الحادثة بالكامل.

وتبارى الشعراء في التنديد بالكارثة التي حلت بالوطن فبعثوا بقصائدهم لهيبًا يتضرم، فتشق طريقها إلى قلوب شعبهم، ونفوس أمتهم.

ولا يتسع المقام لذكر ما ورد بصحف: اللواء، والأهرام، وخيال الظل، ومجلة المجلات وعدد من الصحف الأخرى التي تناولت الحادث الأليم، وهو ما يعد ثروة فنية وأدبية وثقافية سنظل ننهل منها على مدار التاريخ جيلا وراء جيل.



المتهمون في طريقهم إلى المحاكمة

ولعلي أكتفي بإيراد بعض ما جاء في ميمية شوقي عن هذا الحادث الأليم، إذ يقول أمير الشعراء:

يا دنشواي على رُباك سلامُ
ذهبت بأنس ربوعك الأيامُ
شهداء حكمك في البلاد تفرقوا
هيهات للشمل الشتيت نظامُ
مرّت عليهم في اللحود أهِلّةٌ
ومضى عليهم في القيود العام
كيف الأرامل فيك بعد رجالها؟
وبأيّ حال أصبح.. الأيتامُ؟
عشرون بيتًا أقفرت، وانتابها
بعد البشاشة وحشةٌ وظلام

وهذه القصيدة واحدة من أهم قصائد «الرثاء» في الشعر العربي، إذ تعد تعبيرًا واضحًا عن نفسية الشعب الحزين، وعلى الرغم من كونها قصيدة: ذكرى رثاء، ودمعة بكاء على الأبرياء، إلا أن فيها بعثًا جديدًا للحركة الوطنية من مرقدها:

نوحي حمائمَ دنشواي وروّعي
شعبًا بوادي النيل ليس ينام
إن نامت الأحياء حالت بينه
سحرًا وبين فراشه الأحلام
متوجّع يتمثل اليوم الذي
ضجّت لشدة هوله الأقدام

نتائج حادثة دنشواي

وعن أثر الحادث في دنشواي نفسها يقول الدكتور محمد جمال الدين علي المسدي(٢٠): «أوقف الشيخ محمد الشاذلي عمدة دنشواي، وفُصل الخفراء، وانتقل منصب العمدة إلى أسرة أخرى، عاد بعدها بفترة إلى ابن العمدة السابق، ولا يزال المنصب يتولاه أفراد تلك الأسرة».

وسياسيًا: أدت الحادثة إلى اشتداد ساعد الانتفاضة الوطنية، والاهتمام العالمي بمصر، وإعلان إنجلترا عن تغيير سياستها في مصر، واتخذت إجراءات جديدة منها عزل اللورد كرومر، وتأسيس الجامعة المصرية، وأخيرًا؛ الإفراج عن مسجوني دنشواي، بعد عام ونصف العام من الحادثة، ولكن الإنجليز أفسدوا الاستقبال الوطني للسجناء بنقلهم بالنيل مباشرة من القناطر الخيرية إلى دنشواي، وهو ما ظلت تسميه جريدة الأهرام: «بالعفو الحلو المر»(٢١).

أهم المؤلفات

صدر عن دنشواي ومأساتها الأليمة عدد من الأعمال الأدبية والفنية والمسرحية التي تناولتها من الجوانب:

الإنسانية والوطنية والسياسية والاجتماعية كافة..إلخ، لكونها علامة بارزة في تاريخ النضال المصري، لعل من أبرزها:

ـ مارواه الفنان العالمي برنارد شو بنفسه بصورة مؤثرة في مقدمة كتابه عن إيرلندا.

ـ ما وضعته سيدة مصرية في أعقاب الحادثة: تحت عنوان «أكاذيب السياسة» وحددت ثمن الكتاب بقرش صاغ واحد يُباع بجريدة الأهرام، وتخصص حصيلته لمنكوبي دنشواي.

ـ رسالة الدكتوراه التي قدمها الأستاذ الدكتور محمد جمال الدين علي المسدي عام ١٩٦٧م إلى جامعة لندن، وأصدرتها الهيئة المصرية العامة للكتاب، وبها فصل باللغة الإنجليزية، وعدد كبير من الصور الفوتوغرافية التاريخية التي سجلت الحادث. و«دنشواي والصحافة» للأستاذ محمد نصر ـ «دنشواي» من إصدارات وزارة الثقافة المصرية ـ «الواقعة العظيمة» د. يونان لبيب رزق، الأهرام، ١٥ مايو/ آيار ١٩٩٧م ـ «العفو الحلو المر»، د. يونان لبيب رزق، الأهرام، ١٥سبتمبر/ أيلول ١٩٩٧م ـ وأحدث ما صدر متناولا تلك الحادثة كتاب «حادثة دنشواي وصداها في الأدب العربي الحديث والصحافة العربية» للأستاذ الدكتور محمد حامد شريف أستاذ ورئيس قسم الأدب والنقد بجامعة الأزهر ودمياط.

فضلا عمّا ورد بدواوين الشعراء الذين عاصروا الحادثة، وكبار الكتاب والأدباء ممن تناولوا بالتأريخ الحركة الوطنية المصرية في تلك الحقبة، أو عند تناول سيرة الزعيم مصطفى كامل وزملائه رواد الحركة الوطنية.

متحف دنشواي

افتتح في يونيو/حزيران عام ١٩٩٩م متحف دنشواي بعد إعادة بنائه على أحدث مستوى فني يليق بتلك الذكرى الوطنية التاريخية، وأقيم في الموقع نفسه الذي شهد أحداث عام ١٩٠٦م، وعلى الأرض نفسها التي نُصبت بها المشنقة لإعدام الشهداء، ويضم المتحف: مقتنيات نادرة ولوحات تاريخية تسجل للأجيال هذا الحدث التاريخي المهم. والمتحف مُزود بوسائل الأمان والكاميرات التلفازية، وهو مقسم إلى ثلاث قاعات كبرى تضم لوحات ومجسمات فريدة تحكي تفاصيل الحدث، كما يضم المتحف مسرحا شتويًا مغلقًا، وصالة للعرض السينمائي، وعددا من المباني الإدارية، إلى جانب مسرح مفتوح بحديقته الخلفية، ويوجد أمام المسرح نموذج بالحجم الكبير للمشنقة التي أقامها المحتلون لإعدام أبناء دنشواي.



متحف دنشواي

أهم المقتنيات النادرة في المتحف

صورة لأم محمد التي أصابها رصاص المعتدين وهي ملقاة على الأرض، وصورة لتجمهر الأهالي عقب الحادث، وصورة الحريق الذي شب بجرن القمح إثر إطلاق الرصاص، ولوحة زيتية كبيرة لمنصة المحكمة، ولوحة للسفينة التي أقلت هيئة المحكمة من القاهرة إلى شبين الكوم، وجدارية لأحد القادة الإنجليز وهو يتلو قرار الاتهام والأحكام.

وتضم قاعة الإعدام مناظر تثير الأسى، فهي تحتوي على أعمال تجسد الإعدام والجلد، ويتدلى من لوحة المشنقة أحد الذين أعدموا، ولوحة لأحد أبناء القرية مصلوبًا والجلاد يلهب ظهره بالسوط، ولوحة للزعيم مصطفى كامل وهو يندد بالحادث، ولوحة لمشاعر الأهالي وفرحتهم بالإفراج عن ٣١ متهماً.

وفي المتحف عدد من التماثيل النحتية لكبار فناني مصر، ومجموعة من رجال المركز القومي للفنون التشكيلية، وجمعت الأعمال التي جسدت مأساوية الحدث بمعرفة لجنة تاريخية من كبار أساتذة الجامعات المصرية.

ومما يجدر ذكره أن أبناء دنشواي حققوا مكانة مرموقة بحرصهم على طلب العلم، والنهل من ينابيعه ويضيق المجال عن ذكرهم.

المراجع والهوامش

١. دنشواي، د. محمد جمال الدين علي المسدي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٤م.
٢. المصدر السابق.
٣. الأهرام ديوان الحياة المعاصر، د. يونان لبيب رزق، جريدة الأهرام المصرية، الحلقة ١٨١، ١٥ مايو/آيار ١٩٩٧م.
(٤ ـ ٦) . المصدر السابق.
٧. أحد الفرّاشين: المقصود أحد المحلات الخاصة بإقامة السرادقات في المناسبات المختلفة ويطلقون عليها محلات الفراشة.
(٨ ـ ١٠) . د. محمد جمال الدين علي المسدي، مصدر سابق.
١١. حادثة دنشواي وصداها في الأدب العربي الحديث والصحافة العربية، د. محمد حامد شريف، ط١، ١٩٩٧م.
١٢. د. يونان رزق، مصدر سابق.
(١٣ ـ ٢٠) . د. محمد حامد شريف، مصدر سابق.
٢١. الأهرام ديوان الحياة المعاصرة، د. يونان لبيب رزق، جريدة الأهرام المصرية، الحلقة، ١٩٨، ١١ سبتمبر/أيلول ١٩٩٧م.

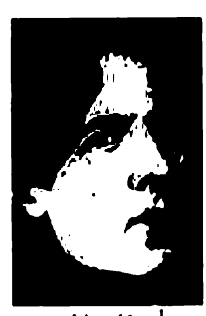
يد الشاعر: القيمة السحرية للمخطوطات

عبدالغني حسيني محفوظ
القاهرة - مصر

كتب الكثير عن المخطوطات الأدبية، ولكن كل ما كتب تقريباً يغلب عليه الطابع التصنيفي (الببليوجرافي) أو النصي أو التجاري. ويقوم معدو الفهارس (الببليوجرافيا) بوضع البيانات (الكتالوجات)، وتصنيف مواد أمكنة المحفوظات (الأرشيفات)، وهناك كتب تصنف كل مخطوطة معروفة لوردزورث، وكولريدج، وشيلي، وييتس. وعادة يقوم محققو النصوص باستشارة المخطوطات المتباينة لإعداد الطبعات المعتمدة، أو ما يطلق عليه DEFINITIVE EDITION. ويطبع بائعو الكتب، ومنظمو المزادات (كتالوجات) فاخرة تصور المخطوطات الأدبية التي يأملون بيعها. وكم المواد الوصفية الذي يتحدث عن المخطوطات هو كم هائل، ولكن قلما يجد المرء كتابة نقدية أو تنظيرية عن الموضوع، كما أن هناك القليل من التحليل الواعي، أو التأمل العميق لموقع المخطوطات في الثقافة الأدبية الأوسع، كذلك لا يوجه اهتمام جاد إلى وضع هذه المخطوطات إزاء النصوص المطبوعة. وإذا كان الدارسون في العادة يناقشون المخطوطات من ناحية نفعية بحت، فإن النقاد والمنظرين قد تجاهلوها تماماً كموضوع للبحث المستقل.

وفي غياب الاهتمام النقدي أو التنظيري الجاد فإن أهمية المخطوطات قد ترك أمر تحديدها للسوق المتمثل في عالم البائعين، وبيوت المزادات، وهواة الاقتناء. وعلى الرغم من أن القطاع الخاص كان أسبق في معرفة أهمية المخطوطات قبل أن يقوم النقاد وأمناء المكتبات بجهود منظمة لاستعادتها والاحتفاظ بها، فإن السوق لم يقم إلا بالقليل في سبيل الكشف عن القيمة الحقيقية لموادها. وربما لا يكون من الإنصاف تماماً أن نقول، كما قال أوسكار وايلد wilde: «إن السوق يعرف سعر كل شيء. ولا يعرف قيمة أي شيء». وما يقوم به السوق هو تحديد السعر، أما مسائل القيمة فإنها تنتمي إلى مكان آخر.

غير أن الافتقار إلى التفكير التأملي والتحليل النقدي لم يبطئ برواج عالم المخطوطات الأدبية، فالآلاف من أمناء المكتبات وأمناء المتاحف والتجار والدارسين وهواة الاقتناء يقومون الآن ببناء دواوين المحفوظات (أرشيفات) ضخمة من المواد الأولية. ولم تقترب أي ثقافة في التاريخ من مستوى النشاط في هذا الصدد كما هو الحال في أمريكا، فالمؤسسات الأمريكية تنفق أموالاً طائلة لتحصل على مواد المخطوطات وتحتفظ بها، والجماهير الغفيرة تتردد على المعارض العامة، بينما يتوافد الدارسون على قاعات القراءة ليدرسوا على مهل، ومجلات التصنيف والفهرسة (الببليوجرافيا) ونشرات (كتالوجات) المعارض تضخها المطابع، والصحف تراجع المعارض الكبرى، وتغطي المزادات المهمة. ودون أن يعرف السبب على نحو واضح، فقد أجمعت الثقافة على أنه، حتى في عصر تتقلص فيه الموارد، يكون لجمع المخطوطات الأدبية والحفاظ عليها أولوية، ومنذ مئتي عام لم يكن أحد في الغرب ليجشم نفسه عناء


أوسكار وايلد

الاحتفاظ بمحتويات أفضل المخطوطات المعاصرة له، فما سبب هذا الاهتمام الواسع النطاق بالمخطوطات الأدبية؟ وكيف حدث هذا التحول؟ وما الذي تكشفه الافتراضات الحالية للمخطوطات عن الثقافة الأدبية الحديثة؟.

أنواع المخطوطات

قال الشاعر فيليب لاركن LARKIN ذات مرة: «كل المخطوطات الأدبية لها نوعان من القيمة: ما يمكن أن نسميه القيمة السحرية والقيمة الهادفة». ولا أحد اليوم يشك في القيمة الدراسية أو «الهادفة». والمكتبات تعلن عن حصولها على أوراق كاتب شهير بالدعاية المدوية نفسها التي تصاحب اكتشافاً طبياً جديداً. والتعليل العام لجمع المخطوطات هو أنها توفر معلومات ليست موجودة في العادة في أي مكان آخر. ويمكن للمخطوطات أن تحل

مشكلات تتعلق بالحقائق مثل التأريخ لقصيدة، أو تحديد دقة نص. وليس من غير المعتاد لدارس يتوافر على دراسة مخطوطات عمل أدبي أن يجد أن بعض الأسطر غير الواضحة في النص المطبوع قد تحتوي على خطأ ما.

كذلك فإن المخطوطات أيضا تضيء المعاني الأوسع للعمل الأدبي، فرؤية ما حذفه الشاعر غالبا ما تساعد في توضيح ما شمله في النص، والمسودات توضح مقاصد المؤلف في مقطوعة معينة. واليوميات والخطابات والمذكرات والوثائق الأخرى تضيف إلى معرفة حياة الكاتب ووسطه الاجتماعي، فخطابات عزرا باوند POUND المضغوطة والغريبة الأطوار المرسلة من رابالو RAPALLO في إيطاليا تعد القارئ لقراءة الأناشيد CANTOS التي كتبها في التوقيت نفسه. و«القيمة الهادفة» للمخطوطات غالبا ما تتجاوز محتوياتها اللفظية البحت المجردة. وفي بعض الأحيان قد يكون لبعض المواد دور في تسليط الضوء على الكاتب، فكتب إميلي ديكنسون DICKINSON التي كانت تجلد تجليدا فاخرا ودقيقا، لا تكشف موقع الشاعرة بين ارستقراطية «نيوانجلاند» التي تمكنها من تحمل المواد والفراغ لإعداد مثل تلك الكراسات فحسب، بل أيضا تبين الوسط الخاص والشخصي الذي يمثل نطاق النشر والتوزيع بالنسبة إليها، فحتى أسرتها لم تكن تعرف مدى إنتاجها الأدبي، وبعد أن ماتت إميلي في عام ١٨٨٦م ذهلت أختها لافينيا LAVINIA من عدد القصائد التي كانت مخبأة في أدراج مكتب غرفة نومها.



إدجار ألان بو

وأهم من كل ذلك فالمخطوطات غالبا ما تحوي أعمالا جديدة، فقلة من الكتاب هم الذين ينشرون كل شيء يكتبونه، وعادة تكشف الأوراق التي يتركها مادة جديدة، بل إنه في بعض الحالات النادرة مثل حالة إميلي ديكنسون، وجيرارد مانلي هوبكنز HOPKINS، ظهرت كل أعمالهما بالفعل بعد موتهما من خلال الأوراق التي لم تنشر، حيث لم يظهر من قصائد ديكنسون المعروفة البالغة ١٧٧٥ قصيدة خلال حياتها إلا سبع قصائد فقط. علاوة على ذلك، ففي الطبعة الأولى من أعمالها أعاد محرروها كتابة أعمالها بأساليب أكثر تقليدية. أما إلى المحررون المتأخرون فقد رجعوا إلى المخطوطات لاستعادة قصائدها الحقيقية. وبالنسبة إلى هوبكنز فإنه لم ينشر أي شيء سنوات طويلة باستثناء ثلاث تريوليتات TRIOLET ساخرة*، وثلاث نسخ لاتينية من قصائد إنجليزية، ولم تظهر أعماله الناضجة إلا في عام ١٩١٨م أي بعد موته بثلاثين عاما. وقام روبرت بريدجز BRIDGES الوصي الأدبي على أعماله بانتقاء قصائد المجموعة الأولى من أربع مخطوطات.

مخطوطات القصائد وأنواعها

ويمكن تقسيم مخطوطات القصائد ثلاث مجموعات عامة: مسودة العمل WORKING DRAFT والخطوطة النهائية FINAL MANUSCRIPT والنسخة المبيضة FAIR COPY. وكل نوع من هذه المخطوطات يوفر نوعا من الإدراك والمعرفة عن العمل والمؤلف، فمسودات العمل لقصيدة تكشف تطور العملية الإبداعية لدى الشاعر؛ وإذا تم العثور على كل مسودات العمل فإنها تساعد في تتبع نمو القصيدة منذ الدافع الأولي لدى الشاعر حتى وصولها إلى الشكل النهائي. ولكن الكثير من الكتاب يتخلصون من مسوداتهم. كذلك فإن مسودات العمل تبين الاختلافات المهمة في العملية الإبداعية بين الشعراء، إذ يتضح مثلا أن لورد بيرون كان يكتب بسرعة وثقة وثبات، وكثيرا ما تتخذ قصائده الشكل الحقيقي لصياغتها الأخيرة منذ المسودة الأولى. ومسودات العمل في قصيدة دون جوان تبين أن مقطوعات بأكملها كانت تكتب ويتم صقلها ومراجعتها في شكلها النهائي على الورقة نفسها. أما إليزابث بيشوب BISHOP فقد تعكف على العمل سنوات في قصيدة واحدة، والمسودات الموجودة لإحدى قصائدها بعنوان THE MOOSE تبين أنها قد عملت في القصيدة ذات الـ ١٦٨ بيتا أكثر من عشرين عاما قبل نشرها في مجلة «نيويوركر» عام ١٩٢٧م، ثم أعادت تنقيحها مرة أخرى قبل وضعها في كتاب.

القصيدة بين عالمين

والخطوطة النهائية هي بمعنى ما من معاني المسودة الأخيرة لإحدى قصائد الشاعر، أو مجموعة من هذه القصائد، ومع أنها تمثل نهاية العملية الإبداعية الخاصة، فإنها أيضا تحدد بداية الحياة العامة للعمل الأدبي. والخطوطة النهائية تترك مكتب المؤلف لتدخل الملكة العامة للمحررين والناشرين والمحامين والنقاد. وبالنسبة إلى الكتّاب السابقين كانت المسودة الأخيرة عادة تكتب باليد. أما بالنسبة إلى الكتّاب الحديثين فإنها عادة تكون على الآلة الكاتبة. وحتى في عصر أجهزة الحاسوب (الكمبيوتر) يفضل أكثر الشعراء إرسال نسخة من عمله على الورق إلى جانب قرص (الكمبيوتر). والخطوطة النهائية تعد ذات قيمة فريدة لأنها نسخة النص الذي يقدمه المؤلف للنشر. وبالمعايير الفنية فهي العمل الذي تم إنجازه، وبالمعايير الدراسية فهي تكشف مقصد المؤلف. والأعمال الأدبية غالبا ما يتم الحذف منها، وتنقيحها وإعادة وضع علامات الترقيم بها، وإخضاعها أحيانا للرقابة قبل طبعها لأسباب لا علاقة لها برغبات المؤلف. فعلامات الترقيم في كتاب THE POETRY OF ROBERT FROST وهي الطبعة الكاملة المعمول بها لقصائد فروست تختلف في أكثر من ١١٠٠ موضع عن النصوص التي طبعها الشاعر بنفسه. وبإعادة وضع قصائد فروست في قوالب الترقيم التقليدي، فإن الكتاب يغير إيقاع الأبيات، بل قد يغير في بعض الأحيان معناها. وإذا كان أفضل نص لقصيدة ما هو النص الذي يمثل مقصد الشاعر، فإن الخطوطة النهائية توفر نقطة انطلاق لتحديد هذا المقصد.

فموازنة الخطوطة المكتملة بالنص المطبوع يمكن أن تقدم اكتشافات جديدة، فأوراق كمنجز E.E. CUMMINGS تبين كيف

أن لغة الشاعر كانت تخضع للرقابة والحذف من قبل الناشر لتخوفه من الألفاظ الإباحية. وقد كتب إلى ناشر كتابه «الغرفة الهائلة» ١٩٢٢م THE ENORMOUS ROOM يطلب منه ألا يغير أي كلمات، ثم عاد فطلب منه أن يتم حذف الكلمات بدلاً من استبدالها. ومع ذلك قام الناشر بمراجعة الكتاب، وعدل فيه، وغير علامات الترقيم، وترجم الجمل الفرنسية إلى اللغة الإنجليزية، وحذف ما يعده إباحياً؛ وذلك من دون موافقة المؤلف، ولم تطبع النسخة الحقيقية للمؤلف إلا في عام ١٩٧٨م. ويكشف ديوان روبنسون جيفرز JEFFERS المنشور عام ١٩٤٨م تحت عنوان THE DOUBLE AXE AND OTHER POEMS أن دار نشر «راندم هاوس» قد طلبت من الشاعر أن يحذف عشر قصائد، ويغير عدداً آخر من القصائد لأسباب سياسية، فقد استاء المحرر والناشر من نقد الشاعر لفرانكلين، وروزفلت. وعلى الرغم من أن جيفرز قد وافق على مضض على إجراء هذه التعديلات إلا أن الناشر وضع ملاحظة في مقدمة المكان ينتصل فيها من معتقدات جيفرز السياسية ويعلن اختلافه معها. وبينما تفاخرت الملحوظة بالتزام دار النشر «بحرية الكاتب» فإنها لم تذكر القصائد المحذوفة والتعديلات الكثيرة، والتي ظلت مجهولة حتى فحص أحد الدارسين مخطوطة الكاتب بعد عدة عقود، ولم تطبع نسخة جيفرز الحقيقية إلا في عام ١٩٧٦م، أي بعد أربعة عشر عاماً من وفاة الشاعر.

والنسخة المبيضة هي نسخة بخط اليد لقصيدة مكتوبة أو مطبوعة بالآلة الكاتبة بيد المؤلف بعد استكمالها. (والنسخة المبيضة لا تحتوي على تعديلات على عكس نسخة المسودة FOUL COPY التي تبين التعديلات والتغييرات). والنسخة المبيضة لذلك هي شيء جدير بالاحتفاظ به كنتاج أدبي. ولأنها في الغالب كان يقصد منها أن تكون هدية فإن النسخة المبيضة يكتبها الكاتب بأفضل خط بد ممكن. وكانت مثل تلك المخطوطات اليدوية شائعة جداً في القرن الماضي. والشعراء المشهورون كان يطلب منهم كثيراً نسخ من قصائدهم بخط أيديهم. وتكشف خطابات الشعراء الأمريكيين في القرن التاسع عشر الكثير من تلك الطلبات والإجابة عنها.

وعادة ينتهي المطاف بمسودات العمل والمخطوطات النهائية والنسخ المبيضة إلى أماكن مختلفة. وما لم يتم التخلص من مسودات العمل فإنها عادة تظل في حوزة الشاعر، وتحفظ عادة مع أوراقه. وقد تذهب مسودات العمل إلى أصدقاء في عالم الأدب لكي يعلقوا عليها، ويبدوا آراءهم بشأنها، وبهذا تستقر لدى كاتب آخر. أما المخطوطات المستكملة فإنها تظل في ملفات المحررين والناشرين. والنسخ المبيضة غالباً ما تتبعثر بين من يتلقونها.

وغالباً ما ينظر القائم على السجلات الأدبية إلى النسخ المبيضة على أنها أقل قيمة من مسودات العمل؛ لأن مسودات العمل توفر معرفة علمية، بينما تبدو النسخ المبيضة على أنها مجرد تذكار. غير أن النسخ المبيضة أحياناً تحوي قراءات مغايرة لنص ما، مما يعكس مراجعة الشاعر للقصيدة.


لورد بيرون

فالنسخة الجميلة من قصيدة ادجار ألن بو POE المعنونة ULALUME - A BALLAD التي أعطاها لفتاة صغيرة قبل وفاته بشهر تعد الآن هي النص المعمول به لهذه القصيدة. والنسخ المبيضة أحياناً تمثل المخطوط اليدوي الوحيد الموجود لعمل أدبي، خصوصاً فيما يتعلق بفترة ما قبل الرومانسية. فما الذي يمكن أن يدفعه محققو النصوص على سبيل المثال مقابل حصولهم على مخطوطة هاملت سواء أكانت مسودة عمل أم نسخة مبيضة، وهي مسرحية «نصها» موجود طباعة في ثلاث طبعات مختلفة؟. وقد تكشف مسودات العمل عن العملية الإبداعية، ولكن النسخة المبيضة قد تساعد في تحديد النص الموثوق به لقصيدة منتهية.

القصيدة المنتهية والرومانسية

ولكن ما هي القصيدة المنتهية؟. وهل كان بول فاليري VALERY على صواب عندما أعلن: «القصيدة لا تنتهي أبداً، لكنها فقط تترك». إن دراسة المخطوطات الأدبية يسلط الضوء على قضية مركزية في الشعر الحديث: ما الذي يشكل عملاً فنياً مكتملاً؟. بينما كان فلاسفة الرومانسية يحولون اهتمامهم من تحليل العمل الفني المنتهي تقليدياً إلى التأمل في العملية الإبداعية، فإنهم قد استهلوا تحولاً في الذوق استمر حتى يومنا هذا؛ ذلك أن الأعمال التي كان ينظر إليها قبل ذلك بقرن على أنها غير كاملة حازت استحساناً كبيراً كقصائد مكتملة ومتحققة. ففي عام ١٧٩٨م نشر صامويل كولريدج COLERIDGE، المنظر الإنجليزي الرئيس للرومانسية قصيدة «كوبلا خان» KUBLA KHAN، واتخذ لها عنواناً فرعياً هو FRAGMENT أي «كسرة أو جزء»، وفي عام ١٨٢٠م سمح كيتس بأن تنشر قصيدته المتروكة HYPERION التي تنتهي عند نصف جملة، في ديوانه.

وإذا كانت الفترة الرومانسية تقدر الكسرات والبقايا الشعرية؛ لأنها تكشف عبقرية الشاعر الداخلية حال انطلاقها من أسر القيود الخارجية للشكل الكلاسيكي، فإن هذه الفترة أيضاً قد ولدت احتراماً غير مسبوق للمخطوطات الأدبية. وكانت العصور السابقة تنظر إلى الأشياء المكتوبة بخط يد الشاعر من الناحية الوظيفية البحت، وبمجرد وضع النص في الطباعة لم يكن ثمة حاجة للاحتفاظ بالنسخة المكتوبة باليد.

وكان ينظر إلى «الفردوس المفقود» عند نشرها عام ١٦٦٧م على أنها تحفة أدبية رائعة، ولكن لا ملتون ولا أحد معاصريه اهتم بحفظ المخطوطة. ولم يفلت من عدم المبالاة إلا جزء صغير من المخطوطة الأصلية الضخمة «مازال هذا الجزء الذي يحمل بقع الحبر محفوظاً في أقبية مكتبة مورجان التي يتم التحكم في درجات الحرارة بها عن طريق أجهزة حديثة». أما الرومانسية فكانت تسبغ على الصفحة

المكتوبة بخط يد شاعر شهير قوة سحرية. وأصبحت المخطوطات في العصر الفيكتوري في إنجلترا شبيهة بالآثار المقدسة.

ولم يكن هذا التحول في الإحساس ليقع إلا في القرن التاسع عشر، وفي ذروة نجاح ثقافة الطباعة. وكان هذا هو أول عصر للقراءة الجماهيرية، والطباعة الرخيصة، والاتصال السريع. وغيرت الموجات المتتالية من النجاح التقاني (التكنولوجي) والتجاري - الصحافة اليومية والبريد والروايات وخدمة البرق وورق اللباب والإعلان الواسع النطاق والروايات الرخيصة - تدريجيا من الإطار المرجعي للمعرفة والاتصال الإنساني. فلأول مرة في التاريخ يجري إعلان أكثر المعلومات ونشرها وحفظها وتصنيفها على الصفحة المطبوعة. واحتل المؤلفون موقعا حرجا في الاقتصاد الذي تهيمن عليه الطباعة. وقبل الفيلم والمذياع (الراديو) والتلفاز وأجهزة التسجيل والهاتف والحاسوب كان الكاتب يمارس احتكارا شبه كامل على المعلومات. وبما أن الشهرة كانت وظيفة للطباعة، استطاع الكتاب الناجحون أن يحققوا شهرة كبيرة. ولما كانت الأفكار تنتقل بسرعة ولمسافات كبيرة، استطاعوا أن يحوزوا نفوذا وتأثيرا كبيرين.

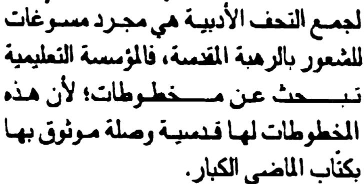
مكانة الشاعر بين عصرين

واحتل الشاعر مكانا فريدا وممتازا في ثقافة الطباعة في القرن التاسع عشر؛ ولأنه يجسد همزة الوصل التي مازالت قوية بين العصر الحديث وعصور التراث الشفهية السابقة، فهو يمارس أكثر الفنون احتراما - فنا متجذرا في اللغة المنطوقة وإن كان من السهل تحويله إلى الطباعة - ولايزال الشاعر في الطباعة يؤدي دورا يقارب دور الكهنة، ولم يكن الكاتب المسرحي أو الروائي ينظر إليه أبدا على قدم المساواة مع الشاعر.

والآن تهيمن الرواية على النشر التجاري، ولكن الشعراء الناجحين من أمثال تنيسون TENNYSON ولونجفيلو LONGFELLOW يمكن أن يبيعوا أكثر من الروائيين. وإذا كانت الثقافة قد غيرت الهوية الاجتماعية للشاعر، فإن الإنتاج الكمي أيضا قد غير المكانة الثقافية لمخطوطاته. فقد أدى تماثل الكتب المطبوعة واتساقها إلى إسباغ هالة شخصية فريدة على الصفحة المكتوبة بخط اليد. إن الاتصال غير الشخصي هو وظيفة الطباعة، أما المخطوطة فتوحي بعلاقة أكثر حميمية ومباشرة بين القارئ والمؤلف، ليس من خلال نصها بل من خلال أداتها والتي تشبه اتصالا خاصا. إن الوجود الكاسح للطباعة الآلية (الميكانيكية) جعل أداة المخطوطة أهم وسائلها.

القيمة الوظيفية إزاء القيمة السحرية

وعلى ذلك فإن القيمة الخاصة للمخطوطة لا تأتي من الكلمات التي تحويها فحسب، حيث يمكن العثور على النص في مكان آخر في شكل مطبوع، وبالمقاييس الوظيفية البحت - أي مقروئية النص وديمومته وإمكانية حمله حتى دقته - قد يكون الكتاب في العادة أفضل من المخطوطة. غير أن القيمة العليا للمخطوطة تأتي من كونها عملا فنيا في عصر الإنتاج (الميكانيكي) في هالتها، وفي وجودها الزماني والمكاني.


بول فاليري

والكتاب الحديث هو منتج مصنع وفقا لمعايير موضوعة وثابتة، فالنسخة الموجودة في شيكاغو لا تختلف عن النسخة الموجودة في باريس أو مدغشقر، أما المخطوطة فهي لانوجد ككيان فريد لا يمكن تكرار جوهره الكلي فحسب، بل إنها أيضا تحيا كقطعة فنية تاريخية يمكن إرجاعها إلى كاتبها. إن طريقة وجود الأعمال الأدبية هي مشكلة معقدة، وربما لا حل لها، غير أن الإنتاج (الميكانيكي) وفر إجابة بالنسبة إلى القارئ العادي على الأقل. وبينما حولت تطورات الطباعة التجارية في القرن الثامن عشر الكتب من سلع كمالية إلى أغراض عادية، فإن الإنتاج الكمي قد نزع القداسة عن الكتاب، ولكنه لم يدمر الهالة السحرية للعمل الأدبي، بل نقلها فحسب، وأدى انتشار الكتب المطبوعة بالتدريج إلى إيجاد نوع جديد من «الكتاب الأصلي» وهو المخطوطة المكتوبة بيد المؤلف، والتي تحظى بهالة من المصداقية والموثوقية عن طريق يد كاتبها.

المخطوطات وفلسفة الاقتناء

وأصبحت مخطوطة العمل الأدبي أكثر من مجرد كلمات: أصبحت تمثل علاقة مادية مباشرة من دون وساطة، بين القارئ والمؤلف، مثل بقية من البقايا المقدسة أو طقس شاماني. وعندما يصيح لاركين LARKIN وهو أكثر الشعراء اتزانا قائلا: «هذه هي الورقة التي كتب عليها، وهذه هي الكلمات كما كتبها تظهر للمرة الأولى في هذا الاقتران الإعجازي الخاص»، فإنه يكشف النتائج البعيدة المدى لهذا الاتجاه الجديد، أي الإحساس بقداسة الشيء المكتوب بيد الشاعر. والحجة التي تقدمها المكتبات التي تتنافس في اقتناء المخطوطات بأنها تتم لأسباب فكرية، ليست مقنعة؛ لأن هذا الغرض يمكن الوفاء به بصورة أفضل باستخدام (الميكروفيلم) أو الصور الضوئية، وبجزء زهيد جدا من قيمة اقتناء المخطوطة. ولكن الأسباب التي تقدمها المؤسسات لجمع التحف الأدبية هي مجرد مسوغات للشعور بالرهبة المقدسة، فالمؤسسة التعليمية تبحث عن مخطوطات؛ لأن هذه المخطوطات لها قدسية وصلة موثوق بها بكتاب الماضي الكبار.

توقيع المؤلف

ويمكن رؤية الطبيعة السحرية ليد الشاعر في الكتب الموقعة منه، وهي حالة خاصة يلتقي فيها الخط اليدوي والطباعة الميكانيكية. فالفرق بين نسخة موقعة ونسخة غير موقعة من الكتاب نفسه لا يعدو أن يكون خطا من الحبر في صفحة واحدة، ولكن النسخة الموقعة تباع بأضعاف ثمن نظيرتها غير الموقعة؛ لأنها تحمل العلامة والدليل على أنها ذات يوم استقرت بين يدي المؤلف، وبهذا تتحول من مجرد كتاب إلى تحفة صغيرة. وقبل القرن التاسع عشر كان أصحاب الكتب يوقعونها لسببين: لكي

يمنعوا سرقتها أو يقوموا بإهدائها، فنسخة كتاب POEMS للتون التي كانت في حوزة ألكسندر بوب POPE تحمل توقيع بوب، ولكنه كان سيبدو غريباً بالنسبة إلى بوب أن يطلب منه أحد قرائه أن يوقع له نسخة من كتابه THE RAPE OF A LOCK. وفي منتصف القرن التالي أصبح أمراً شائعاً بالنسبة إلى الغرباء أن يطلبوا من الكتاب أن يوقعوا كتبهم حتى أصبح ذلك ينغص الشعراء والكتاب الكبار. وأصبح توقيع الكاتب هو وسيلة لإضفاء السمات الفردية على الكتب ذات الإنتاج الكمي عن طريق ربطها بشخص الشاعر. ووصل توقيع الأسماء الأدبية ذروته في نهاية القرن الماضي عندما اكتشف رديارد كبلنج KIPLING أن الباعة وأصحاب المحلات كانوا يفضلون الاحتفاظ بشيك صغير يحمل توقيعه على أن يصرفوه.

متى يتحول الكتاب إلى مخطوطة؟

والكتاب الذي يحمل توقيع المؤلف يحتل مسافة وسيطة بين الطبيعة المجهولة للكتاب المصنع الخارج من المطبعة والجوهر الشخصي الفريد للمخطوطة. وإذا احتوى الكتاب على إضافات كافية بيد المؤلف فإنه يكتسب الهالة الفريدة لمسودة العمل. ففي نسخة من كتاب كولريدج LYRICAL BALLADS (١٧٩٨م) قام كولريدج بتنقيح عدد من القصائد في النص المطبوع لقصائده، و«أنشودة البحار العجوز» مغطاة بالكثير من الإضافات والحذوفات والتعديلات، وبهذا أصبح الكتاب مسودة عمل. وفي نسخة كتابه THE PRINCESS (١٨٤٧م) أضاف تنيسون عدة قصائد قصيرة إلى قصيدته التعليمية الطويلة، وهذه الإضافات تعد الآن من أكثر قصائده شهرة. وأحياناً يصبح كتاب ينتمي إلى مؤلف هو مخطوطة مؤلف آخر، فقد غطى كوفنتري باتمور PATMORE هوامش نسخته من كتاب THE PRINCESS بتعليقات على قصيدة تنيسون احتوت على النقد والتقريظ معاً.

ونعطي قراءة هذه الهوامش للقارئ صورة واضحة عن كيفية قراءة كبار الشعراء الفيكتوريين بعضهم لأعمال بعض. كذلك قام «نابكوف» الذي لم يكن راضياً عن ترجمة وينفريد روي ROY لكتابه «اليأس» DESPAIR بإعادة كتابته بين أسطر ترجمتها المطبوعة جملة جملة.

ويفترض القراء المعاصرون أن الفاصل بين الكتاب والمخطوطة هو فاصل واضح ومطلق، فالمخطوطة هي شيء خاص، بينما الكتاب يخدم وظيفة عامة. أما في العصور السابقة فلم يكن هناك مثل ذلك التمييز الواضح، فقبل اختراع الطباعة كانت المخطوطات اليدوية هي الوسيلة الوحيدة لنقل الأدب - سواء أكان عاماً أم خاصاً.

كولريدج

ولكن حتى بعد دخول الطباعة التجارية ظلت ثقافة المخطوطات قوة في الحياة الأدبية، ولا سيما بين الطبقات العليا. فالشاعر جون دون DONNE لم ينشر إلا كتابين، وبالعنوان نفسه، في عامي ١٦١١ و ١٦١٢م على التوالي، ولو لم يكن ذلك لإرضاء صديقه وراعيه ما نشر هذين الكتابين اللذين جعلاه يشعر بالحرج إلى حد بعيد. ولم يكن دون يحتفظ حتى بنسخ مكتوبة لكل قصائده، وعندما تعرض للضغط من راعيه في عام ١٦١٤م ليجمع شعره المخطوط، كان عليه أن يكتب إلى أصدقائه يطلب منهم نسخاً شاكياً من أن الأمر يكلفه: «مثابرة في البحث عنهم تفوق المثابرة في كتابتهم». ونظرة دون إلى النشر لم تكن غير عادية في عصره، فالكثير من شعراء النهضة مثل أندرو مارفيل MARVEL وتوماس كاريو CAREW وجون سكلنج SUCKLING وسير هنري ووتون WOTTON ووليم هربرت HERBERT كانوا يسمحون لشعرهم بالتداول بخط اليد بين حلقة معينة من القراء. أما السعي النشيط إلى النشر فقد بدا كشيء يهبط بالمكانة الاجتماعية للشخص، وكان متروكاً لصغار الشعراء أو محدثي النعمة المتطلعين من أمثال بن جونسون JOHNSON. أما الطبقة الراقية فلم تسمح لشعرها بالظهور في الطباعة على الرغم من أنها كانت تسمح لدائرتها من القراء بإعادة نسخ القصائد المحببة إليهم. وإلى عصر جون ملتون لم يكن من المعتاد أن تذهب قصيدة مباشرة من مكتب الشاعر إلى الطباعة.

حميمية المخطوطة

والتمييز بين القارئ الخاص والعام ليس دقيقاً حتى في الكتب المطبوعة، فالمطابع الأنيقة عادة تطبع الكتب في طبعات محدودة - نادراً ما تتجاوز مئتي نسخة أو تقل عن ثلاثين نسخة، ومثلها مثل المخطوطات الأرستقراطية في العصر الإليزابيثي، فإن هذه الطبعات الفاخرة تخدم دائرة معينة من القراء، وتحتل موقعاً متوسطاً بين جماهير القراء الخاصين والعامين. فمثلاً روبرت فروست لم يطبع من ديوانه TWILIGHT (١٨٩٤م) إلا نسختين، واحدة له والأخرى «لأليانور وايت» التي تزوجها بعد ذلك. وفي إحدى حالات اليأس الرومانسي، مزق الشاعر نسخته، ولكن أليانور كانت أكثر حصافة، والنسخة الوحيدة من هذا الديوان محفوظة الآن في مجموعة فروست بجامعة فرجينيا. والمخطوطات أيضاً تمثل جواز مرور للخيال، إذ إنها تسمح للمطالع لها بالسفر من العالم العام وغير الشخصي للطباعة (الميكانيكية) إلى العالم الخاص والإنساني للمؤلف؛ من الأدب كمؤسسة، إلى الأدب كصداقة، فالكتاب شيء عام تنتجه كمياً مجموعة من الأيدي، وهو مصمم للكثير من القراء، وعلى العكس من ذلك تبدو حتى المسودة المكتوبة على الآلة الكاتبة حميمة وفردية. إن المخطوطة تدعو المطالع لها من بين حشد القراء ليكون فرداً. ومن المغري أن تصور المخطوطات على أنها أغراض للتأمل الجمالي، والنسخ المبيضة الرائعة لأشخاص مثل بو POE ولونجفيلو LONGFELLOW وكيتس تستحق مثل ذلك الاهتمام. ومسودات العمل توفر متعة مماثلة أو ربما تفوق تلك التي توفرها النسخ المبيضة، ففي تصحيحاتها وتعديلاتها والحذف منها يكتشف المرء جوانب من إنسانية الكاتب. وكان كيبلنج وكمنجز

يرسمان صوراً في مسوداتهما وخطاباتهما. وإذا كانت روعة العمل المنتهي تثير تخيلنا الجمالي، فإن أوجه النقص في مسودات العمل تسمح لنا بالمشاركة.

التقانة والشعر

ونوحي دراسة المخطوطات الأدبية بتعقيد العلاقة وحيويتها بين التقانة (التكنولوجيا) والشعر في الوقت نفسه، ففي الدراسات الأدبية ينظر إلى الشعر في الغالب على أنه لغة بحت يولدها خيال الشاعر في علاقته بالتراث.

وقد يدرس الباحثون اقتصاديات النشر وتقنياته لكي يفهموا الهوية الاجتماعية للشاعر، ولكن أكثر العلاقات حميمية بين التقانة والكتابة الشعرية تظل إلى حد كبير غير مكتشفة، باستثناء بعض ما قام به بعض المنظرين من أمثال مارشال ماكلوهان MCLUHAN وولتر أونج ONG وأريك هافلوك HAVELOCK فهل هناك من يعرف على سبيل المثال أول شاعر كتب شعره مباشرة على الآلة الكاتبة؟

والمخطوطة الأدبية تسمح للمطالع لها بسبر أغوار غموض العبقرية الأدبية، وإذا كانت مخطوطة جيدة فإنها تدعو المرء إلى رؤية الشاعر في لحظة أدائه على أقصى حدود الإمكانات الإنسانية. أما النص المطبوع فإنه يسمح للمرء أن ينظر إلى هذا الأداء كما يشاهد المتفرج مباراة في كرة القدم من مقعد في الملعب (الأستاد)، ولكن المخطوطة تضع المرء إلى جانب المؤلف. وهنا، كما هو الحال في الفنون، عنصر قوي من حب التلصص، والرغبة في رؤية المؤلف وجهاً لوجه ليست مقصورة على محبيه أو المعجبين به، بل إنها رغبة إنسانية متجذرة وفطرية. والانفصال الجسدي للشاعر عن مستمعيه ليس إلا ظاهرة حديثة نسبياً. وعلى مدى الجزء الأكبر من التاريخ الإنساني، كان المستمعون يستمعون مباشرة إلى صوت الشاعر، فقد كانت العلاقة الجسدية المباشرة لا مناص منها في مجتمعات ما قبل القراءة والكتابة. وحتى بعد تقديم الأبجدية الصوتية التي سمحت للكتابة بالاحتفاظ بنصوص القصائد ظلت الصلة مع الثقافة الشفهية قائمة. وفي العصور الرومانية كان الشاعر ينشر شعره بأن يقرأه بصوت عال لجمهور يدعوه بنفسه. بعد ذلك كان الشعراء الجوالون أو التروبادور يغنون قصائدهم أو ينشدونها. كانت الكتب التي تصنع يدوياً نادرة، كما كانت غالية الثمن. والصلة بين الشعر والتمثيل الشفهي هي تراث لم ينقطع من أزمان بعيدة. ولم ينفصل الشاعر الحي عن جمهوره إلا بعد ظهور الكتاب المطبوع. وعصر الطباعة لا يعدو أن يكون جزءاً

الأسباب التي تقدمها المؤسسات لجمع التحف الأدبية هي مجرد مسوّغات للشعور بالرهبة المقدسة، فالمؤسسة التعليمية تبحث عن مخطوطات؛ لأن هذه المخطوطات لها قدسية وصلة موثوق بها بكتّاب الماضي الكبار

زهيداً من مجمل التاريخ الإنساني، أي ثلاثة أو أربعة قرون من نحو مليون عام تقريباً.

وشعبية ندوات قراءة الشعر تذكرنا بالجذور السمعية والقبلية للشعر، فهذه الندوات نصل الجمهور بالشاعر في علاقة جسدية مباشرة، وتشكل مؤقتاً قبيلة من المستمعين المتماثلين ذهنياً إزاء القراء الذين يكون كل منهم فرداً منعزلاً عن الآخر.

والمخطوطات المكتوبة باليد ترضي الرغبة نفسها لدى القراء. وتقدم يد الكاتب صلة إنسانية مباشرة، ودعوة موحية لخيال القارئ. وقد تكون دراسة الخطوط علماً زائفاً، ولكنها تستند إلى نفاذ بصيرة خالص، وهي أن هناك علاقة جوهرية بين خط اليد والشخصية. وتظهر جوانب متباينة من شخصية الكاتب في خطوط مختلفة، كما يتغير خط الشخص نفسه بصورة ملحوظة وفقاً للحالة المزاجية. ويصف أدموند موريس قدرة الخط اليدوي على توصيل الحالة الداخلية للمؤلف بقوله:

«إن القوة الأساسية للمخطوطة هي توصيل الفيض المتصل للفكر الإنساني، من المخ إلى اليد إلى القلم إلى الحبر إلى العين. كل خفقة وكل جرة قلم، كل حرف يرتجف بالتعبير. أما الحرف المطبوع فليس له ذلك الدفء المناظر».

وعند فحص مخطوطة الشعراء المشهورين كثيراً ما يدهش المرء لبعض جوانب الشخصية التي تتجلى بوضوح في خطوط أيديهم. فخط «بو» POE الجميل يكشف الحساسية نفسها التي عبرت عنها جمالياته الحالمة. أما مخطوطة إميلي ديكنسون فإنها تضخم الحروف، حتى إن قصيدة قصيرة تزحف لتملأ صفحة بأكملها، وكلمة واحدة أو اثنتان تمتدان من الهامش إلى الهامش الآخر. هل يبقى ثمة شك في أن الشاعرة تصر على الأهمية الزائدة لكلماتها؟، وكأن خط يدها يصيح بالقارئ: «لا تخطئ قصيدتي القصيرة على أنها قصيدة صغيرة». وهل يدهش المرء إذا كان خط يد لونجفلو أكثر أناقة من خط يد ويتمان؟. أو أن كينس كان يكتب بعناية أكثر من بيرون الذي كانت يده تندفع بشدة عبر الصفحة؟.

إن قيمة المخطوطات الأدبية في الثقافة الغربية تعكس دافعاً إنسانياً مثيراً للإعجاب يتعذر التخلص منه، ألا وهو الرغبة في علاقة مباشرة وموثوق بها بين الفن وجمهوره. وقد يكون الأدب مؤسسة، مكتبة خيالية شاسعة ومعقدة بدرجة تجعل من الصعب على قارئ واحد سبر أغوارها كلها، ولكن خبرة دراسة المخطوطات العظيمة تذكر المطالع لها بأن كل عمل مفرد هو أيضاً محادثة، تعامل خيالي وعاطفي بين شخص وآخر، جسر عبر الزمان والمكان. وليس ثمة قراءة تفوق حميمية القراءة من المخطوطة، فيد الشاعر تمتد لتحيي القارئ.

هامش

• نوع من القصائد القديمة شاع بفرنسا يتسم بالرقة والخفة والهجاء الذي لا يتجاوز الداعبة. وانظر للتوسع معجم مصطلحات الأدب لمجدي وهبة.

نحو معاجم مرحلية عربية متطورة

أحمد محمد المعتوق
الظهران - السعودية

في إطار البحث عن سبل ووسائل حيوية فاعلة للحد من مشكلة الضعف اللغوي الذي تعاني منه طوائف كبيرة من ناشئينا، يبرز الحديث عن المعاجم اللغوية المرحلية، التي اتخذت مكانها بين كتب اللغة في الدول المتقدمة، وحققت الكثير من أهدافها في سد احتياجات الطلبة على اختلاف مستوياتهم العقلية والثقافية، وتباين مراحلهم الدراسية، من مفردات لغاتهم القومية وصيغها وتراكيبها، بينما لم تتوافر هذه المعاجم العربية بعد، على كثرة ما لدينا من معاجم لغوية مختلفة الأحجام والأشكال والأنواع، وما لهذا النوع بالذات من أهمية كبيرة، ودور حيوي مؤثر في تسهيل تعلم النشء للغة، وفي تنمية تطوير مهاراتهم اللغوية عامة.

فالمعاجم المرحلية كما سبق الحديث عنها في كتاب لنا صدر فيما سبق (١)، هي في الواقع بمنزلة معجم واحد متدرج أو قاموس ذي أجزاء متسلسلة متطورة متنامية، توضع وتخصص في العادة للناشئة أو الطلبة في مراحلهم العقلية والتعليمية المختلفة، وقد تتناسب أو تتمشى مع مستويات طوائف أخرى من عامة مستخدمي اللغة، مشابهين من حيث استعدادهم الثقافي واللغوي لاستعداد الناشئة على اختلاف مراحلهم.

معجم ينمو مع الناشئ

تنتقى في المعجم المرحلي مجموعة من مفردات اللغة وصيغها تتناسب مع عمر الناشئ ومستواه الإدراكي وقدراته الاكتسابية، أو مع مرحلته التعليمية ومع حاجته في التعبير، وإمكاناته القرائية، ومدى قدرته على البحث وصبره على التتبع والتفتيش والفحص. ويفترض أن يتم ذلك كله وفق قواعد ومعايير دقيقة خاصة(٢)، وعلى أساس مسح شامل لمصادر اللغة وأنشطتها المرتبطة بحياة الناشئة، واستقراء ما تشتمل عليه هذه المصادر من مفردات لغوية وظيفية، أو في ضوء قوائم الشيوع التي يفترض أن يقوم بإعدادها وتخزينها ثم تحليلها وتوزيعها وتصنيفها وتنميطها فريق من اللغويين والحاسوبيين والمدققين المتخصصين، يتوزعون المهام ويتقاسمون المسؤوليات كل بحسب قدرته ومجاله.

ينمو المعجم المرحلي ويتسع مع نمو الناشئ ونمو قدراته العقلية



المعاجم العربية وضرورة التواؤم مع عصر الحاسوب

الطبيعية والمكتسبة واتساع علمه وثقافته، ليمده بثروة لغوية أكثر وأوسع وأعمق بنحو متدرج، ونتيجة لذلك تتعدد المعاجم المرحلية وتتميز وتتنوع من حيث محتوياتها وأحجامها وأشكالها بحسب تعدد المراحل التعليمية أو المستويات العقلية للناشئين. ولهذا التعدد والتنوع في الحقيقة إيجابيات كثيرة سبق الحديث عنها في كتابنا المذكور ولا نود تكرار ذكره، ولكن الذي نود قوله أو التركيز عليه في هذا المجال وفي إطار التنبيه على أهمية

المعاجم المرحلية، والتخطيط لإيجاد معاجم عربية من هذا النوع، هو الأثر الكبير لهذه المعاجم في تحسين وضع معاجمنا العربية الوسيطة التي تعنى بعامة الألفاظ التي يحتاج إليها عامة مستخدمي اللغة أو غالبيتهم، وذلك بالتقليل من الأعباء في طريق تصنيفها أو إنجازها.

إن من أبرز وأخطر ما تواجهه المعجمات اللغوية العربية العامة، كما أثبت ذلك الكثير من الدراسات(٣)، مشكلة التوفيق بين ما يحتاج إليه خاصة المثقفين وما يحتاج إليه عامتهم، وبين ما يحتاج إليه كبار المتعلمين وما يحتاج إليه صغارهم من مفردات اللغة وصيغها وتراكيبها ومن المعاني والشروح والتفسيرات والشواهد والرسومات التوضيحية وغيرها. ووجود المعاجم المرحلية كما هو واضح يحد من خطر هذه المشكلة ويقلل من آثارها في المعجم؛ حيث لا محذور حينئذ من التوسع في مادة المعجم العام، ومن التعمق في شرح المفردات فيه، ومن إغنائه عامة بكل ما يصلح للكبار من خاصة المتعلمين والمثقفين أو عامتهم، ولا مخافة من تجاوز المعجم لقدرة الناشئ أو تحمله وتقبله. فالناشئة لا يخشون في هذه الحالة من المتاهة أو التخبط بين الآلاف من الألفاظ والصيغ والتفرعات والاستعمالات التي يتسع لها المعجم العام عادة، ولا يخشون من البحث والتفتيش بين ما لا يعنيهم أو لم يصلوا إلى مرحلة الاستفادة منه بعد، ما دامت لهم معاجمهم الخاصة التي تفي بحاجاتهم المحدودة.

أخطر ما تواجهه المعجمات اللغوية العربية العامة مشكلة التوفيق بين ما يحتاج إليه خاصة المثقفين وما يحتاج إليه عامتهم، وبين ما يحتاج إليه كبار المتعلمين وما يحتاج إليه صغارهم من مفردات اللغة وصيغها وتراكيبها

ما المنهج المناسب؟

إن من بين ما تواجه معاجمنا العربية من مشكلات كذلك مشكلة المنهج في التبويب والتصنيف وترتيب المفردات والصيغ اللغوية، حيث تتوزع معاجمنا العربية الصادرة حتى عصرنا الحاضر مناهج متعددة، منها ما يصعب على الناشئ الحديث، بل المثقف العام، استخدامه، بل يؤدي إلى النفور منه. ومازالت الحيرة قائمة والخلاف باقيًا بين المعجميين وعلماء اللغة في عصرنا الحالي، فمنهم من يرى أن يوضع المعجم العام الحديث وفق المنهج الذي يتناسب مع طبيعة اللغة العربية الاشتقاقية فترتب المفردات فيه بحسب جذورها، ومنهم من يفضل محاكاة معاجم اللغات الأوربية وترتيب الكلمات في معاجم العربية بحسب نطقها دون تفريق بين المزيد والمجرد من هذه الكلمات، بحجة أن المنهج الأول لا يلائم الناشئة؛ لأنه يضطرهم إلى معرفة أصل الكلمة ليتمكنوا من الكشف عنها؛ وهذا لا يتأتى لمعظمهم، بينما لا يحوجهم المنهج الثاني إلا إلى نطق الكلمة أو تهجيها على النحو السليم، وهو أمر سهل.

إن وجود المعاجم المرحلية يحسم الخلاف؛ إذ إنه مع وجود هذه المعاجم ووضعها وفق المنهج الألفبائي النطقي الذي يقضي بترتيب الكلمات بحسب أوائل حروفها دون النظر إلى الأصلي والمزيد منها لا تبقى هناك أية مشكلة في اختيار المنهج الذي يتناسب مع طبيعة اللغة الاشتقاقية للمعجم اللغوي العام؛ لأنه لا خوف بعد ذلك من تعثر الناشئين في استخدام المعجم، مادامت لهم معاجمهم الخاصة التي تتناسب مع مستوياتهم ومع قدراتهم المحدودة في معرفة أصول الكلمات، فالذين يجدون صعوبة في استخدام المعجم العام منهم يمكن أن يعودوا إلى المعجم المرحلي الذي يناسبهم.

الحجم.. مشكلة أيضا

ومن بين ما تعاني منه معظم المعاجم العربية القديمة والحديثة العامة مشكلة تضخم الحجم وما يترتب على هذا التضخم في كثير من الأحيان من نفور النشء وإعراضهم عن استخدام المعجم العام. فالمعجم المرحلي يقلص من هذه المشكلة ويقلل من آثارها السلبية في النشء، إذ تصبح هناك أبدال للمعجم الذي ينفرون من حجمه أو لا يطيقون حمله، فالمعجم المرحلي يخضع - كما سبق القول - لعمليات استقراء دقيقة في اختيار وانتقاء ما يفترض أن يشتمل عليه من مفردات وتراكيب وأمثلة وشواهد سياقية مناسبة للمرحلة التعليمية التي يخصص لها، أو العمر الزمني الذي يعين له، وبذلك يصبح محدود المادة كما ونوعا، قليل المحتوى، ومناسبا في حجمه لاستعداداتهم النفسية وإمكاناتهم الجسدية.

إن المعاجم المرحلية التي توضع على نحو متدرج من حيث المادة اللغوية ونوعها وطريقة عرضها وأسلوب شرحها والاستشهاد عليها أو على طرق استعمالها، يفترض أن تكون متدرجة بدورها من حيث الحجم والطباعة والإخراج، مما يجعلها مسايرة لتطور الناشئ؛ ليس في مستواه التعليمي والثقافي والإدراكي فحسب، وإنما في استعداده البدني والنفسي على حمل المعجم وتصفحه والبحث والتفتيش فيه والاستئناس به أيضا. وبناء على ذلك فلن من يستصعب الرجوع إلى المعاجم العامة الكبيرة لا يتردد في استخدام المعجم المرحلي.

لكل مرحلة ما يناسبها

لمزيد من فاعلية المعاجم المرحلية وتنظيم أحجامها وتسهيل عملية اختيارها أو توجيه الناشئ لانتقاء ما يلائم مستواه منها يقترح إخراجها بأرقام تصاعدية تشير إلى تدرج مستوياتها، سواء أكانت مقسمة بحسب المراحل التعليمية أم بحسب المراحل الزمنية، ويمكن أن تحمل أرقاما أساسية بحسب المراحل التعليمية متفرعة ومتوالية؛ فيكون للمرحلة الابتدائية على سبيل المثال رقم (١) يتفرع إلى (١ - أ) و (١ - ب)، حيث يكون التلاميذ في السنين الأولى من هذه المرحلة مختلفين اختلافا كبيرا من حيث المستوى الإدراكي والمستوى المعرفي والاستعداد اللغوي عنهم في السنين الأخيرة. وهكذا بالنسبة إلى المراحل التعليمية الأخرى.

ولا مشاحة أن يوضع ما يناسب المستويين أو المستويات المتفرعة عن المستوى الرئيس الواحد في مجلد واحد متكامل.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن د. أحمد مختار عمر أطلق على المعاجم المرحلية اسم «المعاجم السِّنِّية» وقسمها إلى خمسة مستويات، وهي:

أ- معاجم ما قبل المدرسة.
ب- معاجم المرحلة الابتدائية.
جـ- معاجم المرحلة قبل الجامعية (بما يشمل المرحلتين الإعدادية والثانوية).
د- معاجم المرحلة الجامعية.
هـ- معاجم الكبار.

> تعاني معظم المعاجم العربية القديمة والحديثة من تضخم الحجم مما يؤدي إلى نفور النشء وإعراضهم عن استخدامها

تباين المستوى

وعقب د. عمر على هذا التقسيم بقوله: «ومن الممكن أن تجمع المرحلتان الأوليان ونصف المرحلة الثالثة تحت اسم معاجم الصغار، والمرحلتان الأخيرتان والنصف الثاني للمرحلة الثالثة تحت اسم (معاجم الكبار)، كما أن من الممكن أن تقسم المراحل إلى أقسام أربعة هي:

أ- معاجم الأطفال (رقم أ).
ب- معاجم التلاميذ (رقم ب)
جـ- معاجم الطلاب (رقم جـ).
د- معاجم الكبار (رقم د)

كما أن من الممكن دمج المرحلتين الأخيرتين تحت اسم معاجم الكبار»(٤).

وفي هذا التقسيم جانب من الصواب كما هو واضح، ولكنه ربما يفتقر إلى المزيد من التحديد والدقة، فإذا قصد من صيغة «معاجم» بأن يكون لكل من المستويات المذكورة معاجم متفرعة فهذا يقرب مما أردناه وبيناه فيما سبق. أما إذا كان المقصود أن يكون لكل من المستويات المذكورة معجم واحد فقط، كما يوحي تفصيل الكاتب في الحديث عن معاجم هذه المستويات وصفاتها العامة رغم تكرار الحديث عن المعجم بصيغة الجمع، فذلك لا يتحقق معه مفهوم «المعجم المني» أو المرحلي على النحو المطلوب، لأن هناك مستويات متباينة إلى حد كبير ضمن كل مرحلة من المراحل التعليمية المذكورة.

لقد أثبتت بعض الدراسات أن محصول التلميذ من المفردات اللغوية في السنتين الأخيرتين من المرحلة الابتدائية على سبيل المثال قد يصل إلى ضعف محصوله منها في السنتين أو السنوات الثلاث الأولى(٥) فكيف إذا أضيف لهذه المرحلة نصف المرحلة التي تليها؟ إذًا من الأجدر ألا يكون لكل مرحلة من المراحل الدراسية أقل من معجمين مميزين ومرقمين على النحو الذي أوضحناه. كما يرجح بالإضافة إلى ذلك أن يصدر ضمن كل مرحلة معجم خاص للإناث. فقد أثبتت الدراسات أيضًا أن بين الذكور والإناث فوارق في اكتساب المفردات اللغوية، وفي كميات ما يكتسب منها ونوعياته، تظهر على الأطفال منذ نعومة أظفارهم. وأن هذه الفوارق تزداد مع زيادة العمر الزمني للطفل(٦).

إن ما سبق طرحه في كتابنا السابق الذكر بشأن المعاجم المرحلية ووظائفها ودورها في تطوير لغة الناشئة، وما ذكرناه في هذا المقال الموجز عن فاعلية هذه المعاجم في تطوير المعجم العربي العام الحديث، ومعالجة جانب من المشكلات التي يعاني منها، تؤكد كلها ضرورة التخطيط لإيجاد معاجم مرحلية عربية متطورة مستوفية للشروط، وعلى غرار ما تحقق في اللغات الأوربية المتقدمة. وهذا لا يتم على الوجه المطلوب - كما سبقت الإشارة - إلا بعمل جماعي منظم تتولاه المؤسسات اللغوية بدعم ثابت مستمر من جهات ممولة ومسؤولة، وتعاون رصين وثيق من قبل الدوائر والجهات العلمية والثقافية، ومن المتخصصين في مجالات الحاسب الآلي ذات العلاقة؛ لأن هذا المشروع يتطلب، كما سبق القول، فريقًا بشريًا متخصصًا ومدربًا على العمل المعجمي من جانب، وعلى المسح اللغوي الإجرائي الشامل لكل النصوص والنشاطات والأعمال الحياتية المرتبطة بالناشئة من أجل إعداد قاعدة بيانية للألفاظ والصيغ والمعاني من جانب آخر، ومن ثم العمل على غربلة كل العناصر اللغوية المستحصلة وتحليلها وتصنيفها.

وحبذا لو تستمد من قاعدة البيانات اللغوية المعدة لإنشاء معاجم مرحلية ورقمية مثيلات لها آلية، أي يوضع كل واحد منها على قرص مدمج (ديسك)، أو يطور وفق برنامج خاص يمكن الناشئ من استخدامه على جهاز الحاسوب (الكومبيوتر)، واسترجاع كل عنصر فيه، لفظًا كان أو عبارة أو معنى أو كلمة مرادفة. هذا بالإضافة إلى استخدامه مقروءًا على الورق.

المراجع والهوامش

١. د. أحمد محمد المعتوق، الحصيلة اللغوية: أهميتها - مصادرها - وسائل تنميتها، عالم المعرفة عدد (٢١٢) ربيع الأول ١٤١٧هـ - أغسطس/آب ١٩٩٦م. الكويت، ص ٢٢٥ - ٢٢٨.
٢. د. أحمد مختار عمر، صناعة المعجم الحديث (القاهرة: عالم الكتب، ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م)، ص ٤٣ - ٤٤.
٣. د. أحمد محمد المعتوق، المعاجم اللغوية العربية (أبو ظبي: المجمع الثقافي، ١٩٩٩م)، انظر الجزء الخاص بحجم المعجم ومادته. ص ٢٠٤ - ٢٢٥.
٤. أطلق د. أحمد مختار عمر على هذا النوع من المعاجم اسم «المعاجم السنية» على أساس تفاوتها بحسب السن المقدرة لمستخدم اللغة، انظر: صناعة المعجم الحديث، ص٤٢. واعتقد أن هذه التسمية تضيّق من مفهوم هذه المعاجم، لأنها تربط المرحلة بالسن فقط، بينما المفترض أن ترتبط بالمستوى التعليمي والمستوى العقلي لمستخدم اللغة، إذ قد تكون السن متطابقة أو متقاربة بينما القدرات العقلية متفاوتة، والمحصول المعرفي أو العلمي مختلف، والعكس بالعكس. وبهذا فإن السن لا تقرر المرحلة بنحو ثابت ولا تدل دائمًا على المستوى. وقد قسم الدكتور عمر هذه المعاجم بالفعل إلى مستويات بحسب المراحل التعليمية، وبذلك ألغى المستويات السنية عفوًا. لأن المتعلمين في مرحلة تعليمية معينة يغلب عليهم أن يكونوا متقاربين في السن، ولكن ذلك ليس نظامًا ثابتًا كما هو واضح. وهكذا بالنسبة إلى المستوى الإدراكي بينهم.
٥. انظر صباح حنا هرمز، الثروة اللغوية للأطفال العرب ورعايتها، الكويت، «الجمعية الكويتية لتقدم الطفولة العربية، ١٩٨٧م»، ص ٣٩ - ٤٨.
٦. انظر: د. ليلى أحمد كرم الدين، الحصيلة اللغوية المنطوقة لطفل ما قبل المدرسة «من عمر عام حتى ستة أعوام» «الجمعية الكويتية لتقدم الطفولة، ١٩٨٩م» ص ١٨٤ - ١٨٦.

المراحل الممهدة لنظرية عمود الشعر في النقد العربي القديم

شلتاغ عبود
سبها - ليبيا

لا ندري على وجه التحقيق كم من القرون مرت على الأدب في جزيرة العرب حتى استوى على الصورة التي عرفناها عنه في المرحلة السابقة للإسلام، وهي المرحلة التي سميت بالجاهلية، وسمي أدبها بالأدب الجاهلي. والأدب الذي يمثل هذه المرحلة لا يتعدى عمره مئة وخمسين عاماً قبل الإسلام كما يرى الجاحظ(١).

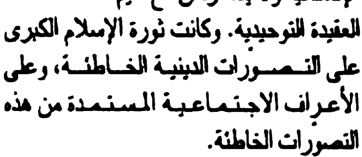
ومن الطبيعي أن تكون هناك مراحل مرت على هذا الأدب قبل أن يبدو بصورته الناضجة التي عرفناها، ولا بد أن تكون هذه المراحل قد شهدت فيها اللغة والأدب تطوراً مستمراً، منذ مراحل الطفولة والسذاجة حتى مراحل النضج والاكتمال. والملاحظ على الأدب الجاهلي الذي بين أيدينا أنه يخلو من النماذج التي تمثل تلك المراحل السحيقة في القدم، ولا نجد إلا شذرات وأمثلة قليلة يظهر فيها الخلل اللغوي أو الموسيقي، كما لاحظ غير واحد من الباحثين القدامى والمحدثين(٢).

ومهما يكن فإن الأدب الجاهلي المعروف قد استكمل سمات الأدب الناضج من الناحية الفنية والمضمونية، وصارت له تقاليده الثابتة في البناء والشكل واللغة والأوزان وحتى في المضامين والأفكار. ويلحظ في ذلك كله أثر البيئة العربية الجاهلية، من حيث ظروفها الطبيعية والاجتماعية والدينية.

ولقد عكس لنا النشاط الأدبي والنقد الأدبي في تلك الفترة هذه التقاليد والأصول، ولكن بطريقة تأثرية غير منظمة، ولكنها في الأحوال كلها تظهر مدى ما تعارف عليه الناس من قيم أدبية ومن أصول في الصياغة واللغة والموسيقى بحيث أصبحت مقاييس يحتكم إليها الأدباء والنقاد في تقويم الشعر والنثر آنذاك.

استمرار التقاليد الأدبية

ولما جاء الإسلام، لم تتغير البيئة الطبيعية أول الأمر، ولم ينسلخ المجتمع من موروثاته الاجتماعية كلها، لأن الإسلام نبذ بعض هذه الموروثات وأقر بعضها، مما ينسجم مع الفطرة الإنسانية ولا يتعارض مع قيم العقيدة التوحيدية. وكانت ثورة الإسلام الكبرى على التصورات الدينية الخاطئة، وعلى الأعراف الاجتماعية المستمدة من هذه التصورات الخاطئة.



ولم يكن فن الأدب، شعره ونثره، مما ثار عليه الإسلام أو عارضه، بل نظر إليه بوصفه أداة يمكن أن يستثمرها في دعم منهجه ودعوته. فظل الناس مشدودين لتراثهم الأدبي. لأن الإسلام لم يحظره عليهم، ولكنه وجههم - بطريقته التربوية - إلى العناصر التي يجب أن تنبذ من هذا التراث، وإلى العناصر التي يمكن أن تستثمر فيحافظ على استمراريتها في الحياة الجديدة.

هذا من حيث الموقف من الأفكار والمضامين وانعكاساتها العملية، ولم يكن له موقف رافض البتة من البناء الفني واللغوي للأدب الجاهلي، خطبه وأمثاله، وشعره ورجزه.



أبو تمام (رسم متخيل)

فكان هذا إيذاناً بالانفتاح على الفن والأدب في العصر الجاهلي، وعدم التحرج في التعامل معه، فاستمرت تقاليده في شخصية الأدباء الذين دخلوا الإسلام، وكانت لهم تجربة في الجاهلية قبل الإسلام والذين سموا بالشعراء المخضرمين. بل إن هذا الامتداد الفني استمر حتى في شخصيات الشعراء الذين ولدوا في ظل الإسلام.

إذن فالتقاليد الفنية لأدب ما قبل الإسلام استمرت في العصر الإسلامي وأخذت طريقها إلى الترسيخ والثبات تدريجياً.

وكانت الثورة الحقيقية التي تمت بعد الإسلام ثورة في التفكير ومناهجه، وثورة في التعامل الإنساني في صوره كلها. وتستطيع أن تلحظ هذا في دراسة النماذج الأدبية في المرحلتين لترى مدى النقلة التي انتقل إليها الأديب بعد الإسلام بفضل توجيهه.

واستمر الأديب يستوعب التطورات والأحداث ويعكسها ويستجيب لها ابتداء من المرحلة الأولى للدعوة في جزيرة العرب، ثم في المراحل التالية التي شهدت امتداد الدعوة خارج الجزيرة، وضمها أقواماً أخرى من غير العرب.

خطورة التعميم

بناء على هذا يمكن القول بأن الذي اتُّبع من الأدب بعد مجيء الإسلام إنما هو لغته وهندسة بنائه الموسيقي وسبل تصويره إلى حدٍّ ما، ولم يكن الاتباع اتباعاً في صور المعتقد والسلوك وشبكة العلاقات بمقدار ما ينعكس منها في الأدب. بل إن صورة الاتباع الفني لم تكن تنطبق تماماً على الشعر الإسلامي، لأن المضامين الجديدة التي جاء بها الإسلام أثرت في اللغة نفسها، كما أثرت في الصورة، فصارت هذه اللغة قرآنية المفردات، كما صارت الصورة القرآنية المنحى والنسيج في كثير من الأصول(٣). وإن كان الإطار الموسيقي قد بقي على حاله المعروفة في الجاهلية في المرحلة الأولى في الإسلام على الأقل.

وعلى هذا يجب التعامل بحذر مع الأحكام النقدية والأدبية التي تعمم القول وتنتهي إلى إقرار التقليد والاتباع في الأدب بعد مجيء الإسلام، وهي أحكام تجافي الواقع لأنه ليس من المعقول أن يأتي الإسلام بهذا الانقلاب الهائل في النظر إلى الكون والإنسان والحياة دون أن يمس بنية الأدب، علماً بأن الأدب لا يعيش بمنأى عما يعتمل في المجتمع والبيئة من غليان وتغير.

تنوع فكري وفني

حين نتجاوز العقود الخمسة من بدء الدعوة الإسلامية، وندخل الفترة التي حكم فيها بنو أمية، نكون أمام أدب أُتيحت له الفرصة بأن يتمثل تعاليم الإسلام من جانب، وأن يرسّخ بداية تقاليد جديدة في الأدب من جانب آخر.

ففي هذا العصر انطلق العرب من حدود جزيرتهم إلى أجزاء واسعة من الأرض شرقاً وغرباً، فتعاملوا مع أجناس بشرية متنوعة من فرس وروم وهنود، فتولد من هذا تلاقح وتفاعل ألقى ظلاله على أغراض الأدب وأشكاله.

ثم إنه، بالإضافة إلى تعدد البيئات في هذا العصر، قد أثار الحكم الأموي عدة مشكلات سياسية ودينية وعرقية كان لها الأثر الكبير في اتجاهات الشعر وخصائصه.

والذي يلاحظ على هذه البيئات أن كل واحدة منها صار له خصوصية بنمط من القول الشعري والخطابي، أو قل غلب عليه ذلك النمط أو الطابع فقد غلب الغزل اللاهي على بيئة مكة والمدينة، كما غلب الغزل العذري العفيف على بيئة البادية في نجد والحجاز. وكان ذلك خاضعاً للتخطيط السياسي الأموي في إبعاد أهل الحجاز من أبناء المهاجرين والأنصار عن منافسة الحكم الأموي في إدارة شؤون المسلمين وحكمهم.

أما بيئة العراق فقد غلب عليها طابع المعارضة السياسية، أو طابع الأدب الحزبي، فقد نشطت هذه البيئة في معارضة الحكم الأموي.

وقد بقيت بيئة الشام وقفاً على أنصار الحكم الأموي والسائرين في ركابه والمنتفعين منه من الشعراء والخطباء.

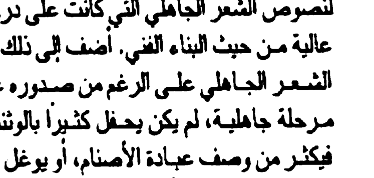
وقد ترك هذا التنوع في الاتجاهات الفكرية أثره في طريقة العرض الفني كل بما يناسب موضوعه واهتمامه النفسي.

ففي الشعر الغزلي العفيف وجدنا التضخيم العاطفي، والتوقد الشعوري بما يضيف إلى هذا الغرض نفساً جديداً، ويكسبه طابعاً لا ينطلق من الوصف الجسدي للمرأة، بل يتوجه إلى هذه الروح العاشقة، الصادقة في حبها، وما تعانيه من وجد ونذف. وفي الشعر الغزلي اللاهي في الحجاز تدخل الألفاظ المدنية الجديدة، ويلجأ الشعراء إلى المقطوعات الشعرية القصيرة، وإلى أسلوب القص والحكاية حيث يعرضون مغامراتهم ويصورون نتائجها.

وفي الشعر السياسي، وفي الهجاء منه خاصة، يتحول هذا الفن إلى لون سمي بـ (النقائض) بين جرير والفرزدق والأخطل، وهو فن له خصائصه وسماته التي ترسخت في هذا العصر بناء على ظروف الحياة السياسية المتجددة(٤).

وفي جانب آخر من الشعر السياسي نجد بعض الشعراء من الشيعة والخوارج معاً، يتخلصون من تلك المقدمات الغزلية التقليدية، ويستحدثون مقدمات من المدح لأهل البيت والتفاني في حبهم، كما فعل الكميت بن زيد، أو مقدمات فروسية استشهادية كما هو الحال عند شعراء الخوارج. وربما دخل عنصر جديد من الجدل والحاجة العقلية في هذا الشعر، ولأول مرة في تاريخ الأدب العربي. وهذا أثر من الآثار الثقافية في هذا العصر الذي كان بداية للدراسات الكلامية والمنطقية(٥).

ولهذا فليس من الصحيح أن يُقال دائماً بأن الشعر أو الأدب عامة، سواء في العصر الإسلامي الأول، أو في عصر الحكم الأموي، ظل كما هو عليه في العصر الجاهلي إذ الحال يشهد أن تطورات كثيرة طرأت عليه سواء من الناحية الفكرية أو المضمونية بفضل العقيدة الإسلامية وتوجيهاتها، وبأثر الظروف البيئية والمشكلية، فقد أثرت الروح الإسلامية والاتجاهات الفكرية في طريقة عرض الأفكار وتلوين الأدب بألوان جديدة مستحدثة، ستكون مقدمة لما يطرأ على الفن الشعري من تغييرات، كما سنلاحظ.


أبو نواس (رسم متخيل)

ولم يكن الشاعر العربي في صدر الإسلام أو في فترة الحكم الأموي بحاجة إلى أن يرجع إلى شيء من موضوعات الشاعر الجاهلي، أو يسايره في نسق أفكاره بعد هذا الانقلاب الفكري والنفسي الذي أحدثه الإسلام، ولكن بقيت ثمة صلة فنية بين هذا الشاعر والشاعر الجاهلي، وصلة تذوق لنصوص الشعر الجاهلي التي كانت على درجة عالية من حيث البناء الفني. أضف إلى ذلك أن الشعر الجاهلي على الرغم من صدوره عن مرحلة جاهلية، لم يكن يحفل كثيراً بالوثنية فيكثر من وصف عبادة الأصنام، أو يوغل في وصف الخرافات والأساطير، كما هو الحال في شأن الأدب اليوناني الوثني القديم. وربما يفسر لنا هذا امتداد التقاليد الفنية للعصر الجاهلي فيما تلاه من التاريخ(٦).

انفتاح واضطراب

غير أن الأمر في العصر العباسي قد تغير،

فلم يعد التجديد يطرأ على الموضوعات وعلى بعض الصور الفنية، بل تجاوزه إلى إعادة النظر في الهيكل العام لبناء القصيدة العربية، وإدخال عناصر جديدة في لغتها وفي معانيها. صحيح أن العصر الأموي قد ساهم - كما أشرنا - في شيء من هذه العناصر الجديدة، ولكن العصر العباسي قد أوغل في هذا الاتجاه، وإن لم يكن بالصورة التي أراد الباحثون المعاصرون أن ينتهوا إليها.

ومهما يكن فإن الدوافع التي أدت إلى هذا التغيير في العصر العباسي تتلخص في هذا الانفتاح الواسع على البلاد التي كانت مهداً لحضارات قديمة كالحضارة الفارسية والرومانية أو آثار البلاد التي كانت تدين بأديان الهنود القديمة. وكان من آثار هذا الانفتاح أن تلقى العرب علوماً وثقافات متعددة حاولوا أن يطبعوها بطابعهم الخاص، ولكن المرحلة الأولى من هذا الانفتاح شابها شيء من الاضطراب وعدم التجانس، فكان كثير من تلك الأفكار يعرض بشكله الأجنبي، أو قل المادي، دون تغيير كبير أو انسجام مع روح الحضارة الإسلامية، بل إن من هذه الأفكار ما كان تعريضاً أو شكاً بالعقائد الإسلامية نفسها، ومنها ما كان سخرية بالعرب وبيئتهم التي انطلقوا منها.

وبالإضافة إلى هذا الاصطدام بالحضارات المادية والثقافات الأجنبية، نجد الثراء والغنى والترف الذي صار عليه المجتمع العباسي بعد اتساع رقعة الخلافة، ونمو التجارة والصناعة بشكل لم يسبق له مثيل. فكان نتيجة لهذا كله أن يتأثر الأدب بهذه الألوان من الثقافات وهذه الأنماط من صور الحياة الاقتصادية والاجتماعية.

ولكنني لا أريد أن أعرض القضية على أنها صورة من صور الصراع بين الحضارة والبداوة كما ذهب إليه بعض الباحثين(٧)؛ لأننا لو فعلنا مثل هذا لانتهينا إلى الإقرار بأن التعلق بالقيم المادية من الناحية العقائدية، وتصوير الانحلال والانغماس بالمجون من الناحية السلوكية والاجتماعية، والثورة على المأثور من الظواهر الفنية، أقول لأقررنا بأن كل هذا هو توجه حضاري، وأن التمسك بقيم التوحيد وما يستتبع هذا من مواقف سلوكية وأخلاقية واجتماعية وغيرها من نظم الحياة الخاضعة لقيم التوحيد، والعودة إلى الصور الفطرية الطبيعية في الفن والأدب، إنما هو صورة من صور البداوة أو قل التخلف.

والحق أن التعبير المناسب عن هذا الصراع، ليس التضاد بين الحضارة والبداوة، وإنما هو صراع بين المادة والروح، بين القيم المادية التي وفدت على المجتمع العباسي والحضارة الإسلامية التي تعنى بالجانب الروحي فضلاً عن عنايتها بالجانب المادي. ومن ثم فهو صراع بين الأدب الذي يعكس الحضارة المادية بمجونها وترفها من جهة، وبتصوراتها العقائدية من جهة أخرى.

ولم تكن القضية، بعد ذلك، بمثل هذه الحدة والانفصام التام، بمعنى أنه ليس بالضرورة أن يكون الشاعر الذي تأثر بالأجواء العباسية قد انسلخ من عقيدته بشكل تام، وإنما يكون قد تأثر بهذه الأجواء بنسب متفاوتة حسب درجة تفاعله مع قيم الحضارة المادية ودرجة اقتباسه منها، وقد يكون تأثره من الناحية السلوكية والأخلاقية، كما قد يكون من الناحية الثقافية بشكل عام، تلك الناحية التي سيكون لها انعكاس على آثاره الفنية وأسلوبه الفني.

لم يرض أبو تمام بالقدر الطبيعي من البديع، وإنما جاء بالمستكره الذي يمجه الذوق، وتعافه السليقة العربية

كما أنه ليس بالضرورة أن يكون الشاعر الذي بقي محافظاً على عقيدته الإسلامية ولم يخضع للتأثيرات المادية، ليس بالضرورة أن يكون مثل هذا الشاعر قد وقف نفسه على شعر النسك، أو التصوف، وأدار وجهه عن كل ما يجري في الحياة من نشاطات، أو ما يعتمل فيها من تغيرات، كما شاء كثير من الباحثين أن يصور العصر العباسي على أنه حالتان لا ثالث لهما: عبث ومجون وشك أونسك وتصوف وانطواء، بل إن الدكتور طه حسين جعل شعراء الشك والمجون أكثر تمثيلاً للعصر، وأصدق تعبيراً عن هموم الناس آنذاك. أما الفقهاء والمتكلمون ورواة الحديث فكانوا كما يقول: «عاكفين على الفقه يستنبطونه، وعلى الكلام يمحصونه، وعلى الحديث يروونه، وعلى الأخبار يلتقطونها، ويذيعونها بين الناس، وكانوا في هذا لا ينطقون بلسان أحد، ولا يعبرون عن رأي أحد، ولا يمثلون إلا العلم الذي يعنون به، ويعكفون عليه!!»(٨). وكأن الحياة في العصر العباسي كانت ذات لون واحد، شك ومجون، وليس للدين والعلم أدنى تأثير في تلك الحياة! والحق أن الحياة ترفض هذه القسمة الحادة «أسود - أبيض» «مجون - نسك»، بل كان هناك أناس - وأعتقدهم أنهم هم الأكثرية - يمارسون الحياة الطبيعية دون أن يكونوا ماجنين ودون أن يكونوا ناسكين، وهذه الحياة التي ينشدها الإسلام، وينظم أنشطتها.

وقد سمي الشعراء الذين ساروا في طريق الترف والمجون في أواخر العصر الأموي وبدايات العصر العباسي بالمحدثين، وألحق بهم بعد ذلك شعراء البديع والمعاني الغامضة.

يمثل النماذج الأولى بشار بن برد ومسلم بن الوليد وأبو نواس، ويمثل النماذج الثانية أبو تمام خاصة.

ولم يكن بشار في الواقع مجدداً تجديداً ذا أهمية في الشعر، بل كانت معانيه مزيجاً من القديم وآثار الحضارة العباسية(٩)، ولكن الجديد عنده هو سلوكه المتحدي للأعراف والدين، وفسقه ومجونه وظهور ذلك كله في شعره الغزلي الصريح، بالإضافة إلى ظهور المفاهيم الزرادشتية الفارسية في شعره من قبيل تفضيل إبليس على آدم، وغير ذلك من مظاهر الانحراف والزندقة.

ويلاحظ أن تضخيم عنصر التجديد عند بشار وراءه مسعى استشراقي ينفخ في صورة كل خارج على قيم الإسلام، ومتنكر لعقيدته ونظامه، وعلى خطى هذا المسعى الاستشراقي سار الباحثون العرب ممن تتلمذ على يد المستشرقين أو تأثر بهم.

أما الأمر مع أبي نواس فيختلف، إذ إنه أوغل في اتجاه المجون والتهتك في الغزل الصريح بالمرأة، أو الغزل الماجن بالمذكر أو وصف الخمرة والإدمان عليها، فضلاً عن ذلك فإنه حاول أن يغير من الهيكل العام للقصيدة العربية، وذلك بثورته على المقدمة الغزلية التقليدية وسخريته بالشعراء الذين ألفوا هذا

النمط من التقديم لقصائدهم من العرب الجاهليين ومن بعض الشعراء في العصر الإسلامي والأموي.

قل لمن يبكي على رسم درس
واقفاً، ما ضرّ لو كان جلس!!

وما من شك في أن لمنطق أبي نواس وحجته أساساً قوياً من تجدد الحياة الاجتماعية لدى العرب، فإذا كانوا يقفون فعلاً على الأطلال، ويتذكرون أيامهم الخوالي مع من كان يسكن تلك الديار قبل رحيل أهلها عنها، كما كانوا يقطعون الفيافي من أجل الوصول إلى الممدوح، فيصفون رحلتهم تلك، ويصفون النوق التي أقلتهم في رحلتهم الشاقة.

أما والحال عند الشاعر العباسي قد تغيرت، وأصبح يعيش في بلاط الممدوح، ويروح عليه ويغدو، فلا داعي لتلك المقدمات التي تخص أهل البادية، وتصور حياتهم.

ثم إن حياة الشاعر العباسي بمجونه ولهوه أملت عليه أن يصف الخمرة التي يتلهى بها، فاستبدل بوصف الأطلال البالية، وصف الخمر وحاناتها وندمانها، والنساء ومحاسنهن ومفاتنهن.

خصومة بين الطبع والصنعة

تلك هي المرحلة الأولى من تجديد المحدثين، أما المرحلة الثانية فهي مرحلة الإيغال في البديع والغوص على المعاني الفلسفية، والخيالات المستحدثة، والاستعارات الغريبة التي تجسدت في أكثر صورها تعقيداً لدى أبي تمام، فصار رأس هذه المدرسة وأبرز ممثليها، وقد كان هذا التعقيد سبباً في الخصومة بين شعراء الطبع وشعراء الصنعة، أو الشعراء القدامى والشعراء المحدثين، كما يحلو لكثير من الباحثين أن يسموهم.

ولو كان الخلاف حول القدم والجدة فقط لنشأت الخصومة حول شعر أبي نواس قبل أبي تمام، ولكن شعر أبي نواس كان يميل إلى الطبع وعدم التكلف فكان مستساغاً مؤثراً في النفوس على الرغم مما فيه من مجون وتهتك، وعلى الرغم مما فيه من خروج على معايير القصيدة العربية. إذاً فالخلاف كان حول الإيغال في الصنعة، أو قل التعويل على الفكرة والمعنى وطلبهما على حساب الشعور والتلقائية. وكان ممايذهب بهذا الإحساس الفطري في الشعر كذلك طلب البديع وتكلفه مما لا حاجة ماسة إليه في الكشف عن مضامين جديدة، أو معان حضارية جديدة، بل هو التصنع والافتعال الذي هو انعكاس للترف والفراغ في ذلك العصر الذي عرفناه.

وعلى هذا الأساس يمكن الحديث عن اتجاهين رئيسين اثنين وجها الشعر في العصر العباسي: هما اتجاه الطبع، واتجاه الصنعة. وليس من الصحيح الاستعاضة عن هذين المصطلحين بمصطلح القدامى والمحدثين، أو المقلدين والمجددين؛ لأن من المجددين والمحدثين من كان ذا اتجاه يميل إلى شعر الطبع والتلقائية، مثل شعر أبي نواس والعباس بن الأحنف وأخيراً البحتري الذي أصبح علماً لهذا الاتجاه وهو من المحدثين.

ونريد أن نقف عند هذين الاتجاهين، اتجاه الطبع، واتجاه الصنعة، كما تمثلا في شعري البحتري وأبي تمام، وكما أشار إليهما النقاد القدامى والمحدثون.

فالاتجاه نحو البديع والصنعة لم يكن من مبتدعات أبي تمام، بل نجد لهما جذوراً في الشعر القديم والأدب القديم، بل لهما أمثلة في القرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف، وكلام البلغاء والخطباء من الأدب الجاهلي والإسلامي، ولكنه أخذ يظهر تدريجياً في شعر بشار، ثم في شعر مسلم بن الوليد حتى قيل: إنه أول من أفسد الشعر بالبديع(١٠)



طه حسين

ولكن أبا تمام لم يرض بذلك القدر الطبيعي من البديع حتى جاء بالمستكره الذي يمجه الذوق، وتعافه السليقة العربية.

وقد رصد القاضي علي بن عبدالعزيز الجرجاني هذا الاتجاه لدى أبي تمام، وعبر عنه خير تعبير حين قال: « ثم لم يرض بذلك حتى أضاف إليه البديع، فتحمله من كل وجه، وتوصل إليه بكل سبب، ولم يرض بهاتين الخلتين حتى اجتلب المعاني الغامضة، وقصد الأغراض الخفية، فاحتمل فيها كل غثٍ ثقيل، وأرصد لها الأفكار بكل سبيل، فصار هذا الجنس من شعره إذا قرع السمع لم يصل إلى القلب إلا بعد إتعاب الفكر، وكدّ الخاطر، والحمل على القريحة، فإن ظفر به فذلك من بعد العناء والمشقة، وحين حسره الإعياء، وأوهن قوته الكلال. وتلك حال لا تهش لها النفس للاستماع بحسن، أو الالتذاذ بمستظرف؛ وهذه جريرة التكلف»(١١).

وهو يشير بهذا إلى أن عنصر الصنعة في شعر أبي تمام مبعثه عناصر كثيرة، منها: طلب الوعر من الألفاظ القديمة والغريب منها، وطلب البديع من جناس وطباق واستعارة بشكل مفرط مفتعل ليس وراءه ضرورة فنية أو معنوية أو شعورية، ثم التكلف في البحث عن المعاني البعيدة والإغراب فيها بما يكد الذهن ويأتي بالملال. وهذا في الواقع أقرب إلى النثر العلمي منه إلى الشعر الذي هو نتاج اللمحة الدالة والإحساس الشفاف، وقد لحظ معاصرو أبي تمام هذا وشخصوه، قال دعبل الخزاعي: «ماجعل الله أبا تمام من الشعراء، بل شعره بالخطب والكلام المنثور أشبه منه بالشعر»(١٢)، ولعلّ أبا العلاء المعري المتأخر زمنياً عن أبي تمام قد نسج على مقولة دعبل حين قال: «أبو تمام والمتنبي حكيمان، وإنما الشاعر البحتري»!!

ولم يكن القدامى يغضون من شعر أبي تمام في ذكر خصائصه تلك، ولكنهم يذكرون ما هو كائن في هذا الشعر، وما هو من طبيعته، بل إنهم كثيراً ما يذكرون محاسنه ونوادره، وعناصر الإبداع لديه، ولكن الباحثين المعاصرين ضربوا على وتر التجديد عند أبي تمام وضخموه لكي يكون هذا ذريعة وتسويغاً للجديد الذي نحا منحى الأوربيين في عصرنا، وما كان فيه من تنكب عن واقع حياتنا، وما فيه من تبعية وتغريب فكري وسلوكي.

والحق أن أبا تمام كان من أشد الشعراء ارتباطاً بالقديم من حيث اللغة والهيكل العام للقصيدة العربية، ولم يبلغ حتى ما بلغه سابقه أبو نواس في الثورة على ذلك الهيكل ومقدمته الغزلية خاصة. ولم يكن الجديد عنده إلاّ الإغراق في البديع، والإغراب في المعاني التي لا يمكن التوصل إليها إلاّ بالتأويل وكدّ الذهن.

تجربة لها طابعها الخاص

وإذا عرفنا الهدف وراء تضخيم عنصر التجديد عند أبي تمام، فإننا نستطيع أن نضع جهد أبي تمام في موضعه من محاولات التطوير والإغناء للشعر العربي. وهو الموضع الذي يتعلق بإغناء هذا الشعر بالمعاني المرتبطة بالثقافة الغزيرة والتجارب العميقة، التي هي نتاج للعمق الثقافي في العصر العباسي، وتلاقح الثقافات المتعددة فيه. ونستطيع أن نقول في هذا: إنه إغناء للشعر وتجربة لها طابعها الخاص الذي يتذوقه بعض المثقفين من الناس ثقافة فلسفية، وإن كان الآخرون الذين يميلون إلى الأصل الفطري في الشعر يعرضون عنه ولا يستسيغونه.

ومهما يكن فهو لون جديد من الشعر، ولكنه انتهى بالشعر في المراحل التالية إلى الموت والانتحار، وذلك حين لم يكن من هم الشعراء إلا هذا البديع والشكل الذي لا يحمل معه أية تجربة إنسانية، ويخلو من أي توجه حضاري، اللهم إلا اللعب اللفظي الذي ينم على فراغ رهيب، وإحساس بالملل مقيت، وهكذا كان طابع المرحلة الشعرية التي تلت سقوط بغداد خاصة.

وإذا عرفت هذا الاتجاه في شعر أبي تمام وعرفت مواقف القدامى والمحدثين منه، فمن الخير أن تعرف موقع البحتري من نفوس أولئك وهؤلاء. والذي نشهده من غضون كتب النقد القديم أن النقاد ومتذوقي الشعر كانوا إلى شعر البحتري أميل، وإن لم يغمطوا حق أبي تمام ومذهبه في الشعر، ذلك أن العربي بسليقته ميال إلى عنصر الجمال في الشعر، وكلما كان الجمال صادراً عن طبع صادق وتدفق تلقائي، كان أوقع في النفس من التعمل وإعمال الذهن. والحق أن النقاد القدامى نظروا إلى الشعر على أنه طبع وذكاء ودربة، وفي ذلك جماع التكوين الشعري كما لاحظ صاحب الوساطة(١٣).

وإنك لتلاحظ ميل أولئك النقاد إلى البحتري وتجاوب مشاعرهم مع انسيابيته وفطرته، إلا أنهم لم يعلنوا ذلك ويصرحوا به في أغلب الأحوال؛ لأن المسار النقدي حول التفاضل بين الجديد والقديم ـ كما يقولون ـ أخذ طابع الموازنة والوساطة، وكان مناط ذلك التحرج من التعصب لأحد الطرفين في الخصومة.

أما الباحثون والنقاد المعاصرون فأظهروا اهتماماً بأبي تمام أكثر من صاحبه، وفي رأيي، أن هذا قد خضع للاتجاه العام في عصرنا نحو البحث عن عناصر الجديد في مراحل الشعر القديم والحديث، وتضخيم هذا الاتجاه على حساب كثير من التجارب الأدبية التي لم تكن مقلدة بالمعنى الصحيح للتقليد، ولكنها كانت صاحبة موقف موازن بين القديم والجديد، موقف يقتضيه العمران الإنساني ـ بتعبير ابن خلدون ـ وهو الذي لا يحطم كل صلة له بالقديم، كما لا يعلق على القديم دون إضافة أو تحوير، وهو أمر يرفضه منطق الحياة في مجالات الفن والجوانب المتحركة من الحياة الاجتماعية.

فالبحتري نفسه الذي صنفه القدامى في خط عمود الشعر، ويصنفه المعاصرون في عداد المقلدين أو القدماء، هو في الواقع ابن عصره، ووليد تجارب ذلك العصر وما عج فيه من تغييرات فكرية واجتماعية وأدبية.

الصراع في العصر العباسي لم يكن بين الحضارة والبداوة، وإنما كان بين المادة والروح

التقليد والتجديد

لم يكن البحتري، إذاً، مقلداً البتة، وإنما كان في روحه ميل إلى الفطرة وعدم التكلف النقي بخصيصة من خصائص الشعر القديم، ولم يكن في تجاربه ومعانيه ولغته وصوره ليلتقي بتجارب الشعراء الذين سبقوه في العصر الجاهلي أو الإسلامي أو الأموي. ولعل هذا يحتاج منا إلى وقفة مع شعر البحتري نبسط القول فيها عن بنية هذا الشعر ومعانيه وتمثيله لروح عصره.

ويشهد الواقع الأدبي لدى الأمم جميعاً أنه لا يوجد شاعر أو أديب واحد مقلد مئة بالمئة، كما لا يوجد مجدد مئة بالمئة، فالتراث القديم يصب في كيان الشاعر، والحياة المعاصرة تملي عليه المواقف، فيأتي الفن الأدبي امتداداً للماضي، وتعبيراً عن الحاضر، وتطلعاً إلى المستقبل، وخير إنتاج أدبي ـ كما يقول إليوت ـ هو ما يتجلى فيه أن الأقدمين من نوابغ الأسلاف لم يموتوا»(١٤).

وقد مر بنا أن المبدأ الذي اعتمد عليه بعض النقاد في النفور من مذهب أبي تمام هو العودة بالشعر إلى فطرته، وتوخي طبع الشاعر وسليقته بعيداً عن التصنع والتكلف والاستحالة التي أوغل فيها أبو تمام معتمداً على الخطوات الأولى التي مهد بها إلى هذا التصنع كل من بشار ومسلم بن الوليد. فإننا سنلحظ مبدأ آخر لدى اللغويين في موقفهم من الشعر المحدث.

الخضوع للمقياس الزمني

المعروف أن هناك جهوداً حثيثة تمت في أواخر القرن الهجري الأول وبدايات القرن الثاني نحو جمع اللغة وتدوينها والتصنيف في مبادئها وأصولها اعتماداً على الاتصال بالبادية والأخذ من أفواه الأعراب فيها. واتخذ هذا الجهد الطابع العلمي المنظم في كل من البصرة والكوفة، وكان لذلك أثره في النقد وأصوله في تلك المرحلة، بحيث أصبح طابع النقد لدى جيل من العلماء طابعاً لغوياً ونحوياً خاصة في المراحل الأولى من الجمع والتدوين(١٥).

ومن المعلوم أيضاً، أن عرب الجاهلية والصدر الأول من الإسلام كانوا يعتمدون على الفطرة والسليقة في التعبير اللغوي، ولكن اختلاطهم بأقوام تعلموا العربية تعلماً، بعد اتساع رقعة الإسلام، وتفاعل العرب مع غيرهم من الشعوب، عزز التوجه اللغوي، ووضع اللغويين أمام مسؤولياتهم الجديدة، فحاولوا أن يبسطوا سلطانهم على الشعراء والأدباء، ويقفوا في طريق الانحراف باللغة عن مبادئها وأصولها.

ولم يكن هؤلاء اللغويون، في الواقع، من ذوي الاهتمامات اللغوية والنحوية فقط، بل كان عدد كبير منهم من رواة الشعر ومتذوقيه، وكانت لهم آراء نقدية شديدة المساس بحقيقة الشعر، وإن كان أغلب هذه الآراء ذا طابع لغوي، كما سنلاحظ. لقد أخضعوا الشعراء للقواعد اللغوية والنحوية التي استنبطوها باستقراء التراث اللغوي والأدبي، وهذا حق من حقوقهم بناء على حرصهم على هذه اللغة التي نزل بها كلام الله، وكانوا يرون أن المحافظة على هذه اللغة محافظة على القرآن نفسه، ولكنهم في واقع الأمر غالوا في هذا الاتجاه حين

ربطوا بين واقع التراث اللغوي والأدب الذي قيل في عصرهم، إذ أرادوا أن يكون هذا الأدب خاضعاً للأصول اللغوية والفنية التي صدر عنها الأدب الجاهلي والإسلامي في صدره الأول.

لقد كان من حقهم أن يتحاكموا إلى أصول اللغة وقواعدها في النظر إلى الشعر الذي قيل أواخر العصر الأموي والعصر العباسي، فيرفضوا ما خالف هذه القواعد والأصول، ويقبلوا ما انسجم معها، ولكنهم اكتفوا بالرواية عن الأدب القديم، وبهروا به، وجعلوه مثلهم الأعلى، وأزروا بكل جديد وعابوه.

وكان يكفي - في عرفهم - أن يكون الشاعر جاهلياً أو إسلامياً فيعد محسناً، فإذا كان من الشعراء المتأخرين عدّ شعره مولداً لا يسوغ أن يستشهد به، ولا يجوز أن يخضع للرواية والتدريس، بل إنهم تعصبوا للشعر القديم تعصباً أعماهم عن رؤية أية مزية للشعراء المحدثين.

يروى عن ابن الأعرابي أنه قال عن شعر أبي تمام: « إن كان هذا شعراً فما قالته العرب باطل»(١٦).

وكان أبو عمرو بن العلاء يقول: «لو أدرك الأخطل يوماً واحداً من الجاهلية ما قدمت عليه أحداً»(١٧). فكان مقياسهم مقياساً زمنياً لا يراعي الإجادة الفنية للشاعر. وهذا مقياس فيه تجن كبير على الحقيقة الأدبية، وفيه تعصب للقديم لقدمه فقط.

هذا منهج اللغويين عرضنا إليه بإيجاز شديد، بينما كان حكم النقاد والأدباء على الشاعر بمقدار إجادته أو إخفاقه في التعبير عما يجيش بنفسه وما يعتمل بداخله بغض النظر عن العصر الذي عاش فيه، هذا صاحب الوساطة يقول: «ولست أفضل في هذه القضية بين القديم والمحدث والجاهلي والمخضرم والأعرابي والمولد»(١٨).

نقول: إنه من الصحيح أن يغار اللغويون على اللغة العربية، ويحافظوا على أصولها، ويحتكموا إلى هذه الأصول في تقويم الشعر المحدث، خاصة بعد أن شاع اللحن، وبعدت الشقة عن هذه الأصول، ولكنه ليس من الصحيح أن يرفضوا الشعر حتى ولو كان محافظاً على هذه الأصول اللغوية، وكان ذنبه تأخره زمنياً عن شعراء الجاهلية وصدر الإسلام فقط.

وربما نجد العذر لأولئك اللغويين في أنهم واجهوا في هذا الشعر المحدث ظواهر ابتعدت كثيراً عما ألفوه من الشعر القديم، خاصة في هذا التكلف والإغراب لدى أبي تمام وشعراء الصنعة في العصر العباسي.

ومهما يكن فإن قانون الحياة عموماً يقتضي هذا التوازن بين الأسس القديمة ونبض الحياة الجديدة، بحيث لا يخرج الأديب على تلك الأسس خروجاً كلياً، ولا يتوقف عندها فقط؛ لأن إيقاع الحياة الجديدة يملي عليه أن يستجيب له بقدر ما يحافظ على تراث الأقدمين المتفاعل مع ذاته.

أسس عمود الشعر

ينتهي بنا الحديث عن الأسس التي اعتمدها محبو الأدب القديم إلى ماسمي بالنقد العربي بـ«عمود الشعر»، وهو امتداد لاتجاه الطبع والفطرة الذي قال به الأدباء والنقاد وللاتجاه اللغوي الذي انطلق منه اللغويون، ولكن هذا الأساس قام على أصول نظرية محددة أصبحت أداة بيد النقاد في المراحل التالية في تقويم الشعر والحكم على جودته.

يشهد الواقع الأدبي لدى الأمم جميعاً أنه لا يوجد شاعر أو أديب واحد مقلد مئة بالمئة، كما لا يوجد مجدّد مئة بالمئة

والآن نريد أن نمتحن هذه الأسس التي قام عليها عمود الشعر، ونرى إلى أي درجة فهمت على حقيقتها لدى النقاد القدامى والمعاصرين.

لم يحدد النقاد القدامى المقصود بمصطلح عمود الشعر على وجه الدقة، ولم يعرفوه تعريفاً واضحاً إلا ما جاء في مقدمة المرزوقي في شرحه لحماسة أبي تمام. وهو تعريف يحيط به الغموض، مما جعل النقاد القدامى والمعاصرين يختلفون في تحديد المقصود به تماماً.

قال المرزوقي في ذكر الأبواب السبعة لعمود الشعر: «إنهم كانوا يحاولون شرف المعنى وصحته، وجزالة اللفظ واستقامته، والإصابة في الوصف، والمقاربة في التشبيه، والتحام أجزاء النظم والتئامها على تخير من لذيذ الوزن، ومناسبة المستعار منه للمستعار له، ومشاكلة اللفظ للمعنى وشدة اقتضائهما للقافية حتى لا منافرة بينهما»(١٩).

ثم يشرح هذه الأبواب ويجعل لكل باب معياراً خاصاً، ولكن هذه المعايير في الواقع تتداخل فيما بينها ويلتبس بعضها ببعض. ومع ذلك فالمقاييس التي اعتمدت في هذا العمود تشبه إلى حد كبير المقاييس التي اعتمدتها المدرسة الكلاسيكية في النقد الأوربي إبان عصر النهضة، حيث جعلت العقل المقياس الأول في الحكم على التجربة الأدبية من حيث مضمونها وشكلها. ولا نريد أن نبحث الآن عن الدواعي الحضارية «السياسية والفكرية» التي دعت إلى هذا التوجه العقلي، ولكننا نريد رصد هذا التشابه بين هذين الاتجاهين النقديين في بيئتين مختلفتين وزمنين مختلفين.

ويمكنك أن تلحظ هذا التوجه العقلي وضوابطه في حديث المرزوقي عن أكثر من معيار حيث يقول: « فعيار المعنى أن يعرض على العقل الصحيح والفهم الثاقب»، «وعيار الإصابة في الوصف الذكاء وحسن التمييز»، «وعيار المقاربة في التشبيه الفطنة وحسن التقدير»، «وعيار الاستعارة الذهن والفطنة». فأنت مع الفهم والذكاء والتمييز والفطنة والتقدير، وهي كلها خاضعة لمراقبة العقل.

وليس هذا وقفاً على المعنى فقط، بل على الأدوات الفنية والخيال أيضاً، حيث اشترط في التشبيه بين الشيئين أن يكون اشتراكهما في الصفات أكثر من انفرادهما ليبين وجه الشبه بلا كلفة - كما قال المرزوقي - وفي الاستعارة اشترط مناسبة المستعار منه للمستعار له، وهذا حدّ واضح للمدرسة العقلية وضوابطها، إذ لا مجال للغموض والإبهام، أو التوليد المعنوي الذي يعتمد على الإيماء والرمز في العلاقات بين الأشياء. وهذا ما يلحظ على مدرسة المحدثين في العصر العباسي مع شيء من التحفظ حول قرب هذه العلاقات أو بعدها وقدرتها على الإيحاء في شعر أبي تمام وغيره من المحدثين.

البعد عن القيم النقدية الأوربية

ولكننا لا ينبغي أن نفهم المقولات النقدية في عمود الشعر على أساس فهمنا للقيم النقدية في المدرسة الكلاسيكية الأوربية، كما فعل الأستاذ محمد غنيمي هلال حين فهم كلمة عمر بن الخطاب «رضي الله عنه» في وصفه لزهير بن

أبي سلمى حيث قال عنه: إنه «كان لا يمدح الرجل إلا بما يكون في الرجال»، فهمها على أنها دليل على ذكر المعاني العامة التي لا تتعلق بممدوح بذاته، بل هي صفات عامة للجنس الإنساني(٢٠)، على ما هو معلوم من خصائص المدرسة الكلاسيكية.

ولكنني أفهم من مقولة عمر هذه على أنها تعبير عن عنصر الصدق الذي يلزم الشاعر فيه نفسه من حيث توافر الصفات التي يذكرها في الممدوح نفسه، بصفته إنساناً متميزاً، وليس بسبب تمثيله للصفات الإنسانية العامة.

هذا ما يشترك فيه المعنى والخيال من حيث الوضوح ومراقبة العقل وصدورهما عنه، وهناك أبواب أخرى لها معايير تصدر عن مفهوم واحد، مثل عيار اللفظ، وعيار مشاكلة اللفظ للمعنى، وعيار التحام أجزاء النظم، وهو مفهوم الطبع والفطرة والاستعمال والدربة. وهذا ما يلحظ على مدرسة عمود الشعر في نماذجها الجاهلية والإسلامية في أغلب الأحوال، إذ نجد الألفة والبُعد عن التكلف وطلب الحوشي والغريب من الألفاظ لذاتها.

ويرتبط بهذا المفهوم حديثهم عن القافية إذ «يجب أن تكون كالموعود به المنتظر يتشوقها المعنى بحقه واللفظ بقسطه»(٢١).

وهذه مسألة جوهرية في الاختلاف بين مدرسة عمود الشعر ومدرسة المحدثين الذين تصنعوا وتكلفوا كل غريب حتى بلغوا حد التمحل والاستحالة. على أنه لا ينبغي أن يفهم من كلامنا هذا أن نماذج عمود الشعر تخلو من الصنعة تماماً، لأنه لا يخلو فن من الصنعة، ولكنه فرق بين الصنعة بالدرجة الطبيعية التي تلحظ في شعراء الجاهلية وصدر الإسلام، وبين التصنع والتصنيع الذي وصل إليه الشعر في العصر العباسي وفيما بعده.

هذه هي الأصول النقدية التي مثلها مصطلح عمود الشعر في النقد الأدبي القديم، وهي أصول رأى المحدثون من الأدباء أنها غير ملزمة لهم في كل تفاصيلها، والحق أنهم لم يثوروا عليها كلها، بل خرجوا عنها في شيئين اثنين هما: الغلو في البديع، والبعد عن الوضوح بتكلف الاستعارات الذي تولد عنه الغموض في بعض الأحيان.

ومهما يكن فإن هذا الخروج لم يكن خروجاً كلياً عن قواعد الشعر العربي القديم من حيث لغته وموسيقاه وصوره، في الشكل الذي عرفناه في بعض حركات التجديد في العصر الحديث بتأثير من صلتنا بالآداب الأوربية.

والذي يبدو لي من معارضة بعض النقاد واللغويين القدامى لاتجاه المحدثين وخروجهم عن خصائص الشعر القديم، أن الحركة التجديدية عند بشار بن برد وأبي نواس وأضرابهما ارتبطت بموقف أخلاقي وسلوكي يتعارض مع قيم المجتمع الإسلامي، وكان معظم النقاد واللغويين من الملتزمين لهذه القيم والحفظة عليها. نقول هذا على الرغم من أن الحكم السائد في معظم الدراسات النقدية الحديثة هو أن النقد العربي القديم يفصل بين الأخلاق والفن، وأن هذا النقد كان في معظمه نقداً فنياً محضاً، ولكن الاستقراء الكامل للآثار النقدية القديمة، ومعرفة الروح السائدة في الحضارة الإسلامية يؤكدان أن الذوق الأدبي والحكم النقدي لم يكونا بعيدين عن تحكيم القيم الإسلامية.

ومن آثار هذا التحكيم كان النفور من اتجاه المحدثين من شعراء المجون والزندقة والساخرين بقيم المجتمع الإسلامي(٢٢). على أنه من الحق القول: إن المحدثين لم يكونوا سواء في هذا الخروج عن قيم المجتمع، فقد كان أبو تمام، مثلاً، شاعراً متزناً وصاحب دين، ولكن معارضته جاءت من باب غلوه في استخدام البديع والإغراب في الاستعارات.

على أنه، مهما يكن من طبيعة هذا الصراع بين تيار المدرسة التي تميل إلى قيم الأدب القديم، والمدرسة المجددة، فإنه صراع في حدود المجتمع الإسلامي الذي يتفاوت فيه التزام الناس قيم الإسلام، ولكنه لم يبلغ الأمر بالشعراء أن يخرجوا عن قيم التوحيد، أو يدعوا إلى نبذ القيم الاجتماعية السائدة كلها والاعتماد كلياً على قيم مستوردة، كما حدث في العصر الحديث، حين صارت أوربا قبلة الناس في الفكر والمشاعر والسلوك، وهو ما تعاني منه الأمة الإسلامية منذ قرنين من الزمن وإلى يوم الناس هذا.

المراجع

١. الحيوان، ج١، ص٧١. ينظر شوقي ضيف، العصر الجاهلي، دار المعارف، ط٧، س؟، ص٣٨.

٢. ينظر فصل «أغاليط الشعراء» في الوساطة بين المتنبي وخصومه للقاضي علي بن عبدالعزيز الجرجاني، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، وعلي البجاوي، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة، ط٤، ١٣٨٦هـ ١٩٦٦م ص٥.

٣. البيان والتبيين للجاحظ، مكتبة الخانجي، القاهرة، تحقيق عبدالسلام هارون، ط٢، ج١، ١٣٨٠هـ ١٩٦٠م ص١٩، حيث يروي المناظرة بين أهل مكة وابن مناذر الشاعر البصري الذي قال: أما ألفاظنا فأحكى الألفاظ للقرآن. وينظر كذلك كتاب الدكتورة ابتسام مرهون الصفار، أثر القرآن في الأدب العربي في القرن الأول للهجرة.

٤. د. شوقي ضيف، التطور والتجديد في الشعر الأموي، دار المعارف، القاهرة، ط٧، ١٩٨١م ص١٦٥.

٥. حركات التجديد في الأدب العربي، مجموعة من الأساتذة، دار الثقافة، القاهرة، ط١، ص٤٢، ٤٤.

٦. د. محمد مندور، النقد المنهجي عند العرب، مطبعة نهضة مصر، ط٢، ١٩٧٢م ص٧٥.

٧. مقال الدكتور حسين نصار «التجديد الحضاري، ثورة أبي نواس» في حركات التجديد في الأدب العربي، ص٤٨.

٨. الدكتور طه حسين، حديث الأربعاء، دار المعارف، القاهرة، ط؟، س؟، ج٢، ص٣٥.

٩. د. شوقي ضيف، الفن ومذاهبه في الشعر العربي، دار المعارف، القاهرة، ط٧، ص١٥٧.

١٠. د. محمد مندور، النقد المنهجي عند العرب، ص١٠٧.

١١. الجرجاني، الوساطة بين المتنبي وخصومه، ص١٩.

١٢. د. زكي مبارك، النثر الفني في القرن الرابع، المكتبة التجارية الكبرى بمصر، ط٢، س؟، ج٢، ص٩٠. وينظر إلى المحاورة التي عقدها الآمدي بين صاحب البحتري وصاحب أبي تمام في مقدمة «الموازنة».

١٣. مقدمة الموازنة بين الطائيين للآمدي ص ١٥.

١٤. د. محمد غنيمي هلال، دور الأدب المقارن في توجيه دراسات الأدب العربي المعاصر، دار نهضة مصر، القاهرة، ط١، ١٩٥٦م ص٦.

١٥. طه أحمد إبراهيم، تاريخ النقد الأدبي عند العرب من العصر الجاهلي إلى القرن الرابع الهجري، دار الحكمة، بيروت، ط؟، س؟، ص٤٩.

١٦. د. محمد مندور، النقد المنهجي، ص١٨١.

١٧. طه أحمد إبراهيم، تاريخ النقد الأدبي، ص١٠٢.

١٨. المصدر السابق ص١٥.

١٩. أبو تمام، حماسة أبي تمام، لجنة التأليف والترجمة والنشر، تحقيق أحمد أمين وعبدالسلام هارون، القسم الأول، القاهرة، ط١، ١٣٧١هـ ١٩٥١م، ص٩.

٢٠. النقد الأدبي الحديث، دار نهضة مصر، القاهرة، ط؟، ١٩٧٣م ص١٧٣.

٢١. مقدمة المرزوقي لشرح الحماسة، ص١١.

٢٢. د. عبدالباسط بدر، مقدمة لنظرية الأدب الإسلامي، دار المنارة، جدة، ط١، ١٤٠٥هـ ١٩٨٥م ص١١٦.

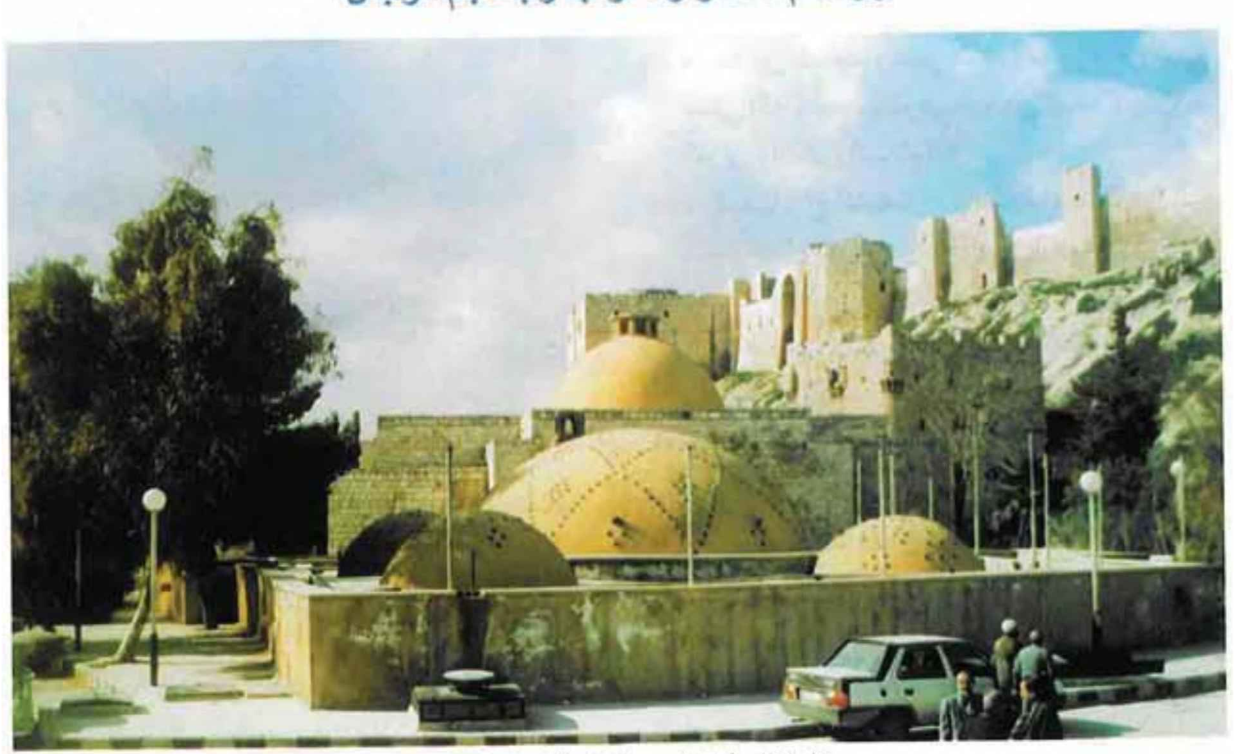
استطلاع

المماليك والحمامات الحلبية

رفاه محمد كامل

حلب - سورية

كثيرة هي الحمامات المملوكية في حلب، لكن هجمات المغول المتتالية على حلب بدءاً من هجمة هولاكو سنة ٦٥٨ هـ، ثم هجمة منكو بن هولاكو سنة ٦٧٥هـ وأخيراً هجمة تيمور لنك سنة ٨٠٣هـ قد دمرت جميع المرافق الحضارية. وكان التتار يخرجون من المدينة مخلفين وراءهم الدمار والخراب وجماجم الرجال.



منظر القباب ذوات العيون الزجاجية (حمام يلبغا) ٧٨٣هـ

وكان المماليك من السلاطين والنواب يعيدون إعمار المدينة وترميم تلك المرافق الخيرية وتجديدها من المدارس والمساجد والحمامات والزوايا والسبلان والقساطل والأسوار وما شابه ذلك، غير أن بعض الحمامات تَحدَّى الخراب فَعُمِّر من جديد ليستمر في تأدية الخدمات للمواطنين في نظافة الأبدان وإراحة النفوس وتوفير الغلات لتنفق على وجوه الخير ولاسيما في المساجد والمدارس. ومن هذه الحمامات: حمام الذهب أو الذهبي سنة ٧٤٨هـ، وحمام آشق تمر «العاشق» سنة ٧٧٦هـ، وحمام النفيس المعروف

بالبياضة سنة ٨٥٤هـ، وحمام أزتيمر سنة ٨٨٤ هـ، وحمام الصالحية سنة ٨٩٠هـ.

وقد عُني المؤرخون بذكر الحمامات الحلبية في العصر المملوكي ووصف أحوالها وتعدادها في مدينة حلب كابن شداد (ت:٦٤٨هـ) في «الأعلاق الخطيرة» وابن العديم (ت:٦٦٠هـ) في «بغية الطلب في تاريخ حلب»، وابن حبيب (ت:٨٠٨هـ) في «حضرة النديم من تاريخ ابن العديم»، وابن خطيب الناصرية (ت:٨٤٣هـ) في «الدر المنتخب في تاريخ حلب».. ومنها حمام أزتيمر «أزدمر» الذي



أرضية البراني في حمام يلبغا وقد تسرب البخار إليها من داخل الحمام

أنشأه الأمير المملوكي أزدمر نائب حلب سنة ٨٨٤هـ، وحمام آشق تمر الذي أنشأه آشق تمر نائب حلب سنة ٧٧٦هـ، وحمام يلبغا أنشأه الأمير المملوكي يلبغا نائب حلب سنة ٧٨٧هـ وغيرها.

وقد ائتلف الحلبيون مع تلك الحمامات في العصر المملوكي، فأتاها الفقهاء والعلماء والقضاة والرجال النابهون من علية القوم، كما اعتاد سكان حلب الاستحمام، وأحبوا النزول إلى الحمام ينعمون فيه ويهنؤون، فالتفت المؤرخون إلى تلك المرافق في المدينة العامرة بأهلها ومرافق الخير فيها؛ فياقوت الحموي في «معجم البلدان» يقول عن أهلها كما شهدهم سنة ٦٢٦هـ «ولأهلها عناية بإصلاح أنفسهم»، وأبو عبدالله بن بطوطة يقول عنها وعن أهلها سنة ٧٢٧هـ: «هي أعز البلاد لا نظير لها في الحسن وإتقان الترتيب، وأهلها دائماً في ظل ممدود» وراح الأدباء يكتبون ويؤلفون في أحوال الحمامات، كما فعل ابن عبدالهادي سنة ٩٠٩هـ، فقد وضع كتاباً سمّاه «آداب الحمام وأحكامه» تحدث فيه عن شروط بناء الحمام ودخول الرجال والنساء إليه، وعن نفعه ومضرته، والأوقات التي يُدخل إليه فيها، وعن حكم مائه، وبيعه وشرائه، وعن أرضه وبلاطه، وعن حكم العورة فيه، وعمن مدحه من السلف وعمَنْ ذمَّهُ، وما ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم فيه، وعن الصلاة وقراءة القرآن والذكر والسلام فيه.

كما راح الشعراء والظرفاء ينظرون إلى مسرّاتها يتندرون أو يتفكهون أو ينتقدون كما وصف ابن الوردي الشاعر الحلبي الساخر سنة ٧٤٩هـ الحمام القريب من بيته ليظهر الفرق بينه وبين حمام يلبغا:

حمّامكم في كل أوصافه
كوجه شخص غير مذكورِ
شديدُ بردٍ وسخٌ مُوحشٌ
قليلُ ماءٍ فاقدُ النُّورِ

ولعل أبرز حمام مملوكي في المملكة الحلبية، بل في بلاد الشام، هو حمام يلبغا الناصري الذي هنئ به الحلبيون منتدى ومنتجعاً ومصحاً، ونعيماً للأبدان، وأنساً للأرواح، وانشراحاً للنفوس.

فمن أولئك الحكام الذين اشتهروا بحب الحرب والعمران وأنشئت مرافق الخير في عهدهم؟

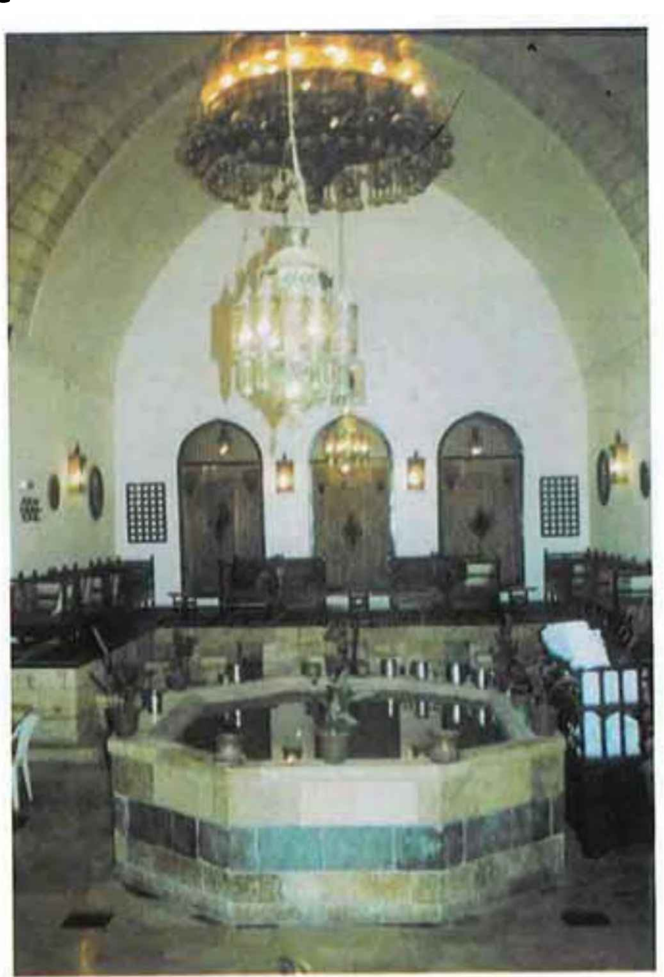
دور المماليك التاريخي

قام المماليك في فترتي حكمهم: الأولى من سنة ٦٤٨هـ - ٧٨٣هـ، والثانية من سنة ٧٨٣هـ - ٩٢٣هـ

بتكميل تحرير البلاد من الصليبيين، وبصد الهجمات المتتالية من المغول، فتكسرت على سيوف أبطالهم الزحوف من الغرب ومن الشرق لسلب خيرات بلاد الإسلام ونهبها، ولاسيما مصر والشام والعراق، وعند سنابك خيولهم تحطمت أطماع الصليبيين والمغول معًا في محو الإسلام. ويذكر التاريخ معارك قطز وبيبرس في عين جالوت، وكسر هولاكو سنة ٦٥٨هـ، وتحرير القلاع والحصون والمدن الشامية، ويذكر التاريخ قلاوون وتصفية الوجود الصليبي، وانتصاره الكبير في وقعة حمص سنة ٦٧٥هـ على منكو بن هولاكو.

حلب في عهد المماليك

تعرضت حلب في عهد المماليك لثلاث هجمات شرسة من المغول: هجمة هولاكو سنة ٦٥٨هـ، وهجمة منكو بن هولاكو سنة ٦٧٥هـ، وهجمة تيمورلنك سنة ٨٠٣هـ. وعلى الرغم من الخراب الذي ألحقوه بالمدينة، والتدمير البشع الذي خلّفوه وراءهم أعاد المماليك بناءها وإعمار ما خربوه من المدارس والجوامع والحمامات، وشيّدوا ما دمروا من أبوابها وأسوارها وقلعتها.. وتأتي شهادة الرحالة ابن بطوطة حين مرّ بحلب سنة ٧٢٧هـ شاهدًا على العمران قال: «هي من أعز البلاد التي لا نظير لها في الحسن، وإتقان الترتيب، واتساع الأسواق، وانتظام بعضها ببعض، وأسواقها مسقوفة بالخشب، فأهلها دائمًا في ظل ممدود، وقيساراتها لا تُماثل حسنًا وكبرًا، وهي تحيط بمسجدها، وكل سماط فيها محاذ لباب من أبواب المسجد». وقال: «أما خارج المدينة فهو أفيح عريض به المزارع العظيمة، وشجرات الأعناب به منتظمة، وتنتشر البساتين على شاطئ نهرها، والنفس تجد في خارج مدينة حلب انشراحًا وسرورًا ونشاطًا لا يكون في سواها».



منظر البراني: الأرضية والبركة والمصاطب والنجفة

مجدد بناء الحمام المملوكي المشهور

أبرز المؤرخون بدءًا من القرن الثامن إلى القرن الرابع عشر الهجريين دور يلبغا الناصري في بلاد الشام، وفي فترتي دولتي المماليك البحرية من سنة ٦٤٨ - ٧٨٣هـ، والبرية من سنة ٧٨٣ - ٩٢٣هـ، ومن هؤلاء المؤرخين ابن حبيب (ت:٨٠٨هـ) صاحب «حضرة النديم في تاريخ ابن العديم»، وابن الخطيب (ت:٨٤٣هـ) في «الدر المنتخب في تاريخ حلب». ومن المؤرخين المعاصرين لنهايات القرن الرابع عشر الهجري الشيخ كامل بن حسين الغزي (ت: ١٣٥١هـ)

صاحب تاريخ «نهر الذهب في تاريخ حلب»، ومحمد راغب الطباخ (ت: ١٣٧٠هـ) صاحب تاريخ «إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء».

الدور السياسي

استقر يلبغا في نيابة حلب سنة ٧٨٣هـ في عهد الملك حاجي بن شعبان بعد وفاة الملك منصور علي بن شعبان. وبعد استلام برقوق السلطنة وخلع الملك الصالح حاجي بن شعبان.. استمر يلبغا في نيابة حلب، ثم استدعي من قبل السلطان برقوق «الجركسي»، وسجن في الإسكندرية سنة ٧٨٧هـ؛ وذلك لخشية السلطان من نفوذه الواسع، وتمتين يلبغا



برج القلعة الجنوبي المطل على الحمام

الصلة مع أمير التركمان، وولى مكانه سودون، ثم عاد السلطان برقوق، وأفرج عن يلبغا، وأرسله إلى نيابة حلب سنة ٧٨٨هـ.

تستمر الأحداث، ويتعاظم شأن يلبغا حين يستولي على الشام ومصر، ويتمكن من خلع السلطان برقوق، وتنصيب أمير حاج بن أشرف شعبان من المماليك الأتراك سلطانًا سنة ٧٨٩هـ إلا أن برقوقًا بعد انطلاقه من الكرك إلى دمشق بفرقة، والقبض على الملك المنصور حاجي يعود سلطانًا سنة ٧٩٢هـ، ويشاء أن يزيل العداوة، فيفرج عن يلبغا مرة ثانية، ويعيده إلى نيابة حلب، ويتوجه السلطان إلى حلب، ويصطحب يلبغا لملاقاة أحد الأمراء المتمردين، لكن السلطان برقوقًا يتقبل وشاية تأتيه من سالم الدوكاري أمير التركمان بتراسل يلبغا مع منطاش الأمير المتمرد، فيأمر برقوق بقتل يلبغا في قلعة حلب سنة ٧٩٣هـ.

دور الأمير يلبغا العمراني

يبرز دور الأمير يلبغا العمراني في بناء الحمام الذي أتمه سنة ٧٨٣هـ في كونه يفوق بأناقته ونقوشه وتزييناته وعمرانه وهندسته جميع ما عمر من حمامات في بلاد الشام؛ فلو وزن بأجمل حمام في دمشق، وهو حمام خليل التوريزي حاجب الحجاب سنة ٨٤٨هـ، لكان حمام يلبغا أكثر جمالاً، وإن أعجب بحمام التوريزي المهندسان الباحثان الفرنسيان أيكوشار، ولوكور.

ويبرز دوره في حسن الإدارة التي آخت بين فئات المجتمع الحلبي المكون من عدة أصول عرقية ودينية، فقد كان في حلب من الأقوام: العرب والترك والشركس والكرد، ومن الأديان: الإسلام والمسيحية واليهودية.

موقع حمام يلبغا

يتراءى من بين قناطر المدخل إلى قلعة حلب الشهيرة بناء حمام يلبغا. إنه يجاور دار الحكومة «السراي» وقصر العدل، ويبعد عن المدرسة



واجهة حمام يلبغا مع منظر قبة البراني (المشلح)

السلطانية مئة متر تقريبًا، تلك المدرسة التي أتمت بناءها ضيفة خاتون ابنة الملك العادل وزوج الملك الظاهر غازي الذي أسس تلك المدرسة قبل عقد قرانه سنة ٦١٣هـ/١٢٢٣م.

أوصاف العمران الهندسي لحمام يلبغا

الواجهة:

إن كنت قرب باب قلعة حلب يتراءى على يمينك، وأنت تحول نظرك من باب القلعة، بناء أنيق تجذبك إليه الواجهة الأنيقة، فإن اقتربت منها ترى تلك الواجهة صنعت بإعداد هندسي يستند إلى إضفاء الجمال والأناقة على البناء، والتناغم والتناسب مع وظيفة الحمام. لو نظرت إلى القنطرة التي تعلو الباب علوًا كبيرًا ثم إلى الباب الضيق ذي الكرسيين الحجريين على طرفيه نظرة ثانية لرأيت توزع مداميك البناء بين اللونين الأسود والأصفر توزعًا يحكي توالي الليل والنهار على مر الأيام، وفي الواجهة أربعة شبابيك: على يمين المدخل اثنان، وعلى يساره اثنان، يعلو الشبابيك، كما يعلو الباب، مقرنصات متعامدة على المدماك الأفقي الأصفر.

فإذا دلفت إلى الداخل واجهك جدار يجعلك تتجه إلى اليمين بدرج نازل خفيف، ثم إلى اليسار، وهنا يستقبلك البراني؛ وذلك كي لا يتسرب الدفء، وليحجب النظر، فلا يستطيع المتطفل أن يرى من الباب ما في داخل الحمام.

البراني:

إذا فرغت من المدخل إلى «البرّاني» أدهشك التنسيق الرائع في تشكيله الهندسي، فيتنقّل نظرك من جهة إلى أخرى؛ فروعة المكان، والطيوف السحرية التي تصاحبه تعود بك إلى الماضي، فكأنك هنا تسمع حديث الأجيال، ويتعمق بك الخيال، فتخال

زفات الفرح تنبعث من العرائس اللواتي ملأن تلك المصاطب. فإذا اهتزت الكاميرا قليلاً عُدْتَ إلى الواقع لترى أرضية الصحن تأخذ شكلاً مستطيلاً، في وسطه بركة ثُمانية الشكل متطاولة، في وسطها نافورة ذات ستة رؤوس تشكل نجمة، وتعلو البركة نجفة «ثريا» كبيرة بأربع طبقات، يحيط بكل طبقة قناديل للإضاءة، وينتصب حول البركة أربع أقواس تقوم فوقها قبة كروية في قطبها العلوي مضلعة ثُمانية



الكتابة على قنطرة باب حمام الصالحية سنة (٨٩٠هـ)

الأضلاع، تقوم كرقبة فوق قطب القبة، تلك الفتحات تسمح بالنور شتاء، وبالنور والتهوية صيفاً. هنا لابد أن تنظر إلى إطار القبة الدائري المرتكز على الأقواس، وتعجب من التزيينات؛ إنه مزين بزهور على شكل زهرة الزنبق، وداخل كل زهرة رسوم نباتية، وكانت القبة قديماً مزينة بحزوز نباتية زنبقية الشكل، وفي الوسط البيضوي لتلك الحزوز تشكيلات نباتية من مركز الحزّ على شكل أشعة الشمس، وتستزيدك الرغبة في الجلوس على أرائك تلك المصاطب التي تتوزع حول البركة، في كل مصطبة أريكة أو اثنتان، والأريكة مجللةٌ بأقمشة فاخرة وبالسجاد ذي الألوان التي تماشي الأذواق القديمة، وأرضية كل مصطبة مفروشة بالبسط الأنيقة، ويمكنك أن تصعد إليها بدرجتين، وإلى جانب الدرجتين طاقة لوضع الأحذية، وللتناغم زُيِّنَتْ الطاقةُ بشكل زنبقة، تنبعث على قدر ضلع الفتحة العلوي.

وأرضية البراني مبلطة بالرخام الأصفر وقد قُسِّمَت إلى ثلاثة مربعات: تتوضع البركة «البحرة» على القسم الثاني في وسط الأرضية. أما القسم الأول فقد بلِّط على شكل مربع ذي إطار من الرخام الأسود يمر في المربع قطران من الرخام الأسود يبعد الواحد قدر ذراع عن ضلعي المربع الغربي والشرقي، ويتعامد معهما قطران باللون نفسه، والتشكيل ذاته، فَتُشَكِّلُ الأقطار المتعامدة أربعة مربعات متساوية في زوايا المربع الشاغل للقسم الأول من الأرضية، وأربعة مستطيلات متساوية على الأضلع، كل واحد يتكون مع ضلع مربع القسم الأول ليشكل مستطيلاً، تحصر هذه المستطيلات مربعاً في وسط المربع الكبير. أما مربعات الزوايا فكل مربع تنصفت أضلاعه يمر بين كل نقطتي النصفين مستقيم برخام أسود، فيتكون داخل مربع الزاوية مربع مبلط بالمرمر الأبيض.

كما تتوسع الأرضية على طرفي البركة باتجاه الغرب من طرف، وباتجاه الشرق من طرف، وترى تزيين الأرضية بتشكيل البلاط على شكل مربعين ومستطيل، الواحد إطاره بلاط أسود وداخله بلاط مرمري أبيض، فإن رفعت نظرك إلى الجدران

فسوف تبهرك بما رصف عليها من التحليات والتزيينات الخشبية والمرايا ذوات الأطر المزخرفة بنقوش وترصيعات صدفية بديعة.

الوسطاني:

ويدخل إلى الوسطاني، وهو القسم الذي يلي البراني من الحمام، ويفصل بينهما باب ضيّق لحفظ الحرارة، ويتفرع المدخل إلى جناح «الساونا» على يسار المدخل، وجناح المصبغة أمام الباب، ويتفرع على اليمين جناح الإدارة، ثم يأتي المدخل إلى الوسطاني بين التفريعتين، وهذا القسم يتألف من ثلاثة أواوين، كل إيوان بجرن، وفوق كل جرن فانوسان، وفي القسم الوسطاني أيضاً ثلاث خلوات، كل خلوة فيها مثل الإيوان. الجرن في كل إيوان سداسي الأضلاع، ومنحوت من الرخام الأصفر. والضلع المجاور للجدار أطول من بقية الأضلاع، والضلعان الوحشيان مزينان بزنبقتين من الحجر المنحوت على شكل كأس رأس الزنبقة إلى أسفل.

الجواني:

وتزداد بك الرغبة للدخول إلى «الجوّاني» فتنجذب إليه انجذاباً، وأنت ترى الصحن الواسع بالبلاط الزهري، وفي وسطه التشكيل الهندسي البديع على شكل سداسي نظم تنظيماً بديعاً تتوزع فيه أشكال مستطيلات ومربعات ودوائر ناشئة بين رسومات سداسية مماثلة تماماً لحدود المحيط، فحدث بذلك خمسة أشكال سداسية بعضها داخل بعض. أما الشكل السداسي الخامس فقد أنزلت بلاطاته بلون واحد من الرخام الأسود، فيخيل إليك أنه قرص الشمس، لكنّها شمس سوداء ينبعث منها النور إلى الكواكب التي تزداد ضياء كلما بعدت الأفلاك. فإذا رفعت بصرك إلى فوق أدهشتك القبة ذات العيون الزجاجية التي تسمح بالضوء كأنها قبة السماء فيها النجوم الزاهرات، والبديع في هذه العيون الزجاجية أنها لا تسمح للمتطفل أن يرى منها ماذا في داخل



المصاطب الغربية في البراني (المشلح)

الحمام. وقد نظمت تلك العيون في أشكال بديعة أيضاً.

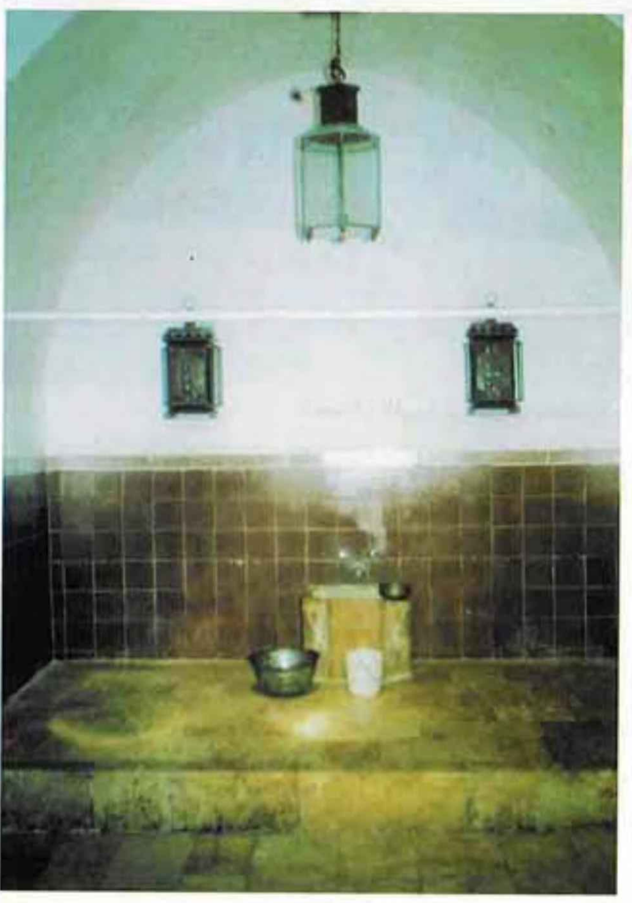
كما أنك ترى حول الصحن أربعة أواوين، وأربع خلوات، وفي كل إيوان جرن يعلوه فانوسان، وفي كل خلوة جرنان يعلوهما فانوسان، وتتوزع فتحات داخل الجدران إلى جانبي باب الجواني، وعلى طرفي الأواوين للجلوس والاستراحة بين فترات الاستحمام.

حمام يلبغا مرآة الرقي العمراني

إن الدور الذي كان لحلب في العصرين الأيوبي

والمملوكي في المجالين الحربي والاقتصادي سمح للصناعات الجديدة بالاقتباس والابتكار لترقى، فتفوق سواها في كثير من بلاد العالم، ولاسيما صناعة العمران، وما تستوجب من صناعات البناء الكثيرة، ويرقى مع تلك الصناعات الصنّاع، فإذا المدينة تحظى بأمهر المهندسين والمعماريين والرسامين والنحاتين والمزوقين والمزخرفين، وقد تمثل ذلك في حمام يلبغا الناصري الذي يقوم شاهداً على عظمة الحكام في العصرين الأيوبي والمملوكي معاً.

إن الحروب لتحرير البلاد من الصليبيين، والحروب لصد المغول، لم تثن الأيوبيين والمماليك عن إعمار القلاع والحصون والأسوار، وعن إعمار الجوامع والمدارس والبيمارستانات والحمامات، فتلك لبقاء الوطن، وهذه لرفاه المواطنين. كما أن التمسك بالعقيدة وحب الحضارة لم يمنعا المماليك أن يكملوا ما بدأ به الأيوبيون، والدليل هذا الحمام الرائع في الحسن الذي بناه الطاهر غازي سنة ٦٠٨هـ قبل عقد قرانه على ابنة عمه الملك العادل نحو سنة ٦١٣هـ، لكن المغول في هجمة هولاكو سنة ٦٥٨هـ خربوا أغلب المعالم الحضارية والعمرانية في حلب، فجدد بناء هذا الحمام الأمير يلبغا الناصري في عهد السلطان برقوق سنة ٧٨٣هـ لكي يعود أجمل مما كان عليه، وكأن يلبغا يقول للأجيال: «إن اختلاف الحكام في الإمارة لا يعني اختلاف الحضارة».



إيوان في الوسطاني مع الجرن والفانوسين

حمام يلبغا المنتدى الحلبي الأنيق

إضافةً إلى ما قدمته الحمامات، ومنها حمام يلبغا، للمسلمين من تسهيل الاغتسال والوضوء للقيام بالصلاة، كانت أيضاً المنتدى الأنيق للرجال، يأتون إليها ليتمتعوا بتنظيف أجسامهم، وراحة نفوسهم من عناء العمل، ففيها يخلعون ثيابهم إلا ما ستر عوراتهم ويقيمون فيها الأفراح، وأحياناً المآدب، وفيها يستجمون ويستحمون وينعمون بأحاديث الرجال إلى الرجال عن الأحوال والأعمال، ويأتونها للتداوي والتطبب من بعض الأمراض أيضاً.

وهذه الحمامات كان الرجال يأتون إليها في أوقات، والنساء في أوقات، وهي تحقق للنساء ما حققته للرجال من الهناءة والاستشفاء، وتناول الطعام، ونظافة الأبدان.

مرور الأيام على حمام يلبغا الناصري

أتم أمير حلب الظاهر غازي بن صلاح الدين عمارة هذا الحمام سنة ٦٠٨هـ، ثم خرّبه المغول حين استباح هولاكو المدينة سنة ٦٥٨هـ، ثم يجيء نائب حلب، وفي عهد السلطان برقوق، فيَتِم تجديد بنائه مرة ثانية أكثر أناقةً وجمالاً في



القناطر يتراءى من بينها بناء الحمام، وبخاصة القبة الكبرى

النقوش والتزيينات وتمتين البناء وتغذيته بالماء. وتمر الأيام، فيتعرض الحمام كما تتعرض مدينة حلب لوحشية المغول، فكانت صرخات الجنود تختلط بضربات المعاول، وهي تُفَرِّغ ما في صدور أولئك من فرح وانتقام.

هذا هو واقع المغول الغزاة، وهذه هي نظرتُهم إلى حضارة الإسلام. ويمكن أن نستأنس برأي كامل حسين الغزي أحد علماء حلب ومؤرخيها في القرن الرابع عشر الهجري في شأن ما ألحق خراب تيمور لنك سنة ٨٠٣هـ من أضرار فادحة في تألق مدينة حلب العمراني والحضاري، فيقول في كتابه «نهر الذهب»: «ما زالت حلب على تلك الثروة العلمية حتى دهمتها حادثةُ تيمور لنك، فصدمتها صدمة كادت تودي بكيانها» وكان حمام يلبغا من جملة ما جرى عليه الخراب، وتمر الأيام والحمام هكذا، فيتحول إلى مكان تدلك فيه اللبابيد، ثم ينهض الحمام من جديد من قبل وزارة السياحة في الجمهورية العربية السورية ليعود تماماً كما كان في عهد يلبغا الناصري مرآة ترى الأجيال فيها قدر الحضارة العمرانية الإسلامية في عصر المماليك.

الحمامات المملوكية: أوقاف للخير

بنى السلاطين والأمراء والنواب المماليك الحمامات مرافق خير في توفير الغلات لعمارة بيوت الله، والصرف على المدارس وطلاب العلم، وكانوا يوقفونها مع كثير من المرافق الأخرى التي تأتي بالغلات كالطوابين (الأفران) والدكاكين والقيساريات والخانات والبساتين والطواحين والمصابن، وأحياناً بعض أراضي القرى لتأمين ما يلزم لبقاء بيوت الله، ولاستمرار المدارس الملحقة بتلك الجوامع عامرة

بطلاب العلم، وهذا يعود على المجتمع بالنفع والتقدم الحضاري، فحمام عاشق أوقفه نائب حلب آشق تمر مع فرن ومعصرة وخان لمصلحة جامع آشق تمر سنة ٧٧٦هـ، وحمام الصالحية أوقفه ابن البولادي، وابن حنيفة لمصلحة المسجد العمري، ومدرسة الدفتر دار بتكفيل منشئ الحمام أزتيمر بن عبدالله الجركسي سنة ٨٩٠هـ، وحمام النفيس أوقفه النفيس أبو المحاسن الزيني أحد أعيان الخواجكية سنة ٨٥٤هـ لمصلحة تربته في محلة مستدام بك، وجعل توليها في ذريته، ثم ألحق حفيده وقفها بجملة أوقافه لتصرف الغلات على تربة جده مع الجامع، ثم عزَّز مستدام بك، وهو أحد عتقاء السلطان قانصوه الغوري، فأضاف إلى ما وقف نفيس وحفيده، وقفًا كبيرًا يتألف من عدة خيرات للجامع الذي سمي باسمه «جامع المستدامية» منها مدار في ظاهر باب النيرب، وآخر تحت القلعة، وستة عشر قيراطًا من طاحون أرتاح في العمق، ونصف جنينة المسك، وحانوتان ببانقوسا وثلاثة حوانيت في السوق الصغيرة في محلة خراب خان، ثم خصّ ما فاض عن مصاريف جامع المستدامية من جميع وقف الجامع ليصرف كما يلي:

١٠٠ دينار لتقيٍّ يُحجُّ عنه نافلة.

١٠٠ دينار لتقيٍّ يُحج عنه فريضة.

١٠٠ دينار تصرف على طعام الصائمين في رمضان.

٥٠ دينارًا تصرف على فقراء حي أوغلبك.

٥٠ دينارًا تصرف على فقراء حي الجبيلة.

٥٠ دينارًا تصرف لفقراء مكة المكرمة.

٥٠ دينارًا تصرف لفقراء المدينة المنورة.

٥٠ دينارًا تصرف لفقراء بيت المقدس والخليل.

منظر شامل للسراي (دار الحكومة) وحمام يلبغا والبرج الجنوبي للقلعة مع الخندق

وبذلك نقول: إن الحمامات الحلبية المملوكية لم تقتصر وظيفتها الحضارية على نظافة الأبدان، وتأمين الصحة العامة للمواطنين، وتوفير السعادة النفسية لهم، إنما كانت مرافق خير، وموارد غلة تعمل على تقدم حلب مدينةً وسكانًا لتحظى بالرقي العلمي والاجتماعي المنشودين، فضلاً عن تعزيز الإسلام بإيجاد جيل متعلم يتمسك بجوهر العقيدة وأصولها.

المراجع

١. سيرة السلاطين المماليك، ابن أبي الفضل.
٢. الدر المنتخب، ابن الخطيب.
٣. حضرة النديم، ابن حبيب.
٤. تتمة المختصر في تاريخ البشر، ابن الوردي.
٥. ديوان ابن الوردي، ابن الوردي.
٦. بغية الطلب في تاريخ حلب، ابن العديم.
٧. الأعلاق الخطيرة، ابن شداد.
٨. أعلام النبلاء، محمد راغب الطباخ.
٩. نهر الذهب، كامل حسين الغزّي.
١٠. الحمامات الدمشقية، منير كيال.
١١. معجم البلدان، ياقوت الحموي.
١٢. تحفة المشتاق، ابن بطوطة.

حمل الرجل خرافة علمية أم حقيقة فعلية؟!

نبيل سليم علي
الإسكندرية ـ مصر

تتحدث الأوساط العلمية هذه الأيام عن أحدث إنجاز علمي في ميدان الحمل والإنجاب، فقد تم التوصل إلى إمكان «حمل الرجل» بدلاً من المرأة، وهذه التطورات المهمة والسريعة تثير مشكلات قانونية وأخلاقية يصعب حصرها، وتفتح آفاقًا جديدة يصعب التكهن بما تحمله من آثار في المستقبل.

فبينما كان الأطباء يقومون بإجراء عملية جراحية لامرأة من نيوجيرسي لاستئصال ورم خبيث، بعد أن دلت الفحوصات على أنه موجود في رحمها، أصيبوا بالدهشة حين وجدوا الرحم سليمًا، بينما رأوا في تجويف البطن طفلاً كاملاً يزن ٣٫٤٠٠ كغ.

وفوجئ الدكتور جورج بوريتا، وهو يحاول استئصال الزائدة لامرأة تعاني من مغص وأوجاع مؤلمة في بطنها، بقدم صغيرة، سرعان ما تبين أنها قدم جنين في شهره الثامن.

إن هذا النوع من الحمل هو الذي يحاول الأطباء تجربته في أول رجل يكتسب صفة «أم»، وقد نجحت التجربة مع ذكور بعض الحيوانات.



الرجل.. كيف يجمع بين إحساسي الأبوة والأمومة؟

وجاء دور الرجال، أما كيف؟ فإنه لن يتم إلا على يد الأطباء بواسطة عملية جراحية. ففي البداية سيحاول الأطباء سحب العناصر اللازمة من الزوجين، وإخصابها في الأنابيب، وخلال خمسين ساعة سيمتلك الجنين خلاياه الأولى، بعدها يقوم الطبيب بعمل شق صغير في بطن الزوج لوضع هذه الخلايا مقابل الترب، أو ما يعرف بغشاء الأمعاء. بذلك يبدأ الحمل في بطن الرجل.

وبعد تسعة أشهر سيضع الرجل ـ الأم طفله بواسطة عملية قيصرية. وهذه الاكتشافات فتحت شهية الباحثين من الأطباء،

ودفعتهم إلى الدخول في المغامرة؛ لذا، لم يصدق جاك ميتكالف عينيه وهو يقرأ ذلك الإعلان في مجلة «ذي نيويورك ريفيو أوف بوكس»، والذي أعاد قراءته أكثر من مرة، ومضمونه: «مؤسسة علمية أمريكية كبرى تبحث عن رجل دافئ ممتلئ بالأمومة، يفضل أن يكون له بطن كبير، وأن يكون على قدر من المسؤولية، وعلى من يجد في نفسه الرغبة والكفاءة أن يرسل اسمه وعنوانه وصورته إلى صندوق البريد ٢٠٠٣٥».

وأرفقت المؤسسة العلمية إعلانها بملاحظة تقول: «سندفع لمن يقع عليه الاختيار تعويضاً مجزياً عن أمومته يعادل ضعف دخله السنوي، وسنتكفل بكل نفقات الحمل والولادة».

وبعد تردد طويل أرسل جاك ميتكالف جوابه إلى صندوق البريد المذكور مذيلاً بالتعليق الآتي: «أتمنى ألا تطالبوني بولادة طبيعية لأنني في النهاية رجل».

وكان الدكتور سيميل جاكوبسون رئيس قسم التوليد التابع لكلية الطب في جامعة جورج واشنطن وراء هذا الإعلان، وكان على يقين من أن الولادة الطبيعية مستحيلة على الرجال، غير أنه يرى أن مسألة الحمل ممكنة.

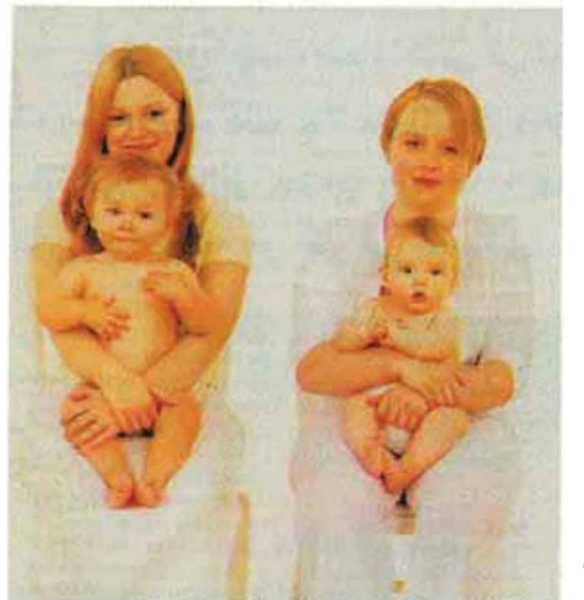
وقد أجريت، فعلاً، تجارب علمية متعددة على الحيوانات أخفق بعضها ونجح بعضها، وحمل عدد من ذكور القردة أطفالاً في بطونهم. وكانت القصة قد بدأت بسؤال:

كيف استطاعت النساء اللواتي استؤصلت أرحامهن أن يحملن؟ أليس في هذا دليل على أن الرحم ليس عنصراً ضرورياً في مسألة الحمل؟

وكانت الأوساط الطبية قد أثارت مسألة الحمل عند الرجال قبل ثمانية أعوام إثر عملية ولادة مذهلة تمت في نيوزيلندة، فقد وضعت سيدة تدعى مارجريت مارتن طفلة تزن ٦٠٠ر٢كغ، وكانت الطفلة في صحة جيدة، مع العلم أن أمها اضطرت إلى استئصال رحمها قبل حملها بسنة، أما الجنين فقد استقر في أحشائها واستطاع أن يتلقى الغذاء الكافي وأن ينمو حتى الشهر التاسع، وهذا ما دفع العلماء إلى الإعلان عن أن الحمل ممكن من دون رحم، وأن أحشاء الرجل مؤهلة لرعاية الجنين وكان د. بيتر جاكوبسون هو الذي أعلن الخبر أمام رجال الصحافة، فاستقبلوه بين مستنكر ومرحب.

وبدأت السباقات للأمومة الجديدة

في اليوم التالي، أعلنت الصحف النيوزيلندية عن الخبر السعيد، وهو أمومة الرجال.. وبدأ د. جاكوبسون يتلقى الرسائل من مختلف أنحاء العالم ولاسيما من نيوزيلنده، يحدثه فيها كثير من الأزواج عن رغبتهم في التعاضد مع زوجاتهم ومشاطرتهن في أمومتهن.. فلم تكن «حادثة» نيوزيلنده أول دليل على إمكان حمل الرجال، بل كان الدكتور سيميل جاكوبسون، رئيس قسم التوليد في جامعة جورج واشنطن قد أجرى عدداً من التجارب بمساعدة الدكتور روي هنزتز، فقد زرع بويضة مخصبة مأخوذة من أنثى فأر المعدان في بطن سعدان ذكر.


الرجل.. هل يحرم المرأة من الأمومة؟

وهكذا نما الجنين في غشاء الأمعاء وتلقى ما يحتاج إليه من الدم والغذاء حتى شهره الرابع، وقد دلت التجربة على أن الجنين كائن مستقل يستطيع أن ينسج غشاءه بنفسه، والغشاء عضو وعائي Vascular يتعلق بالرحم، و«يسحب» غذاءه من الأم، أما في حالة ذكر المعدان، فقد دلت التجربة على أن هذا الغشاء عضو بارع وقادر على التكيف مع البيئة التي يوجد فيها، وأنه كما يقول عنه عالم الأعصاب د. روجر جورسكي، يستطيع أن يتعلق بأي موقع غني بالغذاء والدم.

والسؤال الآن: لماذا أخرج الدكتور جاكوبسون الجنين من بطن ذكر المعدان في نهاية الشهر الرابع، ولم يتركه حتى نهاية الشهر السابع، كما هو الحال في الحمل التقليدي لأنثى المعدان؟ يجيب الدكتور جاكوبسون: «لقد أخرجت الجنين من بطن ذكر السعدان، وكان جنيناً طبيعياً حياً، وكان بإمكاننا متابعة التجربة حتى يومها الأخير، ولكن ذلك أمر مختلف عن هدف تجربتنا، صحيح أننا كنا نتطلع إلى مسألة حمل الذكور في جدية، ولكننا أجرينا تجاربنا لأهداف مغايرة، أهمها إمكان استئصال المبيض

المصاب بالسرطان من دون التسبب في إجهاض المرأة الحامل. ومن أجل ذلك أجرينا هذه التجربة على ذكر السعدان لنعرف متى يستطيع الجنين أن يفرز الهورمونات التي تُبقي على الحمل؟ كان بإمكاننا أن نجيب عن السؤال بطريقتين: إما أن نستأصل المبيض لعدد من النساء لنرى كم يموت من الأجنة؟ أو نزرع بيضة مخصبة في بطن حيوان ذكر، ونرى هل بإمكان الجنين أن يبقى حياً في أجواء مختلفة؟ لقد فضلنا الطريقة الثانية».

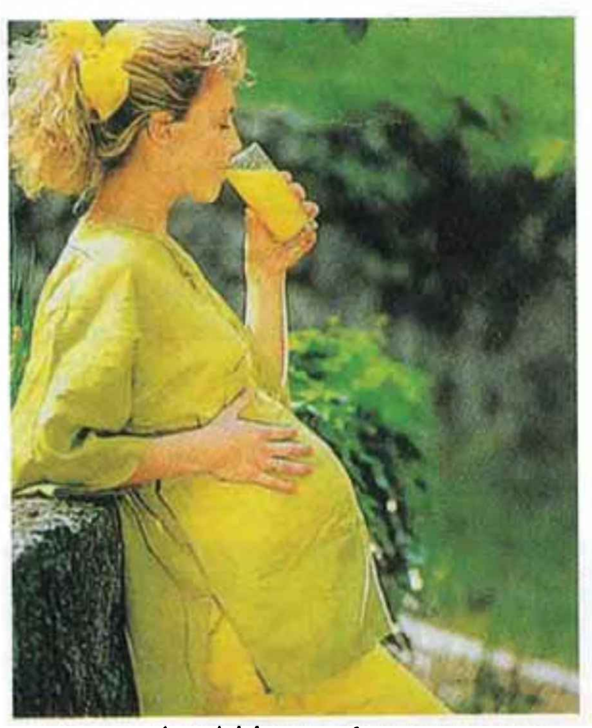
كان لتجربة جاكوبسون آثار طبية مفيدة سواء بالنسبة إلى إمكان حمل الرجال، أو بالنسبة إلى تطور الجنين. وعلى نقيض ما ظن كثير من الأطباء، فإن التطور الطبيعي للجنين لا يحتاج إلى هرمونات مبيضي المرأة، إذ إن البويضة المخصبة لها نظام مستقل يستطيع أن ينتج كل الهرمونات اللازمة للجنين في تطوراته اللاحقة.

لقد أجرى جاكوبسون تجاربه في أواسط الستينيات، ولم ينشر نتائجها؛ لأنها - كما يقول - مرحلة أولى من مشروع أوسع، ولعل هذا هو السبب الذي جعل كثيرين من الأطباء يعتقدون أنها تجربة مشوشة غير واضحة الأهداف.. ولكن جاكوبسون طبيب غير عادي، فقد كان يتولى إدارة «مركز تكاثر الجينات» في فرجينيا، وكان أول من فحص غشاء الجنين عند النساء الحوامل المسنّات ليجنبهن خطر إنجاب الأطفال المشوهين، كذلك فإنه أول من قام بتجارب حمل الذكور عند الحيوانات اللبونة، مع العلم أن هناك تجارب كثيرة أجريت على الضفادع والقوارض، ومختلف أنواع الطيور.

وكان د. دافيد كيربي من جامعة أوكسفورد البريطانية قد زرع أيضاً جنين فأرة في مثانة جرذ، وجنيناً في طحاله، وآخر في كليته، وكان ذلك في مطلع الستينيات حين كانت فكرة حمل الذكور ضرباً من الوهم والتخريفات، ومع ذلك وصل كيربي إلى نتائج مفيدة، فقد نما الجنين في مثانة الجرذ ١٢ يوماً، أي نصف مدة حمل الفأر.

أمومة الرجال

إن أمومة الرجال لا تعتمد، بشكل أساسي، على التجارب التي أجريت على الحيوانات على أهميتها، ولكنها تستند إلى بعض حالات الحمل الغريبة التي شهدتها النساء، ووفقاً للمعلومات الطبية المتوافرة، فهنالك أربع وعشرون حالة للنساء حملن على الرغم من استئصال أرحامهن، وأن امرأة واحدة منهن وضعت بصورة طبيعية، فقد دلت حالات أخرى على أن إمكان الحمل خارج الرحم أمر ممكن، كما حدث مع النيوزيلندية



حمل الرجل هل يضع نهاية لمعاناة المرأة أم أن المرأة سترفض ذلك؟

مرجريت، ثم إن هناك حالات النساء اللواتي يملكن رحماً سليماً إلا أنهن حملن خارجه، وقد سجلت الإحصاءات أكثر من ألف حالة من هذا النوع، إذ تم الحمل في أحشاء البطن، ونما الجنين طبيعياً، كذلك دلت الإحصاءات على أن ٩٪ من هذه الحالات انتهت بولادة طبيعية وأطفال سالمين.

ويعترف الأطباء أن هذا النوع من الحمل خطير تصل نسبة الوفاة فيه إلى ٧٪، كما يعترفون بأن الجزء الأكبر من الخطر يكمن في أن تعرف مثل هذا الحمل لا يتم إلا حين تصل المرأة إلى غرفة العمليات، ويقول البروفيسور جون موني (أستاذ طب الأطفال في جامعة جون هوبكنز الأمريكية): «إن المثير في الحالة النيوزيلاندية أن الدكتور بيتر جاكوبسون الذي فحص مارجريت مارتن قد توصل إلى الكشف عن الأعراض الصحية، وعرف ما يجري في أحشاء مريضته، وتحقق من أن حملها طبيعي؛ ومع ذلك لابد من الاعتراف بأن التحقق من حمل مارجريت مارتن لم يتم إلا في الأسبوع الثالث والعشرين، وكانت مارجريت تشعر بأنها حامل، بعد أن زاد حجم ثدييها، وأحست بحركة الجنين، غير أنها أحجمت عن الإفصاح عن مشاعرها مخافة أن يضحك الطبيب منها. أما بالنسبة إلى حمل الرجال فإن الأمر مختلف تماماً؛ لأنه لن يتم إلا على يد الأطباء بواسطة

عملية جراحية. ويرى الدكتور لاندروم شيتلس «أن الحمل في البطن لا يخلو من الخطر، ويقول: إن واحداً من زملائه قد حاول إجراء ولادة طبيعية لجنين نما في البطن، وإنه حين حاول فصل غشاء الجنين عن الأمعاء انفجر الدم، وتوفيت الأم فوراً». إن الرحم ليس جهازاً اعتباطياً، والحمل فيها من سنن الحياة التي لا نستطيع تجاوزها من غير خطر، كما يقول الدكتور روجر جورسكي، ففي فترة الولادة تتقلص عضلة الرحم، وتغلق الأوعية الدموية التي تأكلت بسبب الغشاء الجنيني، أما الأوعية الدموية التي تمد غشاء الجنين بالغذاء - حين يكون في البطن - فإنها لا تستطيع أن تغلق من تلقائها، وهذا ما يحدث النزيف الخطير خلال فصل الغشاء عن أحشاء الأم، ومثل هذا النزيف قد يودي بحياة الأم. صحيح أن الحمل في البطن ممكن، وأن في استطاعة الرجال أن يشاطروا زوجاتهم عناء الحمل والأمومة في الضرورات القصوى، إلا أننا لا نستطيع أن نحدث انقلاباً في طبيعة الجنسين.

لهذا يضيف الدكتور شيتلس: «حين أكون أمام حالة حمل في البطن عليّ أن أعقد حبل المشيمة وأتركه في مكانه، إن الجسد كفيل بأن يمتصه. ولنتصور الآن أن زوجاً لم يرزق بطفل، وأن زوجته غير مؤهلة للحمل لأسباب صحية وجيهة، لنتصور أنها تعمل، وأنه عاطل عن العمل مثلاً، ولنفترض أنه يملك الشجاعة الكافية لأن يطالب بالأمومة، فما التجربة التي تنتظر أول رجل - أم؟ حملنا هذا السؤال إلى الدكتور سيسيل جاكوبسون، وتركناه يرسم لنا الطريقة كما يأتي: في البداية سيحاول الأطباء سحب العناصر اللازمة من الزوجين وإخصابها في الأنابيب، وخلال ٣٠ - ٥٠ ساعة سيمتلك الجنين خلاياه الأولى التي لن تزيد على ثماني خلايا. بعد ذلك سيقوم الطبيب بشق صغير جداً في بطن الزوج ليضع هذه الخلايا في التجويف الأسفل من البطن مقابل «الترب».. أو ما يعرف بغشاء الأمعاء الشحمي، فإن هذا الغشاء غني بالدم الذي سيساعد الخلايا على بناء غشائها الجيني، ويمدها بالغذاء. بذلك يشق الحمل طريقه إلى بطن الرجل. أما الطبيب فإنه سيكتفي بمراقبة الرجل الحامل كما يفعل مع المرأة، وسيمده ببعض الهرمونات الأنثوية من حين إلى آخر، وبعد تسعة أشهر سيضع الرجل طفله بعملية قيصرية.

هل يحتاج الرجل الحامل إلى هرمونات أنثوية؟

أما الهرمونات الأنثوية فإن الحاجة إليها غير ملحة، بل تعتمد على حالة الرجل الحامل، وكان الدكتور جون موني في أيار/مايو عام ١٩٩٤م قد حاضر أمام عدد من الباحثين عن حمل الرجال، واستمع إلى آرائهم، وكان الدكتور جورسكي حاضراً فعلق على مسألة الهرمونات بقوله: إن الحاجة إليها غير مؤكدة. أما إذا كانت هنالك من حاجة فإن علم الهرمونات قد تطور كثيراً، وحقن الرجل بالهرمونات الأنثوية أمر على غاية من السهولة.. إنني أعتقد أن هرمونات الرجل تؤهله للحمل. واعترف الدكتور شيتلس بذلك وقال: إن جسد الرجل مؤهل للتكيف مع ضيفه، وسيفرز هرموناته اللازمة لاستقباله. ويعتقد د. ريتشارد هاردينج (أستاذ علم الأجنة ورئيس مختبراتها في جامعة موناش الأسترالية) «أن الجنين كائن قادر على تدبير رأسه داخل أجسادنا» إنه كائن مستقل هرمونياً وغددياً. وتلاقي فكرة حمل الرجال استياء من بعض الأوساط الطبية والعلمية؛ فالدكتور جاري هادجن رائد علم أطفال الأنبوبة في الولايات المتحدة والمسؤول عن المركز الطبي للتكاثر في نورفولك يرى أن حمل الرجال اقتراح شاذ، بل إنه وحشي، إن حمل الرجل معادل للحمل خارج الرحم، أي إنه يهدد حياة الحامل سواء أكان رجلاً أم امرأة، وعلى كل رجل يرغب في الأمومة أن يعلم أنه يعرض حياته للخطر. كذلك يعتقد الدكتور جاك هالات (رئيس مختبرات كايزر الطبية في لوس أنجلوس) «أن الأطباء لن يستطيعوا تفادي أخطار النزيف في

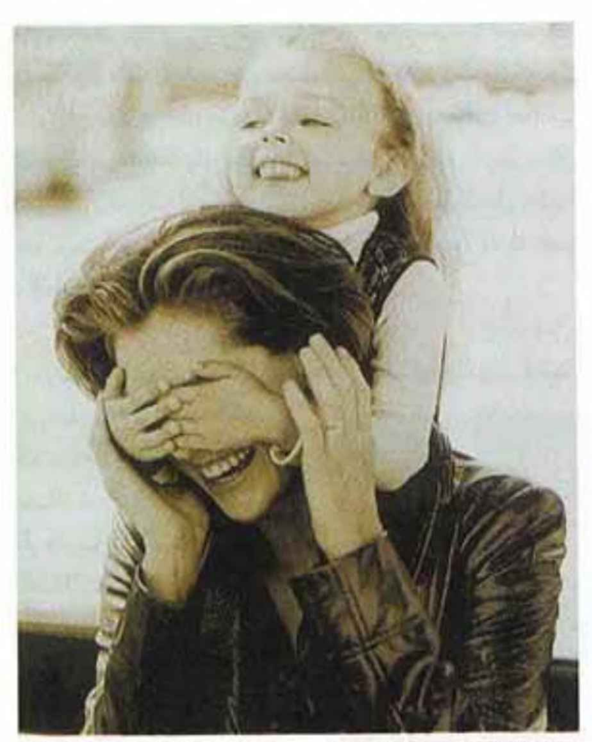
أثناء فترة الحمل، وهذا وحده كارثة، لماذا؟ لأن الطفل وكيس غشائه يزنان نحو عشرة كيلو جرامات، وقد يلتف هذا الكيس ويهتز ويشكل خطراً على الحياة». أما أنصار الفكرة فيعتقدون أن مخاطر الحمل في البطن مبالغ فيها، كما يقول الدكتور سيسيل جاكوبسون: «فحمل الرجل ليس بأخطر من حمل المرأة خارج الرحم، ولا شك في أن الحمل في البطن أكثر أمناً من الحمل في الأنابيب، ثم إن مراقبة الحمل تخفف من مخاطره». إن الدكتور جاكوبسون متفائل جداً، ويعتقد أنه قد يكون أول طبيب يشرف على أمومة الرجل، وربما كان لقارئ الإعلان جاك ميتكالف الحظ في أن يصبح أول رجل «حامل» في تاريخ البشرية.

حقوق الأجنة

كان جاكوبسون قد تلقى عدداً كبيراً من الأجوبة عن إعلانه في الصحيفة النيويوركية، وقد أبدى الرجال رغبتهم في الحمل والأمومة لأسباب مختلفة: أهمها أنهم يريدون طفلاً، وأن زوجاتهم غير قادرات على ذلك. «أما حين يجدُّ الجِدّ فإن المتطوعين سيزيدون، إنني أتعرض لمعارضة شديدة وهي معارضة أخلاقية اجتماعية، وليست طبية. إن مجلس شيوخ ولاية ميتشيغان يرعى التقنيات (التكنولوجيات) الحديثة لتوليد الرجال وحملهم. ويبدو أن هناك من يبدي سعادة قصوى لمرأى الرجال في ثياب الحمل الفضفاضة يتجولون في الحدائق العامة، أو في المخازن الكبرى، ويعدون العدة للحدث السعيد. والأكثر غرابة حقاً هو ما حدث في بريطانيا، فقد تقدم عدد من النواب بمشروع قانون من نوع لم تعرفه (برلمانات) العالم من قبل، يتركز في نقطة واحدة هي حماية حقوق الأجنّة. فما معنى الحديث عن حقوق الأجنة في عصر يتبارى فيه قادة الدول بالحديث عن حقوق الإنسان؟ أسباب هذا المشروع نبعت من الزوبعة التي تحاصر تجارب البويضات الملقحة، والغموض الذي يحيط بهذه التجارب على الرغم من وجود لجنة تضم عدداً من رجال الدين والفلاسفة والمفكرين والأطباء تحاول الإجابة عن سؤال كبير: ما الموقف القانوني والأخلاقي من البويضات الملقحة، التي تُحفظ مُجمدة؟ هل يجوز استخدام هذه البويضات في إجراء البحوث، أم تطرح جانباً إذ لم تكن هناك حاجة إليها؟

إن هذا السؤال ينبع من خطورة التجارب الجارية الآن، إذ تؤخذ بويضة أو أكثر من الزوجة ثم تلقح خارج الرحم بنطفة من الزوج، وتحفظ في ظروف مناسبة لإجراء التجارب عليها، أو إيداعها في أحد بنوك «الأجنة المجمدة».

لقد توصلت اللجنة البريطانية في تقريرها إلى قرار حاسم هو



إذا كان لابد من الحمل خارج الرحم.. فلماذا لا يتم ذلك في بطن الأم؟

«من الممكن إجراء البحوث على الأجنة في المراحل الأولى من حياتها فقط، أي خلال الأربعة عشر يوماً التي تعقب الإخصاب خارج الرحم، وبعد انقضاء هذه المدة لا يجوز إجراء التجارب مهما كانت الأهداف». وفي فرنسا برزت مشكلة قانونية شائكة ومعقدة عندما تقدمت سيدة في الثالثة والعشرين من عمرها توفي زوجها قبل سنتين تطلب السماح باستعادة نطفة مجمدة لزوجها كان قد تركها في بنوك طبية خاصة لاستخدامها في أغراض البحث. طالبت الزوجة بهذه الوديعة لكي تحمل عن طريقها وتأتي بوارث شرعي يحقق ما لم يحققه زواجهما الذي أطاح به الموت. وكان من الطبيعي أن تثير هذه القضية حيرة القضاء، فالقانون الفرنسي لا يعترف بأبوة طفل تمت ولادته بعد ٣٠٠ يوم من وفاة الأب، فماذا يفعل القضاء أمام هذه الحالة الفريدة؟. صدر الحكم برفض طلب الزوجة الشابة لأن القانون لا يسمح للنطفة المجمدة أن تكون ضرباً من الإرث يصح نقلها إلى وارث مهما بلغت شرعيته.

وفي الولايات المتحدة الأمريكية برزت مشكلة أخرى، فقد كان الزوج قد ترك نطفته «لتتجمد» وتلقح بويضة زوجته التي لا تنجب بالطريقة المألوفة بسبب عيب خلقي، ولتوضع البويضة

الملقحة بعد ذلك في رحم الزوجة، ولكن حادثاً مفاجئاً أفسد هذه الأجنة، إذ مات الزوجان في حادث سيارة، هنا برزت مشكلة هل يجوز أن تعد هذه البويضة الملقحة الحاملة في أعماقها إمكانات النمو لتصبح طفلاً يكون الوارث الشرعي للزوجين؟ وهل يمكن نقلها إلى رحم امرأة أخرى تُستأجر لهذه الغاية، ليكتمل داخلها نمو «مشروع» الطفل المكتمل في البويضة الملقحة، القابلة للنمو والتطور؟.

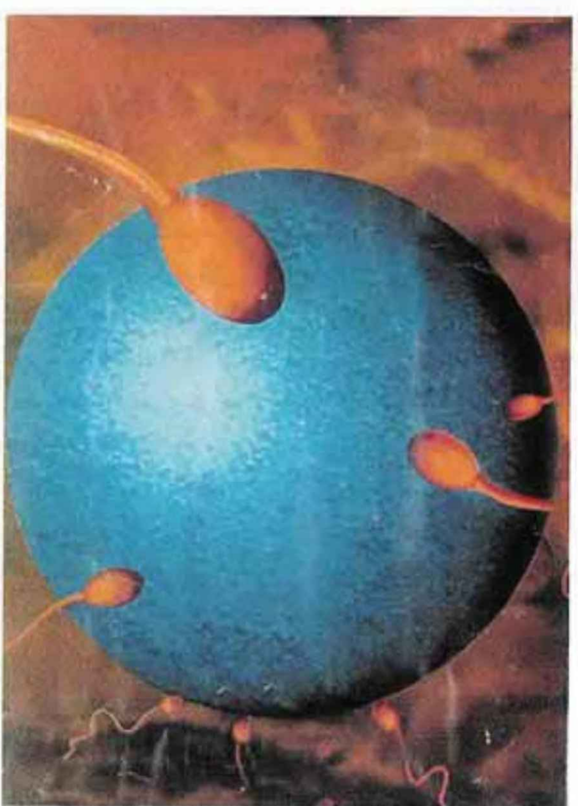
لكن هذه القضية لم تحسم.....

وبسبب خطورة القضايا القانونية والأخلاقية والدينية الناتجة من تطور الأساليب الطبية الحديثة قرر الرئيس الفرنسي جاك شيراك تشكيل «اللجنة الوطنية للأخلاق» للبت في المشكلات التي يطرحها تطور العلم بصفة عامة، والطب بصفة خاصة، وعلى هذه اللجنة تقديم رأيها في النتائج الأخلاقية الجديدة التي يصفها بعض العلماء بأنها «انفجار ذري» من نوع لم يسبق له مثيل، أو إعصار يجتاح عملية الإنجاب في عالم البشر والحيوانات منذ أقدم العصور.

ولعل الكلمة التي ألقاها الرئيس الفرنسي في افتتاح ندوة علمية لبحث هذه القضايا، تُجسد - بعمق - ما يجري الآن إذ قال: «إن المشكلات التي تطرحها الثورة البيولوجية ينبغي ألا تترك لتقدير الباحثين وحدهم، ولاختباراتهم الحرة، كما ينبغي ألا تخضع لضغوط الجماعات التي تحركها دوافع تجارية».. ويضيف شيراك: عندما نسيطر على النسل والإنجاب، ونسيطر على الصفات الوراثية للبشر يتغير قانون الحياة شيئاً بعد شيء، إن الإنسانية تجدد نفسها اليوم أمام إعصار فريد، يحتم عليها أن تختار بنفسها قواعد قضية لم يسبق لها مثيل، وهي حق الإنسان في أن يولد!».

ظواهر الأمومة الخطيرة

وفي أول لقاء علمي عقد مؤخراً في لوزان بسويسرا، وضم عشرات العلماء الاختصاصيين في مجالات علوم: النفس والاجتماع، والوراثة، ووظائف الأعضاء (الفسيولوجيا)، طرحت «الظواهر المدهشة والخطيرة» التي بدأت تجتاح المجتمعات الإنسانية وتهدد بتغيير جذري في نشأة الحياة، وكان الدكتور رشدي فكار حاضراً اللقاء، فطرح قضية «تسليع» طفل الأنابيب، ومن ثم «تسليع» الولادة والحياة في أساسها وتكوينها.. والغريب أن بعض العلماء أعلنوا أنه سيمسع قريباً عن أول رجل يتقدم طالباً «الحمل والإنجاب»، وأغلب الظن أن زوجته قد تكون تعبت، أو تقدمت في السن، وستدفعه دفعاً إلى خوض التجربة.. وحينها سينشغل العالم بمعرفة اسمه وجنسيته، ويبدو أن ذلك سيكون قريباً بعد العروض الكثيرة التي انهالت على العالم البريطاني الذي صرح بهذا النبأ، وبمجرد إعلانه عن توصله إلى هذا الاكتشاف العلمي المثير وهو «حمل الرجل».



ما الموقف القانوني والأخلاقي من البويضات الملقحة،التي تُحفظ مُجمدة؟

وهذا الأمر ربما يصير حقيقة على أساس تلك النظرية العلمية التي تؤكد حدوث حمل خارج الرحم وهو حمل غير طبيعي.

لكن ما هو الرحم؟ ومِمَّ يتكون؟

إن الرحم هو العضو الذي يتم فيه الحمل؛ لأنه هو الذي يستقبل البويضة المخصبة، ويكون بمنزلة عش لها حتى نهاية فترة الحمل، وهو يقع في الوسط بين المثانة من أمام، والشرج من الخلف.

وفي الأوقات العادية تكون مقاييسه كالآتي: الارتفاع من ٦ - ٨سم، العرض ٣ - ٤سم، والسمك ٢سم، وبالطبع تزداد هذه المقاييس باستمرار حتى يصل ارتفاع الرحم قبل الوضع مباشرة إلى ٣٣سم، وعندما نفحص الرحم نجد أنه مكون من: جسم وعنق بينهما اختناق يعرف باسم «البربخ»، وجسم الرحم يمثل

الثلثين العلويين منه، ويمكن وصفه بأنه مثلث قمته إلى أسفل حيث يمتد منه العنق، ومن الزاويتين للمثلث تمتد الأبواق، وجسم الرحم - عادة - مائل إلى الأمام وهو يعلو المثانة في اتجاه جدار البطن، وهو مع العنق يشكلان زاوية منفرجة إلى الأمام، وفي هذه الحالة يوصف بأنه منقلب إلى الأمام، وأحيانا يكون مائلاً إلى الخلف وهنا يوصف بأنه منقلب إلى الخلف، والوضع الطبيعي للرحم أن يكون متجهاً إلى الأمام حيث تكون قاعدة الرحم متجهة نحو الجدار الأمامي للبطن، وعند النساء (واحدة من كل خمس) نجد أن اتجاهه يكون معكوساً ومتجهاً نحو الشرق، وهذا الانعكاس له شهرة كاذبة في أنه يسبب العقم.

والرحم ذاته مكون من ألياف عضلية كثيرة ومتداخلة في كل اتجاه، وهو أجوف من الداخل ومبطن بغشاء مخاطي يطلق عليه اسم (أنديمتريوم) وهذا الغشاء يطرأ عليه كثير من التغيرات خلال فترة الدورة الشهرية، أما عنق الرحم فإنه يمتد من جسم الرحم خلال الاختناق الذي يعرف باسم البريخ، ويكون الجزء الخارجي منه أو الأسفل واضحاً للرؤية من خلال المنظار في أثناء الفحص النسائي، والأبواق هي ممران، طول كل منهما ما بين ١٠ - ١٥سم، والبوق يمتد من الرحم إلى المبيض، ويزداد قطر البوق بالتدريج من الداخل إلى الخارج حتى يكون طرفه على شكل قمع ينطبق على المبيض ليلتقي البويضة، وحافة القمع بها أهداب تساعد على تلقف البويضة من المبيض. والذي يجب أن نعرفه عن هذه الأبواق أنها ليست أنابيب جامدة، فجدرانها مكونة من عضلات يمكنها التقلص، وهي مبطنة من الداخل بأهداب قابلة للحركة.. هذا التكوين الدقيق يؤدي دوراً مهماً في حدوث الحمل؛ إذ تنتقل الخلية الأنثوية الملقحة في الظروف الطبيعية بواسطة البوق إلى الرحم، وتنغرس في غشائه المخاطي، فإذا كانت شروط تقدم الخلية الأنثوية مختلة فهي تنغرس خارج الرحم، ويحدث حمل لا رحمي (في غير مكانه) ويمكن أن يكون مكان الغرس (البوق) مثلاً، فيسمى هذا الحمل «الحمل البوقي» أو في «المبيض»، ويسمى «الحمل المبيضي» أو في «البريتون» ويسمى الحمل «البريتوني» وهكذا. وأكثر أنواع الحمل انتشاراً الحمل البوقي، فهو يشكل ٩٩٪ من جميع حالات الحمل اللارحمي، ولهذا فإن مفهوم الحمل اللارحمي ومفهوم الحمل البوقي يتطابقان عادة.

ومن حالات الحمل اللارحمي أيضاً ما يحدث منه في جوف البطن، وعلى الرغم من أن الحمل في جوف البطن والمبيض يحدثان نادراً، إلا أنهما يتطابقان مع صورة الحمل البوقي.. وعلى الرغم من أن القاعدة في الحمل اللارحمي تقول: إنه ينقطع في الأسبوع الخامس أو السادس، وفي صورة أقل في الشهر الثاني أو الثالث حيث تنفصل البويضة - الجنين - عن جدار البوق، فتموت، وتتشبع بالدم نتيجة الإجهاض، وتنهار بالتدرج، ويبدأ البوق في التقلص بشدة فيحدث نتيجة ذلك طرد بويضة الجنين المنفصلة من البوق إلى جوف البطن؛ ويصحب انفصال البويضة نزيف دموي، ويتجمع الدم حول البوق أو في جوفه، ويدخل الدم عند النزف الشديد في جوف البطن، ويسيل عادة في فراغ «دوجلاس» مكوناً ورماً دموياً، وفي حالات نادرة لاتموت بويضة الجنين المنفصلة، بل تنغرس في البطن، ويحدث حمل بطني. وهناك حالات معروفة استمر فيها الحمل إلى نهايته.. وفي حالات كهذه يقع الجنين المغطى بالأغشية بين الأعضاء الداخلية، وتنبت المشيمة في البوق أو البريتون أو الأعضاء الداخلية، ويكون سير الحمل شديداً وصعباً.

> إن الدين يرفض تماماً هذا التلاعب الخطير بالجنس البشري؛ لأن هذه المحاولة تخالف الطبيعة البشرية الإنسانية التي خلق الله تبارك وتعالى البشر عليها

وفي ضوء هذا التشريح المفصل والمدعم بالتجارب والسوابق الطبيعية، يعمل الباحثون الاختصاصيون على «تظهير» الصورة الجديدة لأمومة المستقبل في بطن الرجل، ليصبح مزدوج الشخصية في عملية الإنجاب، إذ سيكون هو الأب والأم في وقت واحد.

إجازة وضع بأجر للأب

لقد كشفت صحيفة «صنداي تليجراف» البريطانية أن توني بلير (رئيس وزراء بريطانيا) قرر منح الآباء - الأمهات الجدد إجازات مدفوعة الأجر؛ وذلك في الوقت الذي تسمح فيه القوانين الأوربية بـ ١٣ أسبوعاً من الإجازات دون أجر لكل (أم) لرعاية أطفالها على مدى السنوات الخمس الأولى من عمر الطفل، وعلى الرغم من تأييد أغلبية البريطانيين لفكرة منح الآباء الجدد إجازة أيضاً لرعاية أطفالهم، إلا أنهم رفضوا بشدة أن يمتد هذا الحق إلى الآباء الجدد من الحكوميين، فقد أكد أغلب المشاركين في استطلاع للرأي العام أن إدارة دفة الحكم يجب أن تأتي في المرتبة الأولى لديهم.

في الوقت نفسه طالب الرأي العام السويدي بزيادة الإجازات

المدفوعة الأجر للآباء الجدد؛ وذلك لمواجهة الانخفاض القياسي في عدد المواليد. فإلى أين يأخذنا جنون الطب الذي تجاوز كل حدود العقل؟! ولماذا فكر العلماء في وضع الجنين في بطن الرجل؟

وإذا كان لابد من الحمل خارج الرحم.. فلماذا لا يتم ذلك في بطن الأم - مثلا - إذا كان رحمها به أسباب طبية تمنع طرائق الحمل الطبيعية؟

إن المولى عز وجل خلق كل شيء بحساب دقيق جداً، والعبث في أطوار الخلق أمر غير محمود؛ لأنه قد ينتج كائنات عجيبة وغريبة، فالله أحسن خلق كل شيء. *الذي أحسن كل شيء خلقه*. السجدة:٧، وقدر كل شيء: *إنا كل شيء خلقناه بقدر*. القمر:٤٩، ومن أصدق من الله قولاً وأحكم تصويراً؟!! ونحمد الله أن أغلب أطبائنا العرب أتقياء يراعون الله، ولا يوجد عندهم مثل هذه الشطحات الشيطانية.

ألم يفكر علماء الغرب وعلماء أمريكا في الأخطار النفسية التي يتوقعها الطب النفسي عندما يخرج إلى الحياة طفل لا أم له؟.

إن هذه العملية ستقودنا إلى أن نتخلى نهائيا عن دور الأب ودور الأم، ومن ثم نتخلى نهائياً عن تكون أسرة طبيعية سوية.. ثم يقودنا ذلك إلى أن تكون هناك مصانع لتصنيع أطفال، ورجال يستأجرون لاحتواء الطفل بعد أن كان النساء هن اللاتي يستأجرن، وسوف يبحث العلم إمكان زرع الأجنة في أحشاء الخنازير أو داخل أجهزة معينة بعد ذلك!!.

إلا أن هذا لن يستمر لأنه ضد فطرة الإنسان وضد احتياجاته الطبيعية والنفسية والروحية.. ولن يقف الأمر عند هذا الحد، ولكن إذا اختفت العلاقات الإنسانية التي تتصف في بدايتها من خلال علاقة طفل بأم أو أب ثم أشقاء، فستنمو النزعات العدوانية بسبب الفردية والأنانية، وسيقتل إنسان إنساناً آخر لأسباب بسيطة، ثم لن يكون هناك لوم عليه؛ لأن هذا سيكون القانون الجديد الذي يحكم علاقات الناس بعضهم ببعض، كالغابة تماما حيث لا يوجد قانون يعاقب القاتل، وستضيع الحدود الفاصلة بين الرجل والمرأة لتصبح العلاقة قائمة بين الحيوانات.

إذن مثل هذه التجارب تريد أن ترتد بالإنسان إلى المستوى الحيواني في علاقة الرجل بالمرأة، وعلاقة أفراد المجتمع بعضهم ببعض.. وستتراجع الملامح الذكرية المميزة للرجل، والملامح الأنثوية المميزة للمرأة، على المستوى النفسي والعضوي والسلوكي والفكري، وربما يؤدي هذا في النهاية إلى انقراض البشرية، ولكن هذا لن يحدث؛ لأننا لا نملك لسنة الله تبديلاً أو تحويلاً.

الدين يرفض ضياع الزوجين

إن الأمر ليس مجرد مكان ينمو فيه الجنين فقط، ولكن هو تأهيل نفسي، وهرموني وكيماوي، وغذائي.. إلى آخر هذه السلسلة التي تتمتع بها المرأة، ولا توجد عند الرجل، وأي محاولة لقلبها إنما تعد جريمة لا تغتفر! وإذا فرضنا جدلاً أنهم سوف يستطيعون إيجاد مكان ينمو فيه الطفل داخل بطن الرجل بدلاً من المرأة.. أي إنهم استطاعوا حل المشكلة جسدياً، فماذا عن العلاقة النفسية التي أهل الله المرأة لها، التي تبدأ مع الطفل منذ أن يصبح جنيناً؟.. لقد أثبتت الأبحاث أن الطفل يسمع صوت أمه وهو جنين، ويتفاعل مع تفاعلاتها، ويمكن أن يتأثر نفسياً فيما بعد، وهو كبير، بما يحدث خلال الحمل، هذه العلاقة غير المرئية لا يمكن تأهيل الرجل لها بكل الأدوية والهرمونات؛ لأنها من صنع الخالق، سبحانه وتعالى!! ولا ينبغي للعلماء والأطباء أن يعبثوا بالإنسان الذي كرمه الله، وقال عنه في محكم آيات كتابه: *ولقد كرمنا بني آدم*. الإسراء:٧٠. لمجرد إحداث ضجة إعلامية لن تفيد أحداً سوى الشهرة لمن يقوم بها، وترديد اسمه على الألسنة، فليبحثوا عن موضوعات أخرى يفيدون بها البشرية.

إن الدين يرفض تماماً هذا التلاعب الخطير بالجنس البشري؛ لأن هذه المحاولة تخالف الطبيعة البشرية الإنسانية التي خلق الله تبارك وتعالى البشر عليها، فهو وحده هو الخالق، مدبر الأمر كله، كما جاء في القرآن الكريم: *وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى*. النجم:٤٥. ووضع في كل نوع ما يوافق طبيعته وتكوينه وهيأه لأداء وظيفته في الحياة، فطبيعة الرجل هي وضع بذرة الجنين، وأما طبيعة المرأة الأنثى فهي الحمل والولادة والرضاعة، فإن أي محاولة لتغيير وظيفة الرجل والمرأة والعبث بها، عمل مرفوض أساساً من الناحية الإسلامية شكلاً وموضوعاً لمخالفته لنص الله في خلقه، فهو سبحانه: *الذي خلق فسوى والذي قدر فهدى*. الأعلى: ٢-٣. *وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى*. النجم:٤٥.

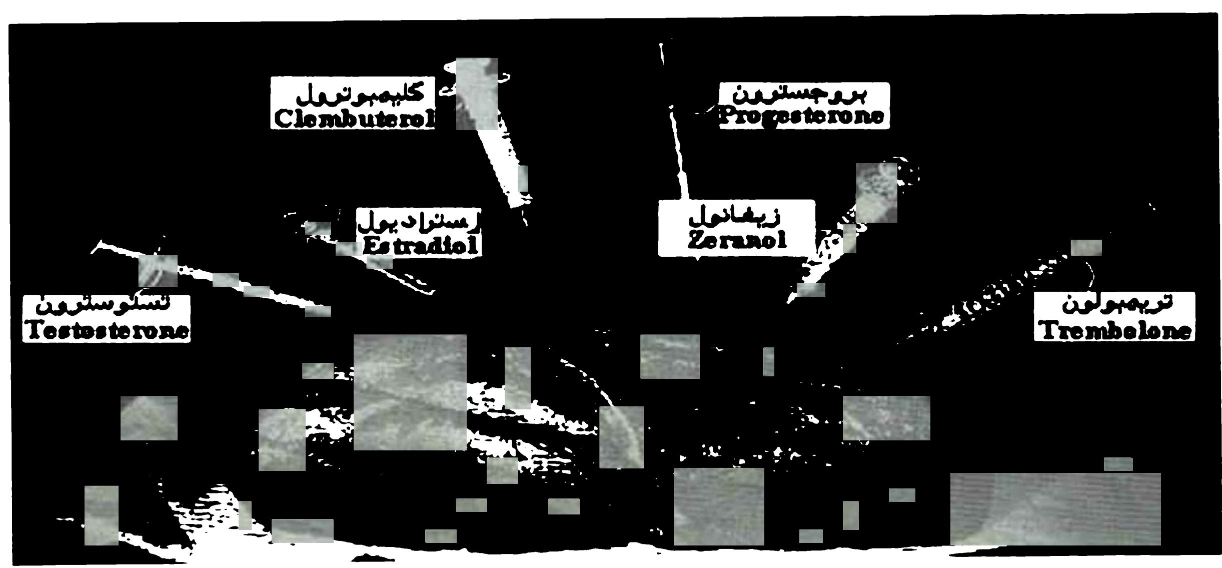
المراجع

1 - Early P Regnancy by: Exalto, Rolland, Eskes & Voogs.
2- M edical Embryology by: Langman.
3- The Developing Human by: Moore.
4- Hand Book of Obstetrics & Gynecology By. Benson.
5- Sciarra: Gynecology And Obstetrics. Volums. 1,2, 3,4,5. And 6.
6- Principles Of Gynaecology: By. Jeffcoate.
7- Williams Obstetrics: Pritchand. Macdn Nald & Gant.
8- Ultrasound In Obstetrics And Gynecology By. Athey & Hadlock.
9- The Evolution Of Life By; John And Mody.
10- A colour Satlas Of Life Perore Pirth By: England.

إنهم يعبثون بغذائنا!

يونس وهبي
تطوان. المغرب

إننا نعيش في عالم أصبحت فيه حياة الإنسان وصحته تأتيان في المرتبة الثانية أو الثالثة بعد المصالح، بدعوى التقدم الذي باسمه تتلوث بيئتنا بما فيها من حيوانات وتربة وهواء وأنهار ومحيطات ونبات.



المواد الأكثر استعمالاً لحقن الحيوانات لتسمينها

فإذا كان لبن الجاموسة الماليزية التي ترعى في الخلاء يحتوي على مادة مشعة، فما بالنا في حالة الدجاج الذي تربى في حظائر صناعية، ولم ير الضوء إطلاقاً وتغذى بالمواد العضوية المكررة، وكيف تكون حالة اللحوم الحمراء التي تحقن بالهرمونات، أو النباتات التي تنمو تحت الأمطار الحمضية والتربة الموبوءة بالكيماويات؟ ولعلنا نلقي الضوء على بعض مظاهر التلوث الذي يصيب غذاءنا.

التسمين بالهرمونات

إن في حقن الماشية بمزيج من الهرمونات لتسمينها تأثيراً سلبياً في صحة المستهلكين، وعلى الرغم من منعه فإن بعض المربين مازالوا يناولونه لقطعانهم. ويعود جدل استعمال الهرمونات إلى عام ١٩٧٦م عندما لوحظ على بعض الشباب في إيطاليا تحولات هرمونية جنسية، كبروز غدد ثديية عند الذكور بسبب تعاطيهم للأكلات المعالجة بهرمونات؛ فأصدر مجلس السوق الأوربية

المشتركة في عام ١٩٨٩م قراراً يمنع استخدام أي نوع من الهرمونات الصناعية منها والطبيعية لتربية الحيوانات، وقد فتح هذا الإجراء باباً واسعاً في وجه مافيا السوق السوداء التي طرحت في أسواق الهرمونات وتسويقها الملايين من الدولارات؛ إذ إن مربي الماشية الذين يحقنون قطعانهم بهذه المواد يزيد مردود أرباحهم على ٢٠٪ حيث يحقنون ماشيتهم في أماكن تخفى على المراقبين البيطريين.

ومن بين هذه الهرمونات: التستوستيرون Testostérone – بروجسترون Progestérone -إيستراديول Estradiol التي توجد بشكل طبيعي، والتي يمكن تصنيعها كذلك، أما



بروتين Prion المسبب لمرض جنون البقر

الهرمونات الصناعية فنجد زيرانول - Zeranol تريمبولون Trembolone الشبيهة بالطبيعية إلا أنها أكثر قوة وتأثيراً، وحاليا تستعمل مركبات Beta-agonistas، هذه المجموعة ليست هرمونات في حد ذاتها بل مركبات مخبرية تحاكي وظيفة الأدرينالين في بعض الخلايا، ففي العضلات تثير صناعة البروتينات من جهة، وتقلص من الشحم من جهة أخرى، فنجد كليمبوتيرول Clembuterol الذي يستخدم دواء في الطب البيطري لعلاج حالات التنفس عند الماشية، وتيسير ولادة البقر والشياه، يستعمل أيضاً لأغراض أخرى كتسمين قطعان الماشية والدواجن بسرعة، كما نجد كذلك مادتي Salbutamol وTerbulatin، اللتين تعطيان للماشية خاصة في الأسابيع الخمسة الأخيرة قبل الولادة مخلوطتين مع العلف أو الماء، فتؤثران في الغدة الدرقية للحيوان حيث تحبسان الماء في العضلات وتضخمانها فيتقلص الشحم في الجسم. وتنخفض الدهون تحت الجلد إلى ٤٥٪، وتنخفض دهون ما بين العضلات إلى ٥٠٪ فيزداد بذلك وزن الحيوان ٢٠٪ على وزنه الأصلي، فيفقد اللحم لونه الأحمر فيصبح وردياً، كما يصبح أكثر متانة وأقل مذاقاً، فالشحم هو الذي يعطي طعما للحم. أما البروتين النقي فيصبح عديم المذاق، وعند قليها يسيل منها كثير من الماء فتنكشف الخدعة. كما ضبطت منظمة المستهلكين المنتفعين استخدام المستقلبات البنائية في أكثر من ١١٪ من رؤوس الحيوانات. وبما أن هناك صعوبة في تطويق الوضع، تبقى الحالة خطيرة جداً، فتعطى هذه المواد عندما يزن الحيوان ٧٥كلغ، ويذبح عند وزن ٤٠٠كلغ، ولا يمكن إدراك الغش إلا عند ملاحظة قلب الحيوان حيث يكون صغيراً مقارنة بباقي الجسم. فمادة Clembuterol لا تؤثر في عضلة القلب إلا أن المستهلك لا يفطن إلى ذلك فيخلط بينها وبين شرائح لحم سليمة.

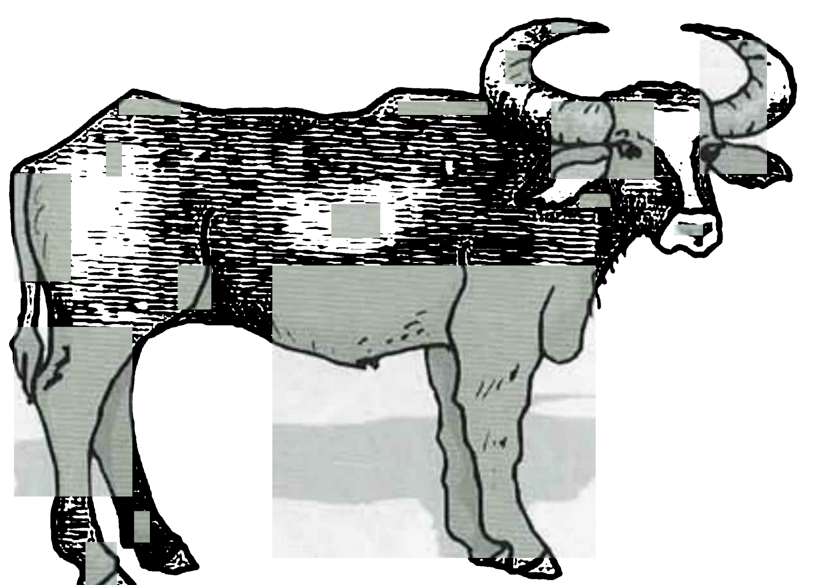
والتسمين الصناعي للماشية لا يؤثر في قيمة اللحم وطراوته فقط، بل في كثير من الأحيان يؤثر سلباً في صحة المستهلك حيث يسبب له رعشات، وخفقاناً وتسرعاً في القلب، وتعرقاً، وأوجاعاً في الرأس، ودواراً مدة طويلة وتسمماً. وعلى الرغم من ذلك فإن بعض الهرمونات المحظورة في أوربا يسمح باستعمالها في الولايات المتحدة، ونيوزيلندا، وأستراليا، مما ينتج منه مواقف ومشادات تجارية، فالاتحاد الأوربي منع منذ عشر سنوات استيراد اللحوم المعالجة بالهرمونات. ويكلف هذا الحظر الولايات المتحدة الأمريكية خسارة تفوق ١٢٠ مليون دولار كما أشارت إلى ذلك بعض التقارير،

كما أن دولاً أخرى ذات مصالح مشتركة مع الولايات المتحدة الأمريكية تنتقد الموقف الصارم للاتحاد الأوربي معللة ذلك بأنه لا توجد أدلة تثبت إصابة المستهلك بأضرار نتيجة الهرمونات إذا تم استعمالها تحت رقابة المختصين!!

مرض جنون البقر

انطلقت صفارات الإنذار فجأة، معلنة عن مرض مجهول تقريباً لا يكاد يذكر في دروس أقسام الأعصاب في كليات الطب إلا في سطور معدودة، حالاته لا تصيب إلا واحداً من مليون ونصف المليون من السكان، أصبح اليوم أكثر دلالة على حتمية مصير المصاب به، كما أصبح أكثر الكلمات رعباً في القاموس الطبي عند المجتمع المتحضر والمستهلك. فقبل مرور عشر سنوات سيصبح مرض التهاب الدماغ الإسفنجي CJD: Creutzfeldt-Jakob Disease وباءً يشق طريقه إلى كل الفئات في المجتمعات الراقية والباحثة عن الراحة والعيش الرغد، مثله مثل مرض الإيدز، ومرض الاحتشاء ومرض فيروس إيبولا Ebola، بل إن الفئات التي تتعرض له وتتضرر هي المجتمع بأكمله. لقد أصبح هذا المرض مشكلة عامة، وموضوعاً للحديث، ومصدراً للخوف عند العامة والخاصة على السواء، وأصبح قضية لها آثارها في المجتمع العالمي من جميع النواحي الاجتماعية منها والصحية والاقتصادية.

ومنذ ٧٥ سنة اكتشفت حالة إصابة دماغ في فصيصه الأمامي محدثة اضطرابات غير قابلة للرد، تفضي إلى الخبل والجنون ثم الموت. وبعد ثلاثين سنة عرف سر الإصابة البطيئة. فالمرض يظل عدة سنين قبل أن يتفشى ويطفو، وبعد ما تظهر أعراضه يموت المصاب بعد فترة تراوح بين ستة أشهر وسنتين. وقد استطاع الباحثون تعرف مسبب المرض، وهو جزيء غير عادي أصله نوع من البروتين Prion الذي يتنسخ تلقائياً ويدير تكوين نفسه، وهذا ما يعلل استحالة مهاجمة أصل المرض؛ فإذا كانت الفيروسات والبكتريا شكلاً من أشكال الكائنات البدائية التي استطاع العلماء أن يعزلوها، ومن ثم حاولوا القضاء عليها، فإن البروتين يكون في حد ذاته نواة الحياة، وهذا يعني أننا إذا أردنا أن نقضي عليه فكأننا سنقضي على الحياة نفسها.

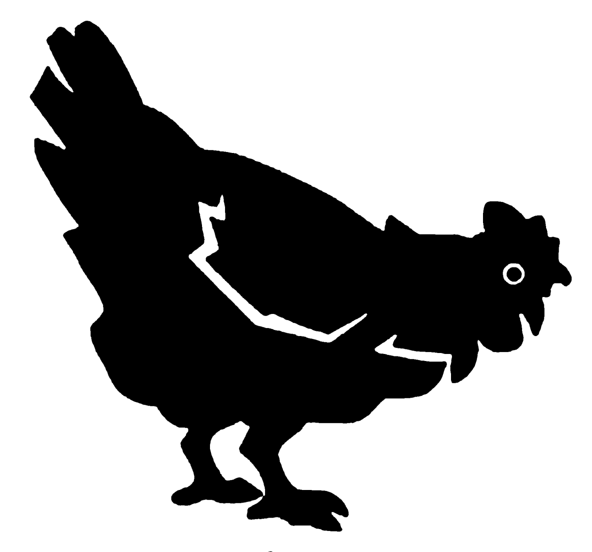


جنون البقر يصيب الإنسان بالتهاب الدماغ الإسفنجي

وهناك مرض آخر شبيه بالسابق، إنه مرض الكورو Kuru الذي وجد عند السكان الأصليين للمحيط الهادي، الذين يصابون به بسبب تناولهم أدمغة أعدائهم. وقد استطاع بعض العلماء أن يدركوا التشابه بين هذا المرض ومرض التهاب الدماغ المعروف Scrapie الذي يصيب الشياه والمعز كذلك، إلا أن العلماء لم يستطيعوا بتجاربهم حتى الآن أن يربطوا بين هذه الأمراض، أو إلى أي

مدى قد تنتقل العدوى بين الحظائر المختلفة، ومن هذه الأخيرة إلى الإنسان. أما مرض الكورو Kuru الذي انتقل إلى قبيلة Papuaبغينيا الجديدة فإنه يعدي عن طريق أكل أحشاء الإنسان ودماغه في بعض الطقوس الدينية، وعند أسر الأعداء في الحروب القبلية من القبائل الأخرى.

في البداية لم يثر هذا الموضوع اهتمام العامة إلى أن تغيرت الأوضاع عندما أعلن بعض الخبراء عن إمكان انتقال مرض جنون البقر BSA: Bovine Spongiform EncephalopathY إلى الإنسان عند استهلاكه للحم ولاسيما الأحشاء. حيث اعترفت بريطانيا بعشرات الحالات التي بدت



مرض جنون الدجاج يسبب اختلال وظيفة العضلات وتشوه الجهاز العصبي

أعراضها الدماغية شبيهة بمرض التهاب الدماغ الإسفنجي (جنون البقر).

ومع أن كلا المرضين يصيب الدماغ فإن الاختلاف بينهما بيّن، فبينما يُحدث مرض CJD نوعاً من فقدان الذاكرة والخبل، فإن مرض BSE عند البقر يسبب ضيق القلب، واكتئاباً، وتغييراً في التصرفات. فالحيوانات المصابة تظهر عليها في البداية حالات عصبية وانطوائية ثم تصرفات عنيفة، فتحرك آذانها بكثرة، وتعجز عن التنسيق بين أطرافها الخلفية. إضافة إلى ذلك، فإن الأطباء يصرحون بوجود أمراض دماغية أخرى تصيب الإنسان، مثل مرضGerstman-Sreaussler وهو شكل من CJD، ومرض Alpers الذي يهاجم الأطفال، وفي كل الحالات يصبح دماغ المصاب شبيهاً بإسفنج دون أن يستطيع الطب فعل أي شيء.

وبقدر ما تزيد رقابة المسالخ تبتكر طرق جديدة لإخفاء النصب والاحتيال، ففي البداية كان الحيوان يوخز من ظهره، بعدها حُقن من وراء أذنيه، والآن يحقن في الظلف وتحت الذيل حتى لا يظهر أي أثر، كما تستعمل وسائل أخرى مثل مستقلبات نباتية تخلط مع الماء أو العلف، و(التقليعة) الأخيرة هي نوع من اللصيقات توضع على الجلد. وهناك خطر آخر يضاف إلى اللحم، هو استعمال المضادات الحيوية لتحاشي الأمراض، حيث تجمع حيوانات كثيرة في حظائر صغيرة تعيق تحركها، مما يجعلها عرضة للأمراض، وفي هذه الحالة يعطى لها كثير من المضادات الحيوية (وهو شيء مسموح به)، لكن هناك فترة قبل الذبح يحظر على الحيوانات تناول أي نوع من الدواء، وإذا لم تحترم هذه الفترة (بين الأسبوع والشهر) فإن المستهلك بدوره سيتجرع قسطاً لابأس به من هذه المواد. كذلك إذا مرض حيوان فإن المربي يخاف فقدانه، فينفخه بالأدوية لتحسين صحته ثم يذهب به مباشرة إلى المذبح، فتكون النتيجة وخيمة على المستهلك كذلك، هذه الحقيقة لا يمكن ضبطها بحيث يستحيل تحليل جميع دماء المواشي قبل ذبحها.

التلوث الكيماوي

مرض جنون الدجاج:

اهتزت الأوساط البلجيكية في الآونة الأخيرة على وقع فضائح الدجاج الملوث بالديوكسين الذي يعد من المواد الأكثر سمية التي صنعها الإنسان، فمقدار ١ على ألف مليون يشكل خطورة. وكما هو

الشأن في جميع المواد المضرة بصحة الإنسان، فقد وضعت منظمة الصحة العالمية عام ١٩٩٠م سقفًا لما قد يُسمح بتجرعه يوميًا من مادة الديوكسين وهو pg 10بيكوغرام في الكيلوغرام من وزن المستهلك (البيكوغرام يساوي ١ غرام مقسوم على ترليون أي ١٠-١٢)، كما صرح المصدر ذاته في شباط/ فبراير ١٩٧٧م بأنها مادة سرطانية من نوع ا، وتعرُض الإنسان لقدر معين منها يصيبه بالسرطان، وبعلل بالجلد شبيهة بالعد الشائع acne vulgaire، وهو مرض بثري شائع يصيب الوجه والجزء العلوي من جذع الجسم، ويرافق الحالات الحادة لهذا المرض تبقُّع و نُدبٌ، إذ يسبب اختلالاً في وظيفة العضلات، وعجزًا والتهابًا في الجسم، وتشوهًا خلقيًا وتفسخًا بالجهاز العصبي. لذا اختزل هذا القدر عام ١٩٩٨م بين١ pg و٤ بيكوغرام للكيلوغرام من وزن المستهلك يوميًا. وعادة يطلق اسم ديوكسينات جزافًا على (٢١٠) عشرة ومئتي مركب عضوي يحوي الكلور، وينقسم كيماويًا إلى مجموعتين: مجموعة فوران Polychlorodibenzofuranes: Furanes أو تختصر في PCDF ومجموعة الديوكسين: dioxines Polychlorodibenzoparadioxines المختصرة في PCDD.

ولقد تعايش الإنسان مع الديوكسين منذ آلاف السنين فقد تم العثور على رواسب تعود إلى أكثر من ٨٠٠٠ سنة، وكذا في مومياء الفراعنة، إضافة إلى وجودها في الغذاء والماء والتربة والهواء، فأصبحت مرحلة من مراحل السلسلة الغذائية، إضافة إلى وجودها في تربة الغابات أكثر من تربة الحقول و الحواضر نتيجة ذبول أوراق و أغصان



المواد النباتية تتعرض لأنواع كثيرة من الملوثات

الأشجار التي تنتج مادة الكلوروفينول chlorophénolsالمؤدية إلى الديوكسين. وفي الحاضر تضاعفت نسب هذه المواد نتيجة حرق الغابات، وتصاعد الدخان من المصانع، والمراكز الحرارية، وترميد وحرق القمامة المنزلية ونفايات المستشفيات، أو من جراء تبييض الورق بمادة الكلور، وفي صناعة الحديد، كما تعدّ مصانع مبيدات الآفات pesticidesسواء منها مبيدات الحشائش herbicidesأو مبيدات الفطر fongicidesمن أكثر مصادر الديوكسين. ويعود سبب الجدال حول الديوكسين إلى عام ١٩٧٦م في كارثة Sevesoعلى إثر انفجار مفاعل كيماوي لمبيدات الآفات بجنوب إيطاليا حيث تسرب كيلو غرام واحد من هذا المركب الذي كان يحتوي على ١٧٠ غرامًا من الديوكسين الأكثر خطورة، والآن وبعد مرور أكثر من عشرين سنة بدأت تظهر أمراض القلب عند سكان تلك المنطقة.

وتتكون أعلاف الدواجن من البروتينات الموجودة في بذور بعض الحبوب والنباتات (الصوجة- الكتان- السلجم- الذرة الصفراء...) ومن الطاقة الموجودة في السكريات والنشا، إضافة إلى الشحوم ١ إلى ٢٪ في العادة. إذ تستعمل شحوم الحيوانات

أكثر من شحوم النباتات لسهولة الحصول عليها، وتكلفتها البخسة، وإسهامها في النمو السريع للحيوانات على الرغم من المخاطر التي تشكلها، لكونها تفسد في الهواء مما يجعل الأعلاف غير قابلة للأكل، وللتمويه يلجأ المربون إلى الفيتامين E، إلا أن ثمن هذا الأخير غالٍ جداً مما يدفع الصناع إلى تعويضها بمادة BHT، وهي أحد مشتقات تولوين Toluene، وهو سائل عديم اللون يدخل في صناعة كثير من المستحضرات، كالمتفجرات ذات السرطانية الشديدة.

فأما الأطعمة فقد وضع الاتحاد الأوربي النسبة المسموح بها، وهي ٥ بيكوغرام من الديوكسين في الغرام الواحد من شحوم الحيوانات. إلا أن اللجنة الأوربية صرحت بأن الدجاج يحتوي على ١٤٠ ضعفاً من القدر المسموح به، بعد ذلك صرح وزير الصحة البلجيكي الجديد بأن النسبة التي عثر عليها هي ١٥٠٠ ضعف!! وإذا كان هذا صحيحاً، فهو يعني بأن غراماً من الشحم يحوي بين ٢٥ و ١٠٠ ضعف من الحد الأقصى المسموح به يومياً؛ لذا منع الاتحاد الأوربي والولايات المتحدة الأمريكية استيراد الدجاج و البيض ومواد مشتقة من ٤١٦ مزرعة مشتبه بها ببلجيكا، بعد ذلك شمل الحظر قطاع البقر والخنزير، وقد تتسع دائرة المنع قطاع الحيوانات الأخرى التي تغذت بالأعلاف المشكوك فيها. وانعكس اقتصادياً هذا المنع سلباً على المنتجات الغذائية التي تحرك أكثر من ٢٢,٧ مليار دولار سنوياً، ويخشى منتجو الدجاج خسارة ٧٥٠ مليون دولار، أما صناع الميونيز فإنهم يصدرون ما قيمته ١٠٠ مليون دولار، وأصحاب المثلجات يبيعون بـ ١٨٧,٥ مليون دولار.

مرض جنون البقر يسببه جزيء غير عادي أصله نوع من البروتين، وبما أن البروتين نواة الحياة، فإن محاولة القضاء على أصل المرض، تعني القضاء على الحياة نفسها

وقد سحبت المتاجر الكبرى أكثر من ٨٠٠ منتج تعدت نسبة البيض به ٢٪ كالحلويات والفطائر والنقانق والمقشدات... وعوضت بدفعات جديدة من البيض والدجاج مدعمة بشهادات الجودة تثبت خلوها من المادة الملعونة.

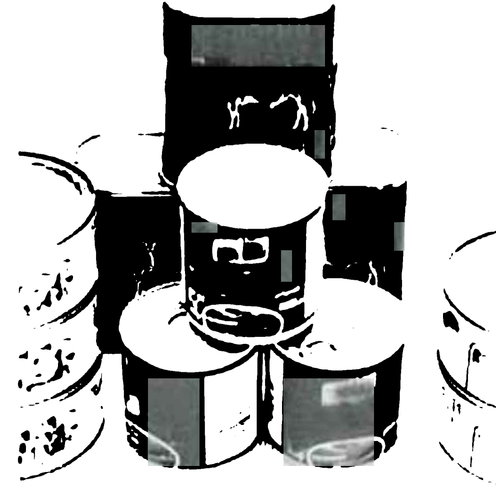
وفي الهواء فإن المرمدات أو معامل الترميد الأكثر تجهيزاً يطلق فقط ١٠٠ بيكوغرام من الديوكسين في المتر المكعب من الدخان، وبما أن نسبة خروج الدخان تصل إلى ١٥٠,٠٠٠ متر مكعب في الساعة فإن مقدار الديوكسين بالبيكوغرام هو ١٠٠×١٥٠,٠٠٠×٢٤= ٣٦٠,٠٠٠,٠٠٠ بيكوغرام في اليوم. و إذا تخيلنا أن واحداً من الألف من هذه المادة وجدت في صحن أكلنا، فإنه يمكن تسميم ٣٦٠,٠٠٠ شخص مدة ثلاثة أشهر. إضافة إلى ذلك فإن الديوكسين dioxines، والفوران furanes، ومادة PCBs تلتصق بسهولة بالغبار فتنتقل في الأجواء عبر الرياح إلى أماكن بعيدة، فتتسرب إلى رئتينا دون أن توقفه المرشحات (الأنف) فتصل إلى أسناخ الرئة، وتلتصق بالمخاط، ويحتاج الإنسان إلى سنة للتخلص من ذلك الغبار بعد أن تكون المادة السامة قد امتصت.

ولم تسلم الأسماك هي الأخرى (باستثناء المرباة في أحواض) من التلوث، فالبحار والمحيطات أصبحت ملوثة بالقطران والزيوت والمعادن الثقيلة مثل الرصاص والزئبق فأخذت الأسماك تمتص هذه المواد؛ لذا يجب التأكد من مصدر صيدها، كما أن أحسن طريقة لتحفيظها هي تجميدها مباشرة في أعالي البحار على درجة برودة ١٩٦ درجة مئوية تحت الصفر دون إضافة أي مواد أخرى.

وتتعرض المواد النباتية كذلك للتلوث، فهناك

عوامل يصعب التحكم بها من تربة ومطر وبذور، إذ تتعرض الخضر والبقول والفواكه للتلوث خاصة إذا كانت المزارع قريبة من الطرق السيارة - إذ تمتص مختلف الغازات المسمومة الناتجة من احتراق وقود السيارات - أو كانت تسقى بالمياه الحارة، أو كانت قرب مستنقعات صرف المياه، أو بجوار المناطق الصناعية. كما أن استعمال بعض المواد الكيماوية مثل مبيدات الآفات الزراعية Pesticides يشكل أخطاراً جسيمة على صحة المستهلك، لأن بإمكانها الدخول في السلاسل الغذائية الحيوية والتأثير في استقلاب العضويات، كما تستطيع إحداث خلل في التوازن البيئي بقتل بعض العضويات وترك عضويات أخرى؛ و عند رش هذه الآفات فإنها تُكوِّن على أوراق النبتة غشاءً رقيقاً غير قابل للذوبان إلا بعد فترة محددة ومضبوطة حسب نوعية المادة المستعملة، لكن المزارعين بخوفهم على المحاصيل من أحوال الطقس المفاجئة يقومون بجني الثمار والبقول والخضر قبل إتمام الفترة المحددة.

وقد كلف الاتحاد الأوربي بعض المنظمات غير الحكومية للقيام بدراسة عن الخضر والبقول الأكثر استهلاكاً وما تحتويه من النترات Nitrates والنتريت Nitrites، وهما مادتان تستعملان لمحاربة تسمم الطعام من بعض الجراثيم غير الهوائية، مثل: Clostridium Botulinum & Clostridium Parabotulinum التي تعيش عادة في التربة وتؤثر بشكل أو بآخر في الطعام، فكانت النتيجة أن الخضر والبقول الأكثر سلامة توجد بدول حوض البحر الأبيض المتوسط. وما نراه كذلك هو انتشار الأكلات السريعة، والوجبات الجاهزة في حياتنا تفادياً لضياع الوقت لتحضيرها، إلا أن هذه الأطعمة والمعلبات نجدها تحتوي كذلك على مواد كيماوية كالمواد المضافة والملونات... حتى يتسنى حفظها مدة أطول، كما أنها تحتوي أيضا على تركيزات عالية بنوع من أسوأ الدهون (الدهون المؤكسدة) إضافة إلى الكولسترول Cholestérol، وعند ازدياد كمية هذه المواد في مجرى الدم، فإنه يترسب على الشرايين بشكل غير طبيعي و يترافق مع هذا الترسب تصلب الشرايين Atherosclerosis والإصابة بأمراض القلب إضافة إلى البدانة المفرطة.


المعلبات من مسببات أمراض القلب والبدانة

المواد المضافة والحافظات الصناعية للطعام

منذ خمسة آلاف سنة قبل الميلاد، كانت المواد الغذائية تحفظ بالملح، والدخان، والخل أوالتوابل. وفي الوقت الراهن توجد أصناف من المواد المضافة، وهي مواد زيدت للأكلات لتحسين خاصيتها وحفظها، إضافة إلى مهام مشبوهة تمويهاً لجودة الطعام. وحسب القانون، يجب استعمال المواد المضافة حسب قياس معين ودقيق لتحفيظه أو تثبيته، أو مساعدة على تهيئته أو تخزينه أو نقله، دون المس بخصائص المادة الغذائية نفسها. وهكذا وجدت أصناف وأنواع كثيرة من المواد المضافة يرمز إليها بحرف E مسبوق بعدد:

- الملونات من E100 إلى E199 منها الطبيعية

أو الصناعية، وكثير من الجمعيات الاستهلاكية تستنكر استعمالها وتراها غير مفيدة.

ـ الحافظات: من E200 إلى E299 تحول وتؤخر التخمر، والتصدؤ والتعفن للمواد الغذائية، حيث يسمح باستعمال النترات والنتريت لصيانة اللحوم والنقانق لتحول دون الإصابة بالتسمم الوشيقي، وهو نوع من التسمم يسببه سم بعض الجراثيم والذي يصيب الجهاز العصبي بالشلل، إلا أن استعماله المفرط يسبب السرطان كذلك.

ـ مضادات الأكسدة من E300 إلى E321، وهي مجموعة من المركبات العضوية تضاف إلى بعض المنتجات الصناعية الغذائية، وذلك لإكسابها خاصية عدم التأكسد، ومع أن الفيتامين E و C يعدّان من مضادات الأكسدة الطبيعية، فإن استعمال مضادات أخرى صناعية أقل تكلفة مثل E320 إلى E321 يشكل بعض حالات التسمم.

ـ المكثفات والمثبتات: وهي أنواع كثيرة بين E322 و E499 وتستعمل هذه المواد لتعطي بعض المنتجات الخفيفة والسائلة نوعًا من التماسك أو للتمويه عند غياب عنصر مهم وأساسي لمنتج ما مثل حالة الزيت في الميونيز، أو الأغار Agar والجيلاتين Gelatinفي القشدة والحلوى المثلجة.

ـ المحلّيات: E421-E420 ومن E٩٥٠ إلى E960 غالبًا ما يستعمل السكرين Saccharin الذي يعدّ عامل تحلية لا يمتصه الجسم، ويستخدمه المصابون بداء السكري، وفي الأطعمة المنخفضة الوحدات الحرارية. ولقد ظهر بعض المخاوف حول استمرار انتشار السكرين الواسع لاحتمال احتوائه على مواد مولدة للسرطان.

وهناك سيكلامات Cyclametes وكان يعدّ عامل تحلية فعّالاً إلى أن اكتشف أنه يسبب السرطان، وقد حظر استعماله في الولايات المتحدة عام ١٩٦٩م، وكيفما كان الحال فإن كلتا المادتين يحظر على الأطفال تعاطيهما.

تعايش الإنسان مع الديوكسين منذ آلاف السنين، ولكن المشكلة تضاعفت نسبتها بسبب النشاطات الجائرة على البيئة

ـ مقويات الأذواق: E620 إلى E640 تزيد من نكهة الأطعمة وهي مادة غلوتامات Glutamate الأكثر استعمالاً. وإذا أضيفت إلى المأكولات الصناعية فهذا يعني أنها عديمة الطعم، وفي حالة رديئة.

أما ما تحدثه المواد المضافة (٦٢٠ إلى ٦٢٣) من خداع في الفم فإنه يسبب تسممًا؛ فالحساء، والشوربة الجافة التي تباع في الأكياس، واللحوم والأسماك شبه الجاهزة، والأكلات الخفيفة المالحة، والنقانق، أو الطعام المجمد المتخذ من العجين المقلي والمحشي بلحم أو سمك مفروم، تحتوي على هذه المادة، وإذا تعدى غرامًا منها في اليوم فإنها تسبب له مشكلات في الجهاز الهضمي، وخللا في الرؤية، ووهنًا، واحمرارًا، وتعرقًا. وتبقى المراقبة الإدارية والطبية الصارمة لتطبيق القوانين إزاء كثير من طرائق النصب والغش والتدليس، وكذا موقف المستهلك الانتقادي عند شرائه واختياره للبضاعة الجيدة، الطريقتين الأكثر نجاحًا لضمان غذاء صحي.

المراجع

1- ESTO NO SE COME!. CONOCER No 160 MAYO 1996.
2- LOS PECADOS DE LA CARNE. MUY INTERESANTE, No 180, MAYO 1996.
3- Vacas locas, otra venganza de Gaia. ANo/ CERO, Ano V, No 72.
4- Pero que estamos comiendo? Muy Interesante. No203. Abrikl 1998.
٥. عبر الإنترنيت: Vm. cfsan. fda. gov. صفحة FDA للولايات المتحدة الأمريكية عن أمن المواد الغذائية.
٦. عبر الإنترنيت: صفحة الديوكسين.

نجم من سماء الأندلس: الشاعر مؤمن بن سعيد

خالد عبدالكريم البكر
الرياض - السعودية

اقتفى الأندلسيون سنن إخوانهم المشارقة، وذلك فيما يتعلق بأنماط الإنتاج الثقافي، خلال القرون الأولى من التاريخ الإسلامي في الأندلس.
ويأتي الشعر في مقدمة الأشكال الثقافية السائدة، وقد ضرب فيه الأندلسيون بسهم وافر، وطرقوا أغراضه المختلفة، مؤكدين أن إنتاجهم أيضًا له بريقه وجاذبيته، وهو لا يقل جودة وروعة عن إنتاج الشعراء الفحول في المشرق الإسلامي.

وقد نجم في الأندلس عدد من الشعراء الذين استهواهم الخوض في أعراض الناس، ورميهم بالنقائص والمثالب، فيما يعرف بـ (الهجاء)، ولعل التركيبة الاجتماعية المتنافرة لسكان الأندلس، قد غذّت هذا اللون من الشعر، فضلاً عن دوافع المصلحة الشخصية المحض.

ولئن جاز تصنيف هذا الهجاء النابت في أرض الأندلس، أمكننا القول بأنه كان هجاء عابثًا، مشحونًا بالإقذاع والفحش، ولم يكن هجاء سياسيًا، وذلك لقلة الأحزاب السياسية(١).

أصله والرحيل إلى الشرق

ولقد تربّع مؤمن بن سعيد على قمة هذا الغرض من أغراض الشعر، خلال القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلاد، فكان ذا لسان حاد سلق به منافسيه وبعض أعلام عصره. وحسبك من ذلك ما وصفه به الشاعر المقدم ابن المعافى، حينما قيل له: لم لا تهجو مؤمن بن سعيد؟ فقال: لا أهجو من لو هجا النجوم ما اهتدى أحد بها(٢).

ينتمي مؤمن بن سعيد بن إبراهيم بن قيس بن محمد بن قيس (مولى عبدالرحمن بن معاوية) إلى بيت من بيوتات الموالي الأموية. إذ كان جده قيس مولىً للأمير الأموي عبدالرحمن (الداخل) بن معاوية(٣). ومن المعلوم أن موالي الأمويين في الأندلس، دعموا عبدالرحمن الداخل في مشروعه العظيم، وهو تشييد الإمارة الأموية سنة ١٣٨هـ/٧٥٥م، فحفظ لهم الأمويون هذه اليد الكريمة، وعرفوا لهم حقهم، واستخلصوا من أبنائهم صفوة الموظفين الإداريين والقادة العسكريين، فكانوا كالأوتاد للدولة الأموية.

غير أن ابن سعيد لم ينل شيئًا من تلك المزايا التي حظي بها كثيرون ممن ربطهم الولاء بالبيت الأموي، وإنما صرف عنايته إلى وجهة تتفق وميوله وما فطر عليه من دعابة ومشاكسة، فأنفق جُل وقته في حذق العربية، ودراسة آثار من سبقه من الشعراء، لكن ذلك لم يطفئ ظمأه، ولم يشف غليله، فاضطر إلى إنفاق شطر من ماله لتمويل رحلة أزمع القيام بها إلى المشرق الإسلامي لملاقاة شعراء العصر. وقد تحقق له ذلك بالفعل، فرحل إلى بغداد، ولقي بها أبا تمام، فاختص به، وروى عنه شعره(٤). ولعله لقي غيره من الشعراء في المشرق الإسلامي، وروى أشعارهم، إلا أن أبا تمام كان

أعظمهم أثراً في تكوينه، إلى درجة أن المتأدبين في الأندلس كانوا يقرؤون شعر أبي تمام على مؤمن بن سعيد، فيشرحه لهم، ويبيِّن مفرداته(٥).

عين على مجتمعه

حينما عاد الرجل إلى بلاده، انتصب للتدريس في جامع قرطبة، فانتظمت حوله حلقة علمية من طلاب الشعر والأدب، وكان معظمهم من الأحداث وصغار السن(٦). ومن المفارقة أن حلقة مؤمن بن سعيد كانت بجوار حلقة قاضي الجماعة بالأندلس، عمرو بن عبدالله، إذ كانت مجالس القضاء، حينئذ، تعقد في المسجد الجامع(٧)، وهذا ما أتاح لمؤمن بن سعيد أن يقترب، بصورة أكبر، من المجتمع الأندلسي، فاطَّلع على شيء من الممارسات الخاطئة التي تورط فيها بعض أعيان المجتمع الأندلسي، واتخذ منها مادة دسمة لسخريته الشعرية، ونقده اللاذع. فعلى سبيل المثال؛ كان حضوره قوياً في الخلاف الذي نشب بين القاضي عمرو بن عبدالله وخلفه القاضي سليمان بن أسود، وذلك عندما افتقد الأخير مبلغاً من المال يقدَّر بنحو عشرة آلاف دينار، كان مُسجلاً في ديوان القضاء، وهو ثلث أوصى بتفرقته تاجر قرطبي، يعرف بابن القصيبي.

وجود حلقة مؤمن بن سعيد إلى جوار حلقة قاضي الجماعة أتاح له كشف الممارسات الخاطئة في المجتمع الأندلسي

لكن أصابع الاتهام، لم تكن - بالطبع - موجهة إلى القاضي عمرو بن عبدالله، لفضله ونزاهته، وإنما كانت في واقع الأمر تشير إلى ابنه الأكبر أبي عمرو الذي كثرت فيه قالة السوء، ونسب إليه التدليس في ديوان القضاء على حين غفلة من أبيه(٨).

ولقد تفاعل مؤمن بن سعيد مع هذه الحادثة، وعبَّر عن شعور مجتمعه حيالها، فصاغ ذلك منظوماً، فقال(٩):

لعمري لقد أزرى بعمرو أبو عمرو
ومثلُ أبي عمرو بوالده يُزْري
وقد كان عمرو يستضاء بنوره
فأضحى أبو عمرو كُسوفاً على البدر
وما عُرِفتْ عن عمرو الندب سوءةٌ
سواها وهل تنجو العتاقُ من العثْرِ

بل ذهب الخشني(١٠) إلى أن هذه الأبيات التي قالها مؤمن بن سعيد، هي التي فجَّرت القضية. فقد لهج بها الناس، وتناقلتها الألسن، مما اضطر الأمير محمد بن عبدالرحمن (٢٣٨ - ٢٧٣هـ/ ٨٥٢ - ٨٨٦م إلى إعفاء قاضيه عمرو بن عبدالله من منصبه.

في مجتمع الكبار

ويستفاد مما سبق؛ أن مؤمن بن سعيد حقق لنفسه مكانة اجتماعية مرموقة قبل تلك الحادثة، مما جعل الناس يحتفون بشعره كثيراً، ويتلقفونه باهتمام بالغ، بل إن علية القوم وكبراء المجتمع الأندلسي، حرصوا على الاتصال بهذا الشاعر، وأمثاله من الشعراء، إما اتقاء لشره، وصيانة لأعراضهم من لسانه البذيء، وإما بغرض الاستفادة من شعره لمصلحتهم، فيستعملونه سلاحاً نافذاً في وجه خصومهم ومنافسيهم. وبطبيعة الحالة؛ فإن شاعرنا لم يكن أقل حرصاً على وصل أسبابه بالأمراء والحجاب والوزراء، وغيرهم من كبار موظفي الدولة؛ فكان يحتطب في حبالهم، ويغشى مجالسهم، ويستمنحهم فيمنحونه، ويسألهم فلا يمنعونه. وقد استطاع مؤمن بن سعيد أن يحظى بمنزلة خاصة لدى مسلمة ابن الأمير محمد بن عبدالرحمن، فانقطع إليه، واستكثر من مدحه(١١). وحينما أُسندت إلى مسلمة ولاية كورة شذونة، هنأه مؤمن بن سعيد بقصيدة، مطلعها:

تيهي شذونةُ واختالي على الكُورِ
وأبأي بمسلمة الفيَّاض وافتخري

كما انقطع مؤمن إلى عدد من الوزراء الذين كانوا يأنسون به، ويستظرفون نوادره، فكان يجالسهم

ويسامرهم، غير أنه يدقق كثيراً في خياراته، فهو يؤثر الأجواد المنفقين منهم، ويتجنب البخلاء المقترين، ولا غضاضة عليه في ذلك، فالأمر هنا كما قال بشار بن برد:

تسقط الطير حيث ينتثر الحبْ....
بُ وتُغشى منازل الكرماء

جنازة غريب!!

وحينما عوتب في مجانبته للوزير حامد بن محمد بن سعيد الزجالي - وكان موصوفاً بالبخل - أجاب مؤمن بشيء من السخرية والتهكم، فقال: «ذاك جنازة غريب، لا يصحبها من صحبها إلا لله»(١٢)

ولست أستطيع أن أكتم إعجابي بهذا النقد اللاذع لفئات من الناس احترفوا البخل، وشربوا كأس الشح حتى الثمالة، فأولى لهم.

وعلى أية حال؛ فقد نمت كلمة مؤمن بن سعيد إلى الوزير حامد، فحقدها واضطغنها عليه. وحدث أن جاء الشاعر ذات يوم إلى قصر الإمارة، فلما خرج الوزير حامد الزجالي من القصر إلى داره، كان مؤمن بن سعيد فيمن خرج لتشييعه، فالتفت إليه الوزير قائلاً، بروح ملؤها الغضب والعتب معاً: «أعظم الله أجرك أبا مروان، وكتب خطاك!»(١٣) كما يدعى لمُشيّع الموتى. ففطن مؤمن - وكان يُكنى بأبي مروان - إلى أن هناك من يحصي عليه زلاته، ويتتبع عثرات لسانه، لكنه لم يدرك عاقبة العبث بأعراض الناس، ولاسيما ذوي الأقدار الرفيعة منهم، إلا بعد فوات الأوان، كما سيجيء توضيحه فيما بعد.

ولقد وجدت بعض المصادر(١٤) في مثل هذه المواقف ما يسوّغ لها الحملة بقسوة على مؤمن بن سعيد، ففسرت تصرفاته باللؤم وسوء الطبع. وأظن - وليس كل الظن إثماً - أن الأمر بخلاف ذلك، فالرجل مفطور على الدعابة وحب المرح، فهو يجري على طبعه حينما يرسل كلماته المنظومة والمنثورة، التي لا تنقصها الطرافة والسخرية، وقد يصيب بها أحياناً ذوي الأحلام والنهى من رؤساء المجتمع الأندلسي، فيغضون عنه، ويحتملونها منه. فقد جرى له مواقف مشابهة مع القاضي عمرو بن عبدالله الذي وسع مؤمناً بحلمه وعفوه، وسماحة خُلقه(١٥).

ثم انظر إليه وقد جلس ذات يوم لإقراء شعر أبي تمام وشرحه، فقرأ عليه أحد المتعلمين قول أبي تمام:

أرضٌ خلعْتُ اللهْوَ خَلْعي خاتَمي
فيها وطلَّقْتُ السُّرورَ ثلاثا

ولما فرغ من قراءة البيت، قال: من سرور هذه أصلحك الله؟ فأجاب مؤمن - بسخريته المعتادة -: «هي امرأة حبيب، وقد رأيتها ببغداد»(١٦)!

فحل شعراء قرطبة

وتكاد هذه الروح الساخرة تشكل جزءاً مهماً من شخصية مؤمن بن سعيد، فلا تفارقه حتى في أعماله النقدية؛ فحينما تقدم عباس بن فرناس - وكان غريماً

> كان علية القوم حريصين على الاتصال به اتقاء لشره وصيانة لأعراضهم من لسانه البذيء، أو لاستخدامه سلاحًا ضد خصومهم

لمؤمن بن سعيد، وبينهما خصومة ومهاجاة - لمدح الأمير محمد بن عبد الرحمن. وأنشده أبياتاً منها قوله:

رأيت أمير المؤمنين محمداً
وفي وجهه بذر المحبة يثمر

وما إن قرع هذا البيت مسامع مؤمن بن سعيد، حتى فطن بحسه النقدي النافذ، إلى خللٍ في معناه، فلم يشأ أن يقدم ملاحظته برفق ولطف، وإنما نقده بمنتهى العنف، فقال مخاطباً عباس بن فرناس: «قبحاً لما ارتكبته، جعلت وجه الخليفة محرثاً يثمر فيه البذر»(١٧).

ولم يكن عباس بن فرناس هو الشاعر الوحيد، الذي تورط في مساجلات شعرية مع مؤمن بن سعيد، فقد كان صاحبنا يهاجي ثمانية عشر شاعراً فيعلوهم(١٨). وخلع عليه ابن حيان(١٩) لقب «فحل شعراء قرطبة»، أما الحجاري(٢٠) فأسماه «دعبل الأندلسي».

ولم يقف مؤمن عند حد المهاجاة؛ بل تجاوزها إلى التنابز بالألقاب، فقد نعت خصومه بألقاب التصقت بأسمائهم، وعرفوا بها بين الناس، كما فعل مع عبدالله ابن بكر الكلاعي، وكان مؤدبًا بالنحو، مبرزًا في الشعر، وقد نعته مؤمن بـ «النذل»(٢١) فاشتهر بهذا اللقب الكريه بين الناس.

تلون مع الأحداث

لقد كان مؤمن يتكسب بشعره، كغيره من الشعراء، لكنه ـ فيما يبدو ـ كان يتلوّن مع تلون الأحداث وتقلبها السريع. فقد حقق نجاحاً مذهلاً في التماس الحظوة لدى هاشم بن عبدالعزيز (وزير الأمير محمد بن عبدالرحمن) إلا أنه لم يحفظ عهده، ولم يرع حقه، بعد أن وقع هاشم في أسر العدو، إثر حملة عسكرية قادها لتأديب بعض الثوار من زعماء المولدين؛ فسرعان ما تكيّف مؤمن مع الظروف الجديدة، فمضى يحتطب في حبال أعداء هاشم، ويُظهر الشماتة بأسره، فمن ذلك قوله(٢٢):

تَصَبَّحَ أبا حفصٍ على أسرِ هاشمٍ
ثلاثُ زجاجاتٍ وخمسُ رواطمِ

وبُحْ بالذي قد كنتَ تُخفيه خفيةً
فقد قطعَ الرحمنُ دولةَ هاشمِ

ولم يشأ مؤمن أن يقطع على نفسه خط الرجعة، فأنشأ في السرّ قصيدة على وزن قصيدته الأولى، جاء فيها:

متى تَرْجِعِ الأيامُ دولةَ هاشمٍ
ويشملُها نورُ العلا والمكارمِ

فقدَّر الرجل في نفسه أن يستعمل قصيدته الثانية متى دعت الحاجة إليها، غير أن تقديراته باءت بالفشل الذريع، فقد خلص هاشم من أسره، وعاد إلى وزارته مجدداً، ولم تكن قصيدة الشماتة التي نظمها مؤمن بن سعيد بخافية عليه وقد فشت في أوساط الناس، فعمل على الإيقاع به، ومراقبة حركاته وسكناته، عسى أن يرتكب هفوة تقوده إلى السجن، وما أكثر هفوات شاعرنا.

ولقد نجح هاشم في مسعاه، فأدخل مؤمن في السجن، وندم ولات ساعة مندم، وقضى به بقية عمره إلى حين وفاته سنة ٢٦٧هـ(٢٣).

نماذج من شعره

قال في رثاء الأمير عبدالرحمن بن الحكم، وتهنئة ابنه الأمير محمد بالإمارة من بعده:

تَهَلَّلَ بطنُ الأرضِ لمّا ثوى بهِ
إمامُ الهُدى مُستودَعًا بطنَ مُلْحَدِ

وزلزلَها موتُ الإمامِ وفقدُهُ
فقالَ لها اللهُ: اسكُني بمحمدِ!

لقد قُلِّدَتْ بعدَ الإمامِ أمورَها
إلى خيرِ رُكْنٍ من قُريشٍ ومُسْنَدِ

كريمٌ نَمَتْهُ من أميةَ سادةٌ
قُرومٌ نَماهُم كلُّ قَرْمٍ مُسَوَّدِ

لقد قامَ بالمُلْكِ الإمامُ محمدٌ
وقالَ لمَنْ رَجّى القيامَ به: اقْعُدِ

وقوّمَهُ حتى استقامَ عَمودُهُ
ودبَّرَهُ تدبيرَ قَرْمٍ مُؤَيَّدِ

رأتْهُ قريشٌ خيرَها وأحقَّها
بِعَهْدِ رسولِ اللهِ ذي النورِ أحمدِ

فدانتْ له طوعًا ولو قامَ غيرُهُ
رَمَتْهُ بسهمٍ عن حِمى المُلكِ مُقْصِدِ

أبى اللهُ إلا أن يُؤَيِّدَ مُلكَهُ
على رَغْمِ أعداءٍ شُناةٍ وحُسَّدِ

وقال في رثاء الأمير عبدالرحمن ابن الأمير محمد بن عبدالرحمن:

يا موتُ ويحكَ ما تُبقي وما تَذَرُ
فصارَ ناسكَ وِرْدٌ ما له صَدَرُ

للموتِ عَدْوَةُ ماضي البطشِ مُقْتَدِرِ
لا مَلْجأٌ عاصمٌ منهُ ولا وَزَرُ

أغْرى بِعَيْنَيَّ مع السُّهادِ يومَ ثوى
أبو المُطَرِّفِ دَمْعًا صَوْبُهُ دِرَرُ

لمْ يَنظرِ المُلْكَ والسُّلطانَ صُحْبَتَهُ
لما تَخطّى إليهِ غُرَّةُ الغُرَرُ

النّاسُ من بعدِهِ ذو مُهجةٍ عُطِلٍ
منَ العَزاءِ وخدٌّ حَلْيُهُ العِبَرُ

جادَ الغَمامُ ثرًى وارى شمائلَهُ
وخَيَّمَهُ وتَعالى فوقَهُ الزَّهَرُ

لا غـرْوَ إن متُّ من وجْـدٍ ومن كَـمـدِ
والغـرْوُ أن قـد تـراخى بَعْـدَهُ العُـمُـرُ

وقال في مدح الأمير محمد بن عبدالرحمن:

لَعَـمْـري لقـد أبْدى الإمـامُ التَّـواضُـعـا
فـأصْـبحَ للدنيـا وللدِّينِ جـامِـعـا
بنى مـسـجـدًا لم يُبنَ في الأرضِ مِـثْلُهُ
وصَلَّى به شكرًا لِـذي العـرْشِ راكِـعـا
ومـــازال مُـــذْ أمَّ الصـلاةَ مُناجِـيًـا
لِذي العـرْشِ حتى قيلَ قـد آبَ راجِعـا
وإنَّ لمن كـــان الإمـــامُ مُـــحَــمَّــدٌ
له إذْ رَعَى فـيـه إلى اللهِ شـافِـعـا
تـواضَعَ للرحـــمنِ بَدْءًا فـــزادَه
عُلُوًا بـه يعلو النجـــومَ الطوالِعـــا
فـلا فـضْلَ إلا دون فـضْلِ مـحـمَّـدٍ
إمـــامِ الهُــدى لا زالَ للّه خـاشِـعــا
ولا زالَ مُـــهْـــدِيًا إلى البِـرِّ هادِيًا
إليـه وللمـعـروفِ والخيـرِ صـانِعـا
أشـــارَ إليـــه النَّاسُ بالفـــضْلِ إذْ بَدا
عــزيزًا وأبْدى لِلْعـزيزِ التَّـواضُـعـا
هَنِيـئـــا مَـريئًـــا للإمـامِ فَـضِـيلَةٌ
منَ اللهِ لا يَلْقَى لـهـا الدَّهْرَ دافِـعـا

وقال يصف منية كنتش منتزه الأمير محمد:

[مَجالِسُ يرضي العينَ إفراطُ حُسْنِها
كـأنَّ حنايـاها حـواجِبُ خُـرَّدِ
على عُـمُـدٍ للدرِّ أبْشارُ بعضِـهـا
وأبشـارُ بعضٍ حُسنُـها للزبرجَدِ]
ولابِسَـةٍ وشْـيًـا كـأنَّ دقـيقَـهُ
دقـيـقُ الهِـشـاميِّ العـتـيقِ المُنضَّـدِ
وأخرى مُـقـاناةُ البـيـاضِ بِحُـمْـرَةٍ
كَـجَـمْـرِ الغـضى في لَوْنِه المُتـوَقِّـدِ
على قـاعِـداتٍ بعضُـها فـوقَ مرْمَـرٍ
وبعضٌ على مَـسْنونِ صَـرْحٍ مُـمَـرَّدِ
وأفْـيـاءِ أبْهـاءٍ عليـهـا مُـشـارِفٌ
يكادُ يَنالُ النَّجْمَ مِنْهُنَّ بالْيَـدِ
على كُلِّ صِـهْـريجٍ كـأنَّ جُـمـامَـهُ
غَـديرُ حَـيًـا [فـيـه] يَرُوحُ ويَغْـتَـدي
وسـامِـقَـةٍ يَجْري السِّمـاكـانِ دُونَهـا
ويَحْـسِـرُ عنهـا الطَّرْفُ في رأسِ قَـرْدَدِ
كـأنَّ أمينَ اللهِ فـيـهـا مُـحَـمَّـدًا
هِلالٌ تَوالى لِلْعُـيـونِ بِأسْـعُـدِ

المراجع

١. جودة الركابي، في الأدب الأندلسي، (القاهرة: دار المعارف، د. ت)، ص١١٥.
٢. المقري، أبو العباس أحمد بن محمد (ت: ١٠٤١هـ/١٦٣١م)، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، (بيروت: دار صادر، ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م)، ج٣، ص٥٣٨.
٣. ابن سعيد، علي بن موسى (ت: ٦٨٥هـ/١٢٨٦م)، المغرب في حلى المغرب، تحقيق شوقي ضيف، ط٢، (القاهرة: دار المعارف، ١٩٦٤م)، ج١، ص١٣٢.
٤ ، ٥. المصدر نفسه، ج١، ص١٣٢.
٦. الخشني، محمد بن حارث (ت: بعد ٣٦٦هـ/بعد ٩٧٦م)، قضاة قرطبة، (القاهرة: الدار المصرية للتأليف والترجمة، ١٩٦٦م)، ص٧٠.
٧. محمد عبدالوهاب خلاف، تاريخ القضاء في الأندلس، ط١، (القاهرة: المؤسسة العربية الحديثة، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م)، ص٣٢٤.
٨. الخشني، قضاة، ص٨٢ ـ ٨٣.
٩. المصدر نفسه، ص٨٣؛ ابن القوطية، أبو بكر محمد بن عمر (ت ٣٦٧/٩٧٧)، تاريخ افتتاح الأندلس، تحقيق عبدالله أنيس الطباع، (بيروت: دار النشر للجامعيين، ١٩٧٥م)، ص١١٤.
١٠. الخشني، قضاة، ص٨٣.
١١. ابن حيان، أبو مروان حيان بن خلف (ت: ٤٦٩هـ/١٠٧٦م)، المقتبس من أنباء أهل الأندلس، تحقيق محمود علي مكي، (بيروت: دار الكتاب العربي، ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م)، ص٢١١؛ ابن سعيد، المغرب، ج١، ص١٣٤.
١٢. ابن سعيد، المغرب، ج١، ص٣٣١.
١٣. المصدر نفسه، ج١، ص٣٣١.
١٤. المصدر نفسه، ج١، ١٣٢.
١٥. الخشني، قضاة، ص٦٩.
١٦. ابن سعيد، المغرب، ج١، ص١٣٢.
١٧. المقري، نفح، ج٣، ص٣٧٥.
١٨. ابن سعيد، المغرب، ج١، ص١٣٢.
١٩. ابن حيان، المقتبس، تحقيق مكي، ص٢٣٧.
٢٠. ابن سعيد، المغرب، ج١، ص١٣٣.
٢١ ـ المصدر نفسه، ج١، ١١٣.
٢٢، ٢٣. المصدر نفسه، ج١، ١٣٣.

أزرا باوند..
الذي صنع العمالقة وخذل نفسه

أنور صالح جعفر
الدوحة . قطر

على أثر وفاة عالمة الموسيقى وعازفة الكمان الشهيرة أولجا رادج في شهر نيسان/إبريل ١٩٩٦م عن عمر ناهز المئة عام، تذكرت الأوساط الأدبية والفنية في عواصم العالم أزرا باوند، ولمع اسمه من جديد، وسلطت الأضواء على حياته وأعماله بعد أن كان نسيًا منسيًا، ذلك أن أولجا رادج كانت عشيقته مدة تزيد على نصف قرن، والمدافعة الوحيدة عن سمعته بعد موته. فمن هو أزرا باوند الذي عاد اسمه إلى الأضواء فجأة بعد ما يقرب من ربع قرن على وفاته؟.

إنه الشاعر والناقد الأمريكي الذي هاجر إلى أوربا في أوائل هذا القرن مجهولاً مغموراً لا يعرفه أحد، ليصبح في غضون سنوات قلائل واحداً من أبرز شعراء العالم، ومعلماً وصانعاً رائعاً وحقيقياً لجيل كامل من الشعراء والأدباء والنقاد العمالقة الذين كان لهم أثرهم الذي لا ينكر في الأجيال التالية، بما مهدوه من طرق، واقتحموه من مجالات، وارتادوه من آفاق، واستحدثوه من اتجاهات ومضامين فكرية وأشكال جمالية وفنية وأدبية جديدة.

راعي نشر الأدب الجديد

عن تلك الشخصية التي ملأت الأسماع وشغلت الناس قرابة نصف قرن من الزمان يقول الناقد الأمريكي الشهير مالكولم كاولي: كان باوند مدرساً رائعاً لأولئك الكتاب الذين كانوا على استعداد ومهيئين لأن يتعلموا منه، وقد كان منهم على سبيل المثال لا الحصر وليام كارلوس وليمز الذي التقاه عندما كان كلاهما طالبين بجامعة بنسلفانيا، وهيلدا



أزرا باوند مع أحفاده

دوليتل التي خطبها فترة وجيزة، وفي لندن كان منهم ت. س. إليوت الذي بسط نفوذه خلاله على جيل من الشعراء بأكمله، ويند هام لويس زميله في تحرير مجلة انفجار: (بلاست)، وفي باريس إرنست همنجواي الذي طبق بعض نظريات باوند في باكورة نشره.، ثم أ. أ. كمنجز وأرشيبالد ماكليش، وفي لندن وليم بتلر ييتس الذي قال: «إن لباوند الأثر الرئيس في تحويله من أسلوبه المبكر إلى أسلوبه المتأخر، وإني لأغفل كل المؤلفين المشهورين الذين كان له فيهم أثر أقل، أو لا تأثير على الإطلاق، ولكنه كسب صداقتهم بأن ساعدهم على الفوز بجمهور أو ناشر مثل فورست، ولورنس، وبوجه خاص جيمس جويس، لقد عمل باوند خلال سنواته في لندن وباريس (١٩٠٨م - ١٩٢٤م) راعيًا لنشر الأدب الجديد بوجه عام، ولكنه أيضًا كان في المقام الأول صاحب نظريات ومعلمًا، أو بالأحرى زعيم مدرسة».

يقول همنجواي: «إن باوند أعظم شعراء هذا القرن، يكرس خمس وقته للشعر، وفي الوقت الباقي يحاول أن يحسّن أحوال أصدقائه الفنية والمادية، فهو يدافع عنهم عندما يهاجمون، وينشر أعمالهم في المجلات، ويخرجهم من السجن، ويقرضهم نقودًا، ويبيع صورهم، ويقيم حفلات موسيقية يقدمون فيها أعمالهم، ويكتب مقالات عنهم، وفي النهاية قلائل منهم فقط من كانوا يمتنعون عن طعنه عند أول فرصة تتاح لهم، لقد كان باوند أكرم كاتب عرفته، وأقلهم اهتمامًا بمصلحته الخاصة. وكان أول ما عرفته قلقًا بشأن إليوت الذي كان يعمل في مصرف (بنك) بلندن وليس عنده وقت كاف لكتابة الشعر، فهو لذا أوجد مشروعًا قائمًا على التبرعات لإنقاذ إليوت من البنك».

والواقع أن شهامة باوند مع إليوت بالذات لم تقف عند حد جمع التبرعات لإنقاذه من البنك، بل تعدت ذلك إلى ما هو أبعد أثرًا، وأكثر إيجابية؛ إذ كان باوند هو أول من عمل على نشر قصيدته المبكرة (أغنية حب ج. ألفريد بروفروك) وهو الذي قام كما يقوم أحسن حداد ماهر خبير بصنعته بصقل قصيدة إليوت الشهيرة (الأرض اليباب) وتهذيبها وتنقيحها، والتي لولا معونة باوند القيمة له لما نالت هذه القصيدة ما نالته من شهرة، ولما أوصلت صاحبها إلى ما وصل إليه من مجد.


ت. س. اليوت

أما جيمس جويس صاحب رواية «عوليس» الذي وصفه روبرت كوريجان بالبائس الذي كان من الممكن أن يموت في كوخ في مدينة تريستا أعمى مغمورًا لم يقرأه أحد لولا فضل باوند عليه فإنه يقول: «إنني أدين بالكثير لمساعدة باوند الودود، وتشجيعه واهتمامه السخي بكل ما كتبت، وهناك غيري كثيرون يدينون بالفضل له، لقد ساعدني باوند بكل وسيلة ممكنة على مواجهة صعوبات رهيبة مدة سبع سنوات قبل أن ألتقي به، لقد كان باوند مستعدًا دائمًا لأن يمنحني النصيحة والتقدير، وهما ما أعتز به كثيرًا، إذ يجيء من ذهن متوهج متميز».

نضج مبكر

ولد أزرا لوميس باوند عام ١٨٨٥م في مدينته هيلي بولاية إيداهو غرب الولايات المتحدة الأمريكية، وفي فيلادلفيا، التي كانت أسرته قد انتقلت إليها لاشتغال والده بوظيفة فاحص للمعادن بدار سك النقود، بدأت رحلة باوند التعليمية في مدرسة شيلتنهام الخاصة، ثم جامعة بنسلفانيا، ومنها إلى كلية هاملتون في نيويورك، ثم ثانية إلى جامعة بنسلفانيا ليحصل منها على الماجستير في الأدب، وعدة شهادات أخرى في اللغات الحديثة المشتقة من اللغة اللاتينية عام ١٩٠٦م. ويصف لنا الناقد ماركوس كنليف ما كان

عليه أزرا باوند في تلك الفترة بقوله: «كان باوند شاباً مبكر النضج بدرجة هائلة، يثير حنق من حوله واهباً ذاته كليةً للكلمات والأفكار»، وهو بالفعل كان كذلك، إذ كانت القراءة الجادة المنظمة هي شغله الشاغل، وكان الشعر هو محور حياته وهمه الأكبر.

وفي مدرسة كراوفوردز فيل بانديانا، وهي إحدى مدن الغرب الأوسط الأمريكي، نجح باوند في الحصول على وظيفة مدرس للآداب بكلية واباش المحافظة جداً والشديدة التزمت، ولكنها كانت تجربة فاشلة قصيرة الأمد، انتهت بطرده من الوظيفة بحجة أنه أوربي أكثر مما يجب، وأنه لا يحافظ على التقاليد الاجتماعية.



إرنست همنجواي

الجامحة، وبرزمة من القصائد تحت إبطه، وبطبيعة سليل رعاة البقر مغامر الغرب الأمريكي المشاكس المفعم النفس بنوازع الفردية والقلق المتفائل، وبآمال عريضة وطموحات أعرض رحل أزرا باوند إلى أوربا لينضم إلى عشرات الكتاب والفنانين الأمريكيين الذين هجروا أمريكا وعاشوا حياة الاغتراب الصعبة في أوربا في أوائل هذا القرن.

كانت ظاهرة الاغتراب الأمريكي هذه قد تفشت بشكل خطير بين الأدباء والفنانين الأمريكيين قبل أزرا باوند، واستمرت بعده حتى نهاية العقد الثاني من القرن العشرين، وأثارت عاصفة من النقد الشديد ضدهم، وبدأ مواطنوهم «ينظرون إليهم على أنهم ظاهرة أخلاقية بادية السوء، باعثة على القلق» ومن ثم كانت هناك موجة عارمة من الاستياء العام إلى حد أن تيودور روزفلت وصف أحدهم وهو هنري جيمس، بقوله: «الحقير الصغير المتودد إلى من هم أعظم منه»، وإلى حد أن بعضهم كان يتساءل في دهشة ما الذي يجعل هؤلاء المجانين يرضون بحياة الفاقة والحاجة والعوز في أوربا بينما الرخاء كل الرخاء في أمريكا؟.

وعلى الرغم من أن هذه الواقعة تركت في نفس باوند الكثير من المرارة والألم أمداً طويلاً، فإنه لم يرَها يوماً ما شراً خالصاً، ذلك أنها مكنته من اتخاذ قراره الحاسم بالهجرة إلى أوربا، فشد رحاله إليها بالفعل عام ١٩٠٨م، وظل مقيماً بها إقامة دائمة منذ ذلك التاريخ، ولم يعد إلى وطنه الولايات المتحدة إلا في زيارة قصيرة عام ١٩٣٩م، بصفته سجيناً بتهمة الخيانة عام ١٩٤٥م.

باوند ورحلة الاغتراب

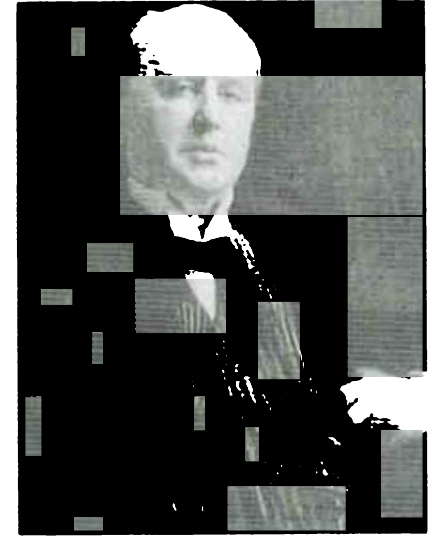
يقول الشاعر الأمريكي وولت وايتمان في قصيدة له:

«في كياني أصوات كثيرة صماء
أصوات لا نهاية لها من المسجونين والعبيد
أصوات الموبوئين والقانطين واللصوص والأقزام»
أصوات دورات من الاستعداد والنمو»

وبأصوات لا نهاية لها مثل أصوات وولت وايتمان، وبفيض غامر من الرؤى والتصورات والخيالات

وفي المقابل تطايرت الردود من أوربا على ألسنة بعض هؤلاء المهاجرين مثل الكاتب الروائي هنري جيمس الذي علل سبب اغترابه بقوله: « إنّ وجود حضارة تليدة أمر ضروري لتحريك قوى الإبداع في الكاتب الروائي.. إن الروائي لا يمكنه أن يعيش إلا على الأخلاق والعرف والتقاليد المتبعة، والعادات وأنماط السلوك في أنضج صورها وأشدها ثباتاً ورسوخاً، فهذه هي المادة الأساسية التي يتألف منها عمله»، وقد يكون في هذا القول الكثير من الصدق والموضوعية، ولكن القول الفصل أو بيت القصيد كما

يقولون هو ما قاله أزرا باوند المنشق العنيد والقروي المشاغب، والذي كان أكثر صراحة ووضوحاً وأشد جرأة إذ قال بلا مواربة: «إن الفقر في أوربا مثير للاحترام والنبل، أما في أمريكا فإن الإنسان بسببه معرض لإهانات متصلة تنصبّ عليه من كل جانب»، وفي موضع آخر شخّص باوند بدقة أكثر سبب داء الاغتراب عندما قال: «إن أمة لا توفر الطعام لخيرة كتابها لهي قطيع بربري»، ذلك أن أمريكا في بدايات هذا القرن لم تكن مؤهلة ولا صالحة لأن يعيش فيها فنان كبير أوصادق بسبب جهل الشعب الأمريكي بالفن، واهتمامه الكبير بتجميع أكبر قدر من النقود، إلى الحد الذي أصبحت معه قيمة النجاح المادي هي أهم القيم وأكثرها إغراء للأمريكي العادي، ولهذا كان يرحل معظم الكتاب والشعراء إلى أوربا بحثاً عن التقويم الحقيقي والتقدير المعنوي.



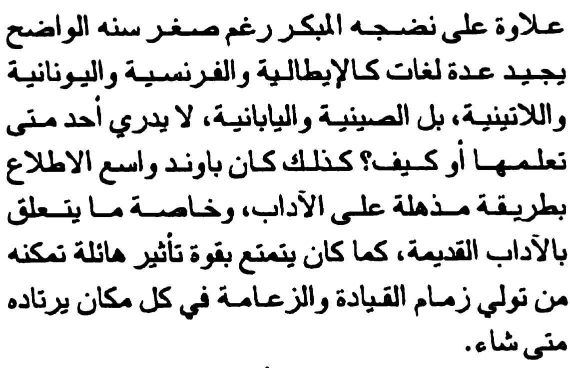
هنري جيمس

باوند في لندن

في عام ١٩٠٨م خلّف باوند العالم الجديد وراء ظهره ورحل إلى أوربا، فتنقل عبر جبل طارق وإسبانيا وجنوب فرنسا إلى البندقية، وفي البندقية نشر الشاعر وهو في سن الثالثة والعشرين أول مجلد أشعاره باسم «اليوم سبنتو ـ الضوء الخابي» ولكن البندقية لم تكن البيئة المناسبة التي يمكن أن تتسع لمواهب نابغة مثله، فما كان منه إلا أن رحل إلى لندن ليبدأ بها حياة جديدة عاصفة استمرت اثنتي عشرة سنة (١٩٠٨م ـ ١٩٢٠م).

كيف دخل باوند لندن؟ يقول تشارلز نورمان في كتابه عن حياة باوند: «بلحية شقراء ضاربة للحمرة، ونظارة ملتصقة بالأنف دون إطار وبنطال من الجوخ الأخضر المستعمل عادة لتغطية طاولات البلياردو، وسترة قرمزية بأزرار زجاجية زرقاء تحتها قميص مفتوح الياقة، وبعباءة قرمزية فضفاضة، وعصا أنيقة لا تفارق يده، وقبعة عريضة الحواف من نوع قبعات رعاة الأبقار على رأسه، اقتحم أزرا باوند أحد أندية لندن الأدبية ذات مساء كالعاصفة».

وكان أمراً طبيعياً أن يثير مظهر باوند الغريب هذا الكثير من نظرات الدهشة والاستغراب بل الاستنكار والاستهجان، ولكن باوند الواثق من نفسه لم يُلق بالاً إلى كل مظاهر العداء الخفية تلك، ولا لنظرات الاستخفاف التي رمقه بها بعضهم، وتكررت اقتحاماته للأوساط الأدبية، وتكررت اشتباكاته في مناقشات حادة كان يُجرُّ إليها جراً، أو كان هو نفسه يفتعلها افتعالاً للفت الأنظار إليه، وما هي إلا أيام حتى كانت نظرات القوم قد تغيرت وحلت محلها أخرى امتزج فيها الاحترام بالإعجاب، والحنق بالغيرة والحسد، إذ لمس الجميع في ذلك الفتى الغريب الوافد من الغرب، الأمريكي البوهيمي الطباع، المتهور الجامح الشديد الخصام، عدة خصال ومواهب حقيقية لا زيف فيها أو ادعاء، فهو



علاوة على نضجه المبكر رغم صغر سنه الواضح يجيد عدة لغات كالإيطالية والفرنسية واليونانية واللاتينية، بل الصينية واليابانية، لا يدري أحد متى تعلمها أو كيف؟ كذلك كان باوند واسع الاطلاع بطريقة مذهلة على الآداب، وخاصة ما يتعلق بالآداب القديمة، كما كان يتمتع بقوة تأثير هائلة تمكنه من تولي زمام القيادة والزعامة في كل مكان يرتاده متى شاء.

لم تكن تلك الخصال التي أظهرتها مجادلاته العنيفة في الأندية الأدبية هي وحدها مجمل المزايا والخصال التي كان يتمتع بها ذلك الفتى النابغة، بل كانت هناك جوانب أخرى في شخصيته بدأت تتكشف لهم مع

مرور الأيام، إذ لمسوا فيه شهامة نادرة، وحبًا لتقديم العون للآخرين، كما لمسوا فيه صفات المعلم الناضج والموجّه الأمين، الذي يقدم العون الفني والأدبي بحماسة شديدة، وصبر ودأب شفيق لا حد له، وفوق هذا وذاك وجدوه فائق الحيوية، جم النشاط، رياضيًا من الطراز الأول، كان ملاكمًا، ولاعب مضرب (تنس)، ومبارزًا ماهرًا بالسيف، حتى إنهم أطلقوا عليه لقب «الماهر في أغلب الألعاب الرياضية التي تمارس في القاعات».



جيمس جويس

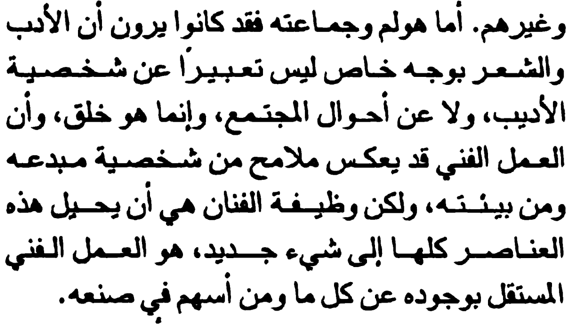
إن أطرف ما قيل عن باوند إبان إقامته في لندن هو ذلك الوصف الذي وصفه به معاصره ريتشارد ألدنجتون إذ قال: «كان باوند بركانًا صغيرًا، ولكنه مستمر في أجواء مجتمع لندن الأدبي المعتمة»، نعم كان باوند بركانًا، قلب كل المواضعات الأدبية التي كانت مسيطرة وسائدة في عصره رأسًا على عقب، وأدّى دورًا مهمًا في إعادة تشكيل الحياة الأدبية فيما بين الحربين العالميتين، ولا يختلف اثنان على أنه مسؤول شخصيًا عن نجاح عدد من كبار الأدباء والفنانين، وفي أنه يعدّ أهم قوة مؤثرة في وضع قانون الشعر الجديد الذي كان له أثره البالغ العمق في مسيرة حركة الشعر العالمي في القرن العشرين.

أستاذ المدارس الأدبية

في عام ١٩٠٩م، أي بعد عام واحد من وصول باوند إلى لندن، أصدر له الناشر الإنجليزي ماثيوز، الذي سبق واكتشف بتلر ييتس، ديوانه الثاني أشخاص «برسوناي» وهو الديوان الذي كان سببًا في شهرة باوند وذيوع اسمه، وقد استقبلته الأوساط الأدبية والنقاد وجمهور القراء بالحفاوة والاهتمام، وقد وصف أحد النقاد هذا الديوان بقوله: «إنه جدير بالاهتمام لشدة تأثيره المفاجئ»، وعلق آخر: «إنه جدير بالاهتمام لخلوه مما يشيع عادة في الشعر المعاصر من السوداوية أو الإذعان أو عدم الرغبة في الحياة».

كان صدور ديوان أزرا باوند «أشخاص» إيذانًا بمولد شاعر كبير، وبه رسخت مكانته في عالم الشعر، كما نجح بعد صدور هذا الديوان في ربط نفسه مع كبار المتمردين الذين كانوا يخططون لقلب المؤسسة الأدبية اللندنية على حد وصف كوريجان لجماعة «الإيماجيست» أي القائلين بالصور المتخيلة، وهي الجماعة التي أعلنت ثورتها على الرومانسية، والتي كان قد أسسها الفيلسوف الإنجليزي الشاب توماس إرنست هولم (١٨٨٣ ـ ١٩١٧م) الذي قتل في الحرب العالمية الأولى.

كانت النظرة الرومانسية في الأدب والنقد حتى أواخر القرن التاسع عشر ترى أن الأدب تعبير عن ذات الفنان، وأن النقد سجلّ لانطباعات الناقد عن العمل الفني، وهي النظرة التي عبر عنها في كتاباته ذلك الجيل من الرومانسيين الأوائل أمثال وردزورث وكولردج وشلي وبيرون وكيتس وماثيو أرنولد وغيرهم. أما هولم وجماعته فقد كانوا يرون أن الأدب والشعر بوجه خاص ليس تعبيرًا عن شخصية الأديب، ولا عن أحوال المجتمع، وإنما هو خلق، وأن العمل الفني قد يعكس ملامح من شخصية مبدعه ومن بيئته، ولكن وظيفة الفنان هي أن يحيل هذه العناصر كلها إلى شيء جديد، هو العمل الفني المستقل بوجوده عن كل ما ومن أسهم في صنعه.



وقد كسبت جماعة هولم بانضمام أزرا باوند إليهم قوة هائلة، إذ كان هو الذي أسهم في إغناء أفكارها وحملها ونشرها في كل مكان يمكن أن تصل إليه، ولم

يمض وقت طويل حتى كان باوند قد احتل مركز الزعامة في هذه الجماعة التي مضت متأثرة بأفكار هولم، والتي كانت تؤمن بأن الشعر الجديد يجب أن يكون متفائلاً وجافا ومغايراً للبساطة البدائية، وأن الشعر ليس أكثر أو أقل من تنظيم للكلمات بطريقة (الموزايكو)، ولذلك تلزم الدقة المتناهية في وضع كل كلمة في موضعها، ومن هنا فإن ذلك يستلزم عناية فائقة ومهارة فنية عالية، وعن ذلك يقول باوند: «إن غاية الصور المتخيلة (الإيماجست) تتمثل في أنها لا تستخدم البلاغة من قبيل الزخرف، وإنما تستخدمها بوصفها الكلام نفسه».

ويقول ماركوس كنليف عن هذه المرحلة: «ما كان باوند وجماعته متأثرين أساسًا بالنزعة الرمزية، وإنما بشعر المشرق الأقصى، ففي الشعر الصيني والياباني - كما عرفوه من خلال ترجمات جوديث جوتيير ومن كتابات إرنست فينولوزا - وجدوا النمط الكامل والكلمات المقطرة، وهكذا خرجوا إلى النور في ثورة عارمة، إذ بدا لهم كل شيء جديداً في تلك الفترة الحرجة في لندن وفي شيكاغو على حد سواء، محاولين أن يصلوا إلى جوهر الحقيقة في شعرهم».

لقد ظل باوند خلال اثنتي عشرة سنة من ١٩٠٨ إلى ١٩٢٠م في لندن يكتب الشعر وينشر الكتب، فأصدر خلال هذه الفترة ما يقرب من أربعين مجلداً تكاد تكون كلها شعراً لا يخضع لأيٍّ من القواعد التقليدية السابقة لها.

من أهم أعماله مجموعة أشعاره التي اصطلح على تسميتها «بالكانتوهات»، أي: الأناشيد، التي كان قد بدأ كتابتها ونشرها على حلقات وهو في لندن، إذ نشر الثلاثة الأولى منها عام ١٩١٩م، ونشر النشيد التاسع بعد المئة عام ١٩٥٩م. وتعد ملحمة الأناشيد من أطول القصائد في الزمن الحديث وأصعبها تناولاً، فهو يورد في هذه المجموعة من الأشعار جميع أحداث حياته، بما في ذلك قراءته لشعر التروبادور وهوميروس ودانتي، يقول مالكون كاولي: «كان الشعر فيها يتغير مع مرور الأعوام، كما تغير الشاعر نفسه، ففي الأناشيد المبكرة من (١) إلى (٣٠) وهي أحسنها، بدا معنيًا بالأمثال والنماذج المكررة في التاريخ، أما الأناشيد المتأخرة التي بدأت بمجموعة نشرت عام ١٩٣٣م فهي أكثر عناية بالمشكلات المالية والإدارية، مع حملة لإنقاذ العالم عن طريق إسقاط النظام المصرفي الذي يسميه «حكومة المرابين» فإنها تلقي على معارف المرء وقدرته على فهمها مطالب تفوق ما تلقيه أية قصائد أخرى نظمت في أي وقت، فمن المرتقب من القارئ أن يحدس على سبيل المثال معنى المقتبسات والأحاديث الفردية (المنولوجات) المسوقة بتسع لغات أجنبية هي اليونانية واللاتينية والإيطالية والفرنسية والفرنسية العتيقة ولغة إقليم بروفانس والإسبانية والألمانية والصينية بجانب اسم واحد مكتوب بالحروف الفارسية ومجموعة من النشيد (٩٣) بالهيروغليفية».

أنقذ إليوت من البنك ولولاه لمات جيمس جويس أعمى مغموراً في كوخ من دون أن يقرأه أحد

وتبدأ ملحمة الأناشيد بزيارة أوديسيوس إلى الجحيم:

وعندئذ نزلنا إلى السفينة
ودفعناها إلى الأمواج المتكسرة قدما في البحر
ومضينا منشوري الشراع فوق تلك السفينة الداكنة
وحملنا عليها الأغنام، وأجسادنا أيضاً
وهي مثقلة بالبكاء، ورياح في المؤخرة
وحملتنا إلى الأمام بشراع منتفخ البطن
إنها سفينة سيروس، الربة المرجَلة الشعر

وإلى جانب أشعاره توالت أيضًا كتاباته النثرية في النقد والثقافة والاقتصاد والسياسة وعلم النفس، وكانت كذلك مثل أشعاره، محملة بغزارة اطلاعاته

مثيرة لحنق القارئ والسياسي العادي، محيرة، وموضع نقاش شديد بين كبار المفكرين.

باوند في مأزق خطر

انتقل باوند من لندن إلى باريس عام ١٩٢٠م، وظل بها إلى عام ١٩٢٤م، وهناك التقى بإرنست همنجواي وساعده لكي يشق طريقه في عالم الأدب، وعاش أجواء الحياة الأدبية الباريسية، وتردد إلى أنديتها، لكنه سرعان ما سئم جو باريس فسافر إلى إيطاليا التي أصبحت مستقراً له على مدى العشرين سنة التالية، حيث أصدر مجلة باسم «المنفى»، وواصل كتابة أناشيده، وفي عام ١٩٣٩م عشية الحرب العالمية الثانية أبحر إلى الولايات المتحدة الأمريكية محاولاً الحيلولة دون وقوع الصدام الذي رآه وشيكاً، وكان قد بدأ بنشر أفكاره السياسية والاقتصادية ويهاجم بعنف روزفلت واليهود، ولكن الرحلة إلى أمريكا فشلت تماماً، إذ لم ينصت إليه أحد، وتجاهلته الصحافة الأمريكية تماماً، وكذلك الكونجرس، كما رفض روزفلت أن يلتقيه أو يرد على رسالته، وفيما عدا كلية هاملتون التي منحته درجة الدكتوراه الفخرية فإن أمريكا كلها أدارت ظهرها له، وعاد باوند إلى إيطاليا وهو مقتنع تماماً أن اليهود وروزفلت قد أفسدوا الشعب الأمريكي ودنسوا تراثه، وأنهم على وشك زج بلاده في حرب غير أخلاقية.

عاد باوند إلى إيطاليا حانقاً ممروراً، وفي أثناء الحرب أخذ يذيع من إذاعة روما الفاشية أحاديث موجهة إلى أمريكا والأمريكيين مهاجماً بلاده وسياستها والحلفاء ومؤيداً للفاشية، وكان هذا هو المأزق الخطير الذي زج باوند نفسه فيه، إذ كانت النتيجة أنه اتهم عام ١٩٤٣م أمام المحكمة الفيدرالية بتقديم العون والتأييد لأعداء الولايات المتحدة الأمريكية ناقضاً بذلك واجب الولاء، وتم القبض عليه

أراد باوند أن يوقف الحرب العالمية، ولكنه اقتنع أن اليهود وروزفلت قد أفسدوا الشعب الأمريكي، وأنهم على وشك زج بلاده في حرب غير اخلاقية

وسيق إلى واشنطن حيث أودع مستشفى القديسة إليزابيث (١٩٤٥) وهي مصحة للأمراض العقلية، بناء على قرار من خبراء الصحة النفسية، وهو القرار الذي أعفى باوند من إعدامه بتهمة الخيانة العظمى، والذي وقعه ثلاثة من كبار علماء النفس، وجاء فيه: «إننا نرى أنه، مع تقدمه في السن، فإن شخصيته التي لم تكن طبيعية لعدة سنوات قد ساءت حالتها إلى حد أنه يعاني من البارانويا، أي إنه بمعنى أصحّ مجنون، ولا تصلح حالته العقلية لأن يقدم إلى المحاكمة، بل هو بحاجة إلى دخول مصحة للأمراض العقلية».

استمر باوند في تلك المصحة نحو ثلاث عشرة سنة من ١٩٤٥ إلى ١٩٥٨م حيث أفرج عنه بعد سحب الاتهام الموجه ضده، وسمح له بالسفر إلى إيطاليا التي عاد إليها ليعيش بقية حياته شيخاً فانياً في صمت وعزلة فرضهما على نفسه، وفي تلك الأيام لم يكن بجواره سوى زوجته دورثي، وعشيقته أولجا رادج التي لازمته بعد وفاة دورثي إلى أن توفي في أول تشرين الثاني / نوفمبر ١٩٧٢م. وبوفاته انطوت الصفحة الأخيرة من حياة تلك الشخصية التي أثارت حولها في حياتها وبعد مماتها الكثير من الزوابع. لقد قال عنه الناقد ألفريد كازين: إنه كان آخر من اعتقد بأن للشاعر سلطة، والذي كانت قوته الجنونية تذكرنا لماذا كان أفلاطون يخشى الشعراء وأراد أن يطردهم من جمهوريته المثالية؟».

لكن يبقى في النهاية أن نقول: إنه كان صانعاً أصيلاً وحقيقياً لكثير من العمالقة، وإن خذل نفسه، وإنه كان يؤمن بأن:

ما تحبه هو ما سوف يبقى والباقي زبد جفاء
ما تحبه هو ما لن ينساب من بين يديك
ما تحبه هو ميراثك الحق.



أسماء الفائزين في مسابقة العدد (٢٨٢)

ذو الحجة ١٤٢٠هـ ـ مارس/أبريل ٢٠٠٠م

الفائز الأول: **عبدالحميد محمد زكي الدين ـ مصر.**

الفائز الثاني: **ماريا محمود حسن رباع ـ الأردن.**

الفائز الثالث: **هني جمال عبدالفتاح نوفل ـ الأردن.**

الفائز الرابع: **يحيى السيد كامل عبدالعزيز ـ السعودية.**

حل مسابقة العدد (٢٨٢)

الصولتية: مدرسة من أقدم المدارس في مكة المكرمة أسست على يد «صولت النساء» سنة: ١٢٩١هـ.

من لي بعيش الأغبياء فإنّه   لا عيش إلا عيش من لم يعلم

قائل البيت: ابن نُباته.

نصير الدين الطوسي: عالم فلك ورياضي مسلم، من آثاره: «تربيع الدائرة».

متحف باردو الوطني: في تونس.

قلادة فينوس: نبتة بحرية رائعة الجمال.

مسابقة الشهر (العدد ٢٨٥)

ضع علامة ☑ أمام الإجابة الصحيحة:

(١) الزُمندار:
- ☐ جابي الرسوم المفروضة على الأرض خلال الحكم الإسلامي للهند
- ☐ شخص يوكل إليه الخليفة العباسي إعلان الأعياد.

(٢) من قائل هذا البيت: وفي الكلام كلامٌ ما نطقتُ به   إلا ندمتُ عليه حين أبديه
- ☐ المتنبي
- ☐ طرفة بن العبد.

(٣) ناصر الدين ديني:
- ☐ فنان فرنسي مسلم عاش في الجزائر
- ☐ سياسي يعد من أعظم رجال الإصلاح العثمانيين في القرن التاسع عشر.

(٤) التريكوغراما:
- ☐ حشرة صغيرة مفيدة تنتمي إلى رتبة غشائيات الأجنحة
- ☐ دواسة أو ذراع تحرك بالقدم لنسج الصوف.

(٥) سيربيروس:
- ☐ كلب ذو ثلاثة رؤوس زعمت الميثولوجيا الكلاسيكية أنه يحرس باب الجحيم
- ☐ قبيلة أوربية قديمة استوطنت «بروسيا» ومنها اشتق اسمها.

الاسم: .... ص.ب: ....

العنوان: .... الرمز البريدي: ....

المدينة: .... هاتف: ....

الدولة: .... ناسوخ: ....

شروط المسابقة

- الإجابة عن جميع الأسئلة بشكل صحيح.
- لا تقبل إلا الإجابات المدونة على هذه القسيمة.
- إرسالها خلال ٤٥ يومًا من بداية الشهر العربي الذي صدر فيه العدد.
- أن يكتب المتسابق اسمه وعنوانه كاملاً داخل القسيمة.
- أن يكتب على الظرف (مسابقة العدد .....)

طريقة اختيار الفائزين

- تفرز جميع القسائم التي ترد من القراء.
- يتم استبعاد القسائم التي تكون ناقصة الإجابات.
- تجمع الإجابات الصحيحة، وتعمل قرعة بينها للفائز الأول، وقرعة أخرى للفائز الثاني، ثم قرعة للفائز الثالث، وقرعة أخيرة للفائز الأخير.
- ترسل الجوائز إلى أصحابها فور الوصول إلى النتيجة، وتدفع بالريال السعودي أو ما يعادله بالدولار الأمريكي.

الجوائز

الجائزة الأولى:
١٥٠٠ (ألف وخمسمئة ريال سعودي).

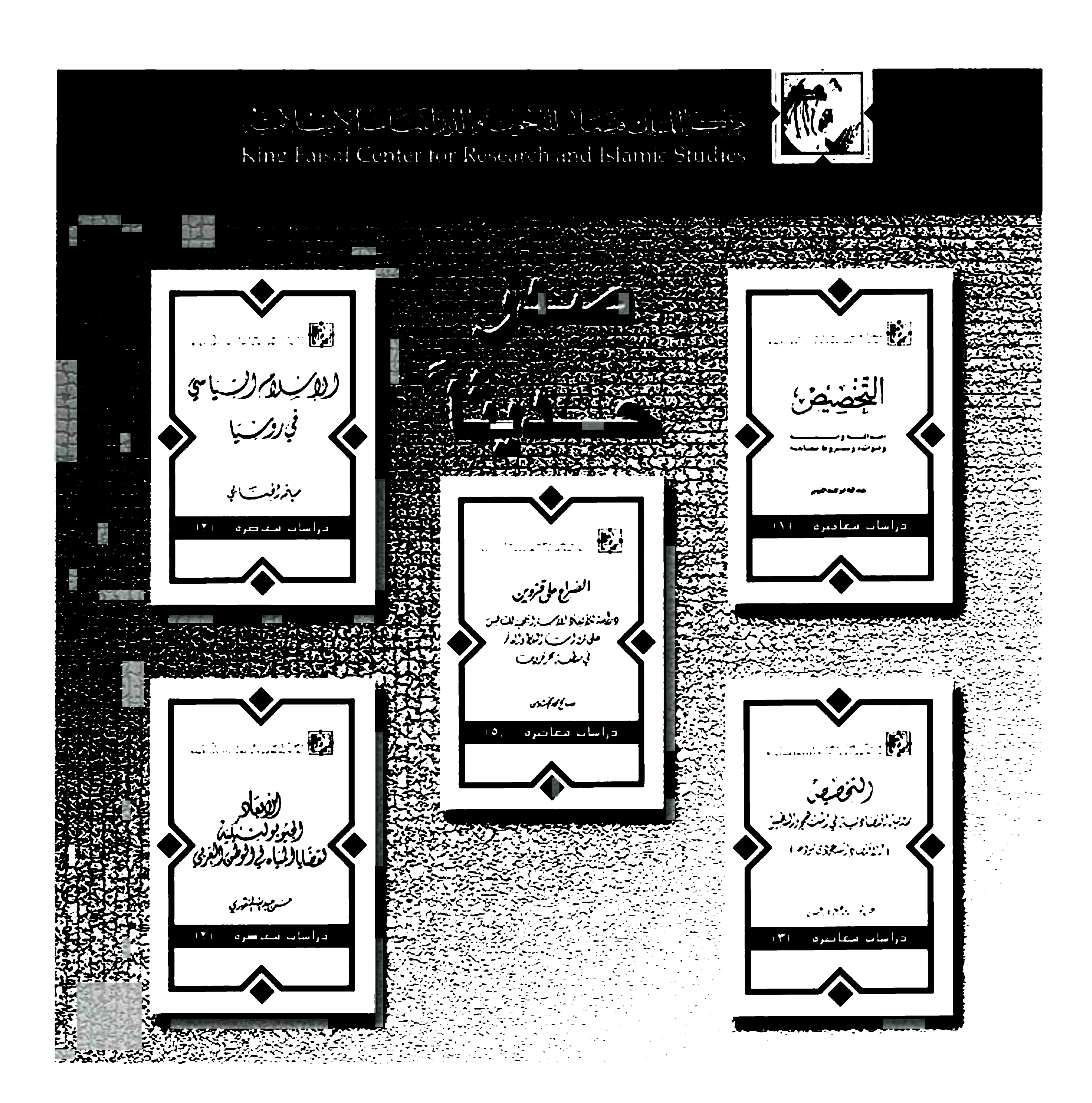
الجائزة الثانية:
٧٠٠ (سبعمئة ريال سعودي).

الجائزة الثالثة:
٥٠٠ (خمسمئة ريال سعودي).

الجائزة الأخيرة:
(اشتراك لمدة عام في مجلة الفيصل).

عنوان المجلة:

ص.ب (٣) ـ الرياض ١١٤١١ ـ المملكة العربية السعودية. هاتف: ٤٦٥٢٢٥٥ / ٤٦٥٣٠٢٧ ـ ناسوخ: ٤٦٤٧٨٥١



سعر النسخة ١٠ ريالات

كتاب لنزع

مركز الملك فيصل للبحوث و الدراسات الإسلامية ص.ب. ٥١٠٤٩ الرياض ١١٥٤٣ المملكة العربية السعودية

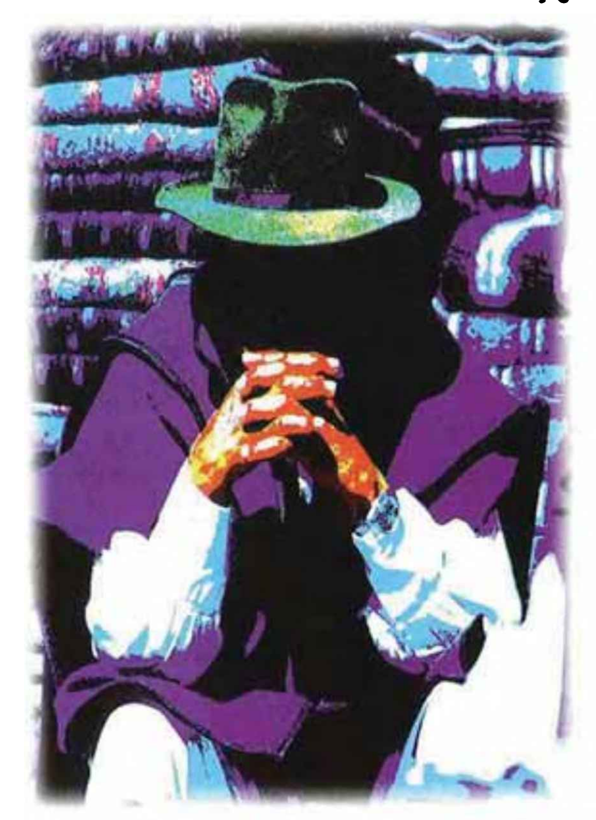
هاتف: ٤٦٥٢٢٥٥(٩٦٦١) ناسوخ: ٤٦٥٩٩٩٣(٩٦٦١)

بريد إلكتروني: e-Mail:rkfcris@kff.com

إلى الصديق الذي قتلني!!

عبدالله بن صالح الوشمي
بريدة - السعودية

عاتبته ورحلتَ في أشواقه
ونسيته ونسيتَ حسن وفاقه
عبثتْ به كفُّ الظنون ومن رأى
سيفًا توسط في مجال نطاقه؟
يا جاهلاً غضبَ السحاب أما ترى
في الغيث بعضًا من صدى إبراقه؟!
كم ليلةٍ ساهرتُ فيها نجمَها
حتى مضى وبقيتُ بعد فراقه!
عبثًا أحاول أن أعيشَ من الذي
يروي الحدائقَ من ندى أحداقه؟
ما عدتُ أحتملُ الرحيلَ فهل أنا
طفلٌ! أم التاريخُ في إملاقه؟!
قد كنتُ إسماعيلَ أيُّ جريمة
حتى أنالَ الظلمَ من إسحاقه؟
أحلى من القمرِ الجميلِ سكنتُه
معه وها أنا في جحيم طلاقه
لا ذنبَ لا ثمرٌ قطفتُ ولا أخٌ
في العيرِ لي حتى أساقَ بساقه
قد كنتُ واحدَ ليله وأنيسَه
فهل انتهى في البيدِ لحنُ براقه
هذا أنا المائيُّ جاء معذبًا
وقراءةُ التاريخ من أخلاقه
لا شيء يدعو للبداية كلُّ أحد ...
لامي انتهت وطردتُ من أسواقه
هذا خريفي قد رحلتُ ولم يزلْ
خلفي ونارُ الحقد في أحداقه
لا لا أخٌ لكَ لم تلده الأمُ! هل
ثمرٌ يكونُ وليس من إبراقه
ها جئتُ من بغدادَ آخرُ شاعرٍ
كتب الزمانُ له حروفَ طلاقه
لم يبقَ في سعفِ النخيل بلابلٌ
تشدو ولا طيرٌ على أوراقه



شبحًا جعلتَ نهايتي فسفينتي
حيرى وموجُ البحرِ في أشواقه
حجرًا أكونُ إذا ظلمتُ وربما
نهرًا يفيضُ ندى على عشّاقه
هذا رحيلُ الطيرِ من أعشاشها
هذا احتراقُ البدرِ في آفاقه
كم زرتُ كوكبَه فهل أنا مبحرٌ
والناسُ يحترفون في إغراقه!
فجرًا وقافيةً ونايًا هل أتى
زمنٌ لأقضي الليلَ عند محاقه!
في ثقبِ هذا الليلِ فجرٌ علّه
يحنو عليه وينحني لعناقه

الرياض.. غادة البيد

جاسم محمد الصُحَيِّح

الأحساء - السعودية

تمخضي عن ربيع الوحي يا بيدُ
فالشمس ولادةٌ، والفنُّ مولودُ

نعم المخاض أعرناه قصائدنا
أرائكاً تتكيهن التناهيدُ

شوقاً إلى فكرة ما فض كرمتها
زيفٌ.. ولا زورت فيها العناقيدُ

هذي رمالك حبات مثقفة
تفتحت فإذا الإبداع مخضودُ

من كل حبة رمل فز منتصباً
غصنٌ عليه من الإلهام غريدُ

هامت به «الضاد» فاهتزت مناكبها
عن رقصة ملؤها التاريخ محشودُ

تزهو بأن خيام الشمس آهلة
بالأنس.. و(الجمل) المضياف مقصودُ

ooo

جئنا.. ورائحة العشاق تمنحنا
خريطة.. تنتشي فيها المواعيدُ

تطاولت عنق الصحراء.. يسندها
حلمٌ إلى ما وراء الموت ممدودُ

أطلال «خولة» قد حانت قيامتها
والمستهامون من أرماسهم نودوا:

«نجدٌ» هنا يا حكايات الهوى التفتي
نحو المضارب، حيث الشوق محشودُ

«قيس» و«ليلى».. تشظى عن غرامهما
نهرٌ من الحب في الصحراء ممدودُ

مازال تياره يجري.. فيحضنه
في كل عاطفة بيضاء أخدودُ

«نجدٌ» هنا.. ملؤها قطعان أفئدة
ترعى.. وأعشابها حمى وتنهيدُ

هنا القصائد غزلانٌ نطاردها
وملء أقواسنا الولهى مواجيدُ

وقد أضاءك في أشعارنا غزلٌ
من زيت أكبادنا الخضراء موقودُ

جئناك مثل عصافير مخمرة
من طول ما عتقت فينا الزغاريدُ

تجتاحنا لغة الإبداع فائرة
في كل حرف بها قد شب «نمرودُ»

حطت على سدرة النجوى مشاعرنا
فكل غصن عليه النجم معقودُ

هذي «الرياض».. بناها من لآلئه
كنز الحضارة.. فالبنيان منضودُ

يا بيدُ.. كيف حبست الريح في قفص
من التمدن شدته القراميدُ؟!

وكيف أهديت للإسمنت عاطفة
تنساب بالحب.. والإسمنت عربيدُ؟!

من روض الذنب حتى سال من فمه
شهد العواء، وآخته الأغاريدُ؟!

وأين جلوتك الأولى يموج بها
قدٌّ مهيبٌ من الكثبان مشدودُ؟!

كانت هنا الأرض أعرابية لبست
ثوب الهجير، وزرته التقاليدُ

هل طفلة الأمس نامت في سكينتها
وحلمها في تراب الليل موؤودُ؟!

أم شقت العرف عن مجرى جدائلها
فشعرها خارج الأعراف ممدودُ؟!

تكلمي.. فرمال البيد أسئلة
مشوقة.. وجواب الصمت رعديد

ooo

جئناك فانشقت الرؤيا عن امرأة
قوامها باتساع الأفق مفرود
تمسكت بالصبا من حبل سرته
فالقد إشراقة، والروح توريد
تبختر العطر يستجلي شجاعته
ما بين نهديك، حيث العطر صنديد
واستللنا من قناني الصمت.. فانطلقت
مخمورة بحميانا الأناشيد
في غابة الشمس سرحنا مواهبنا
فالصبح سرب من الأفكار موقود
صاحت بنا العزة الكبرى: هنا وطني
فجر على قامة التاريخ مسنود
أصابع الفن ما جفت مناهلها
في راحتيه، ولم يغدر بها الجود
تنفستنا هوى فرشاة راسمه
وامتصنا في صدى عزافه، العود
فاللون من حكمة الإنسان مقتبس
واللحن من عزة الإنسان مقدود

ooo

هنا «الرياض».. هنا أشلاؤنا اتحدت
في جوهر صاغه هم وتسهيد
هنا التراب الذي فاضت كنانته
بالحمحمات.. وقوس النصر مشدود
أصغي لحباته تشدو، فيطربني
جرح على وجع الأجداد موصود
والأرض ذاكرة الأجيال إن نطقت
سلت حسام الصدى.. والصوت مغمود

ooo

يا غادة البيد.. والأبراج راسمة
وجه السماء، ووجه الأرض مفقود
هل قامة الفن أسمى في مهابتها
أم قامة شدها «طوب» وجلمود؟!

لم يبق للأرض من إيقاع وحدتها
لحن به وتر القامات مشدود
ها نحن في موسم الزقوم يسعدنا
أن الربيع من الرمضاء مولود
نحن الأغاني التي ما خان فكرتها
نظم.. ولا شوه الأسلوب تعقيد
إن أوفدتنا إلى الأسمار دالية
لم يخزنا في رؤوس القوم عنقود
من كل صناجة سمراء أنجبنا
«أعشى»، وعمدنا باللحن «داود»
يا غادة البيد.. لم نخلع بداوتنا
يوما.. وقد صقلت أفخاذها البيد
تشكو الربابة في أنات عازفها
أن العرار(*) من الصحراء مطرود
هاك اقرئي نفحة السعدان(*) في دمنا
هذا الذي هو في الألواح مسرود
فالشعر ما عاد فلاحا يفيض ندى
وظهره بسياط الشمس مجلود
ميلي على رأسه كي تلمحي كفنا
من البياض توشيه التجاعيد
هذا العكاظي ما عادت شواربه
مسلولة.. ينجلي عن زهوها العيد
كانت كأجنحة العقبان، ما انفتلت
في الأفق؛ إلا ودرب الشمس مسدود
ثم انطوى كل مفتول.. وشاربه
عريان من عزة العقبان مجرود
ردي السمو إلى أفكاره، وخذي
نسرا جناحاه: إبداع وتجديد

ooo

الهوامش

* بمناسبة اختيار الرياض عاصمة ثقافية لعام ٢٠٠٠م.
* العرار والسعدان من النباتات البرية في نجد. قال الشاعر «تمتع من شميم عرار نجد».
وفي الأمثال العربية القديمة الشائعة: «مرعى ولا كالسعدان»

[الفيصل]

ليتها تقوى يداي

باسم بكور

إدلب. سورية

هل عادَ يذكرُنا الشتاءُ

أم إننا للوهلةِ الأولى نسينا وجهَنا

ما اعتدتُ إلا أنْ أكونَ كما أكونُ

لكنني للوهلةِ الأولى نسيتُ

وأنا أردِّدُ بعضَ ما حفظَ الصديقُ

عني وعن وجهي الشتائي الحزينْ

وأنا لأبتدئ البدايةَ من جديدْ

صمتٌ سيسكُنُ هدأتي

حتمًا سنرجعُ بعدَ حينٍ خاسرينْ

حتمًا سيسألني الرفاقُ عن الهزيمةْ

قالَ الصديقُ: أأنتَ أنتْ

للوهلةِ الأولى.. فقدتُ الذاكرةْ

للوهلةِ الأولى.. نسيتُ

***

يا بحرُ كم عانى الغريقُ

كم مرةٍ مرَّ الشتاءُ على يديَّ بلا مطرْ

يا ليتَ أشرعتي لهيبٌ

يا ليت ذاكرتي سرابٌ

يا بحرُ إنْ صادفتَهم ردِّدْ أكاذيبَ المساءْ

ردِّدْ أكاذيبَ المساءِ ولا تَعُدْ

عيناي أبعدُ ما تكون.. عينايَ أبعدُ من مداكْ

وأنا الغريقُ بلا قرارٍ فاغتنمْ

يا بحرُ إنْ هبّتْ رياحيَ فاغتنمها

وسُدِّ الجسدَ العُبابْ

***

أنا طفلُ هذا الصمتْ

والعرافُ قد أوحى إليَّ بما تبقى من حياةْ



عذرًا فإني متعبٌ بالحُلم تنفيني القصيدةْ

أنت القصيدةُ أم دمي

أم إنّه المنفى يلوِّح للبعيد

إني أحبُك ليتَها تقوى يدايْ

يا ليتَ أشرعتي تعودُ

تبًا لحزني لا يغيمُ ولا يشيخْ

تبًا لرُؤْيتِك البريئةِ أيها العرّافُ إني متعبٌ

والقلبُ ضيّعه الحنينْ

***

هيئْ لنا الصمتَ القديمْ

يا صاحبي هيئْ لنا حُزْنَ المساءْ

فالبحرُ يغدو أجملَ الأشياءْ

والبحرُ ذاكرةٌ لها لونُ الذين أحبهم

والبحر أعمقُ من رؤايَ ومن رؤاكْ... والبحرُ أعمقُ في الظلامْ

هل عادَ يذكرُنا الشتاءْ

أم إنها للوهلةِ الأولى ستنسى وجهنا

قصص قصيرة

ثلاث قصص قصيرة

محمود أبو فروة الرجبي
الزرقاء - الأردن

السعادة

كان يبحث دائماً عن السعادة، ولكنه لم يجدها.
بحث عنها في وجوه العشاق، وفي جيوب الأغنياء، وفي تسلط الظلام، وفي كل شيء، فكان كأنه يبحث عن سراب.
أخيراً، وعندما وصل إلى حالة توأمة مع اليأس، نسج من خيوط الفجر رحما أبيض لأم حنون، ثم استلقى بداخله، وراح في نوم عميق.

شجاعة

لم يمتلك الشجاعة ليقول لها أحبك.
لم يتجرأ ويحدثها بشوقه.
فقط..امتلك الإرادة ليبكي كثيراً حينما قالت له: أحبك.

لسان!

عندما سمع أن اليهود سفكوا الدماء داخل الحرم الإبراهيمي الشريف في الخليل، قرر إعطاء لسانه إجازة أبدية وحمل بندقيته، وهم بالارتحال صوب رائحة العنب والتين.
أبوه قال وهو يبتسم ابتسامة يأس:
- ماذا ستفعل البندقية أمام طائرات أولاد .... الأمريكان؟
وابن خالته الصحفي قال:
مشكلتك يا ابن عمتي أنك تعيش في التسعينيات لكن عواطفك غارقة في بحر الخمسينيات.



وابنة الجيران التي تدرس الفلسفة في الجامعة قالت:
- مشكلة الشباب أنهم غير واقعيين.
واستمر في سيره كأنه لم يسمع شيئاً، وفي اليوم التالي سكت الجميع وزغردت أمه عندما أعلنت الأخبار مقتل خمسة جنود من جنود الاحتلال واستشهاد شاب فلسطيني لم يعثروا في فمه على لسان.

أتسمع نباح الكلاب؟

خوان رولفو*

ترجمة: علي عبد الرزوف البمبي

طنطا - مصر

- أنت، يا من تجثم هناك فوق، إجنانيو، أخبرني إذا كنت تسمع شيئاً أو تلمح ضوءاً من أي جهة.

- لا يرى شيء.

- لابد أن نكون قريبين.

- نعم، لكن لا يسمع شيء.

- انظر جيداً.

- لا يرى شيء.

- مسكين، يا «إجنانيو».

استمر الخيال الطويل والأسود للرجلين يتحرك صعوداً وهبوطاً، يتسلق الحجارة، يصغر ويكبر تبعاً لتقدمه على شاطئ النهر الصغير. كان خيالاً واحداً يتأرجح.

كان القمر يتصاعد من الأرض مثل كتلة مستديرة من اللهب.

- المفروض أن نكون قد وصلنا الآن إلى تلك القرية، يا «إجنانيو». أنت يا من لا يعوق أذنيك عائق؛ هناك فوق، أرهف السمع وانظر إذا كان يصل إليك نباح الكلاب. تذكر أنهم أخبرونا أن «تونايا» تقع خلف الجبل بقليل. وها نحن أولاء قد تركنا الجبل منذ ساعات.

لا تنس، يا «إجنانيو».

- لم أنس، لكنني لا أرى أثراً لشيء.

- التعب يقصم ظهري.

- أنزلني.

نكص العجوز على عقبيه حتى أسند عجزه إلى الحائط الكبير للوهدة، وهناك عدّل حمولته دون أن يلقيها على الأرض. لم يفكر في الجلوس على الرغم من ساقيه الخائرتين، لأنه لو فعل لما استطاع من جديد رفع جسد ابنه الذي عاونه آخرون، قبل ساعات، في تحميله على ظهره. ومن وقتها وهو يسير به هكذا.

- كيف حالك؟

- في غاية السوء.

كان يتحدث قليلاً. كل مرة أقل من سابقتها. تمر عليه أوقات يبدو فيها نائماً، وأوقات أخرى يتملكه البرد. كان يرتجف. كان يستدل على الوقت الذي تتملك فيه ابنه القشعريرة من هزاته له، ومن رجليه الملتصقتين بجنبيه كالمهمازين، وأيضاً من يديه الملتفتين حول عنقه عندما تحركان رأسه حركات توقيعية كما لو كانت صنوج دف.

كان يصر على أسنانه حتى لا يعض لسانه وعندما يذهب هذا عن ابنه يسأله:

- تؤلمك جراحك كثيراً؟

- شيء من هذا القبيل - كان يجيب.

قال له في البداية: «أنزلني هنا... اتركني هنا... اذهب وحدك. سألحق بك غداً أو عندما أسترد بعض عافيتي». طلب منه هذا ما يقرب من الخمسين مرة. أما الآن فلم يعد يقوى حتى على مجرد طلب هذا.

كان القمر هنالك. في مواجهتهما. قمر كبير ملون يغمر عيونهما بالضوء، ويبالغ في مط وتسويد خيالهما على الأرض.

- لا أرى موضع قدمي ولا أدري إلى أين تأخذني - قال العجوز.

لم يجبه أحد.

الآخر كان معتليا هناك فوق، ملفوفاً كله بنور القمر، بوجه ممتقع، يخلو من قطرة دم، عاكساً ضوءاً معتماً. وهو هناك تحت.

- ألم تسمعني، يا «إجنانيو»؟ أقول لك: إنني لا أرى أمامي.

بقي الآخر صامتاً.

واصل سيره، متعثراً. كان ينكمش ثم يفرد قامته ليعود للتعثر من جديد.

- ليس هذا هو الطريق. أخبرونا أن «تونايا» على مرمى حجر بعد الجبل، وها نحن أولاء قد تركناه وراء ظهرينا ولم تظهر «تونايا» ولا يسمع صوت يستدل به على قربها. لماذا تستنكف عن إخباري بما ترى، أنت يا من تجثم هناك فوق، «إجنانيو»؟

- أنزلني، يا أبي.

- أتشعر بألم؟

- نعم.

- سأوصلك إلى «تونايا» مهما بعدت الشقة. سأجد هناك من يعتني بك.

يقولون: إن بها طبيباً، وسأحملك إليه. احتملتك ساعات لآتي بك، ولن أتركك طريحاً هنا لينال منك أعداؤك.

ترنح قليلاً، خطا خطوتين أو ثلاثاً يمنة ويسرة ثم انتصبت قامته من جديد.

- سأحملك إلى «تونايا».

- أنزلني.

خرج صوته ضعيفاً، قريباً من الهمهمة.

أريد الاضطجاع ولو قليلاً.

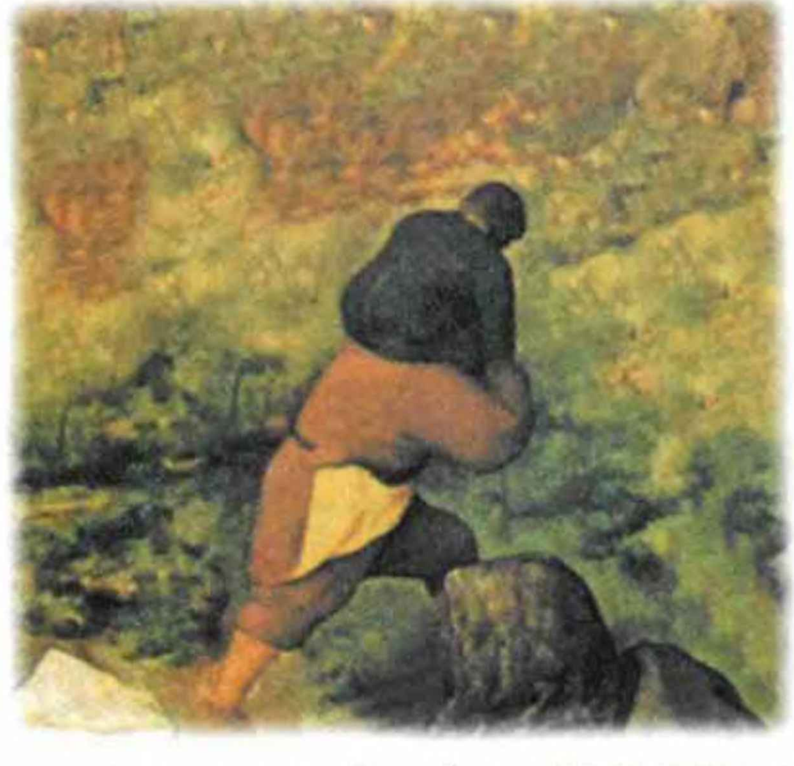
- نم حيث أنت، فأنا أمسك بك جيداً.

كان القمر يواصل صعوده، بلون يقترب من الزرقة، فوق سماء صافية. غمر الضوء وجه العجوز المبلل بالعرق، أغمض عينيه لكي لا ينظر أمامه، إذ لم يكن باستطاعته طأطأة الرأس الذي تتشبث به يدا ابنه.

- لا أفعل هذا من أجلك، بل من أجل المرحومة والدتك. أفعله فقط لأنك كنت ابنها. كانت ستؤنبني لو تركتك ممدداً هناك، حيث وجدتك ولم ألم شعثك وأحملك لمن يداويك، كما أفعل الآن. هي التي تبث في روح العزيمة، وليس أنت. لا أدين لك إلا بالمتاعب الجمة والتلظي بنيران العذاب وحمرة الخجل.

كان يتفصد عرقاً في أثناء كلامه، لكن هواء الليل كان يتكفل بتجفيف عرقه، ويعود ليعرق من جديد فوق عرقه الجاف.

- سينكسر حقي، لكنني سأصل بك إلى «تونايا» لكي يعالجوا هذه الجروح التي أحدثوها بك. وأنا على يقين بأنك ستعود إلى



سيرتك الإجرامية الأولى بمجرد أن تُشفى. لن يهمني هذا، ما دمت ستبتعد عني وتنقطع أخبارك. مادمت... لأنني لم أعد أشعر ببنوتك. لقد دنّست الدم الذي يسري في عروقك مني، لهذا لعنت الجزء الذي يخصني فيك. دعوت الرب أن: «يفسد ما تحتوي عليه كليتاك من دمي». قلت هذا بعد أن عرفت أنك تقطع الطرق، وتعيش على السرقة، وإزهاق أرواح الناس... المسالمين الطيبين. وإلا، فماذا تقول في أبي من العماد «ترانكيلينو»، الذي عمّدني والذي عمّدك أنت الآخر وأعطاك اسمه، ومع هذا لم تتورع عن قتله. من يومها قلت لنفسي: «هذا لا يمكن أن يكون ابني».

- انظر حواليك لعلك ترى أو تسمع شيئًا. تستطيع فعل هذا من علٍ حيث تجلس، لأنني بدأت أشعر بالصمم.

- لا أرى شيئًا.

- عاقبة هذا وخيمة بالنسبة إليك، يا «إجناثيو».

- أنا عطشان.

- تحمل. لابد أننا قريبون الآن. نحن في الهزيع الأخير من الليل، ولابد أنهم أطفؤوا أنوار القرية. لكن على الأقل لابد أن يكون قد تناهى إلى أذنيك نباح الكلاب. أرهف السمع.

- أعطني ماء.

- المكان يخلو من الماء، لا توجد سوى الحجارة. تحمل. وحتى لو كان الماء موجودا فلن أنزلك لتشرب؛ لأنه لايوجد أحد يساعدني على حملك ثانية، وأنا وحدي لا أقدر.

- العطش يقتلني والنعاس يثقل رأسي.

- أتذكر أنك منذ ولادتك كنت هكذا. كنت تصحو من نومك جائعا، وتأكل ثم تعود للنوم. كانت أمك تعطيك ماء بعد أن تفرغ ما في صدرها من لبن. لم تكن تمتلئ ولا تشبع قط. وكنت غضوبا وحنقا، ولم أتخيل مطلقا أن يصعد الحنق إلى رأسك بمرور الأيام... لكن هذا ما حدث. وأمك، عليها الرحمة، كانت تريد تنشئتك قوي البنية. كانت تعتقد أنك ستكون سندها عندما تكبر. لم يكن لها غيرك. الابن الثاني الذي كانت ستلده قتلها. وكنت ستقتلها ثانية لو عاشت وشاهدت ما أنت فيه.

أحس بتراخي ركبتي ذلك الرجل الذي اعتلى ظهره، وبعدم تحكمه في قدميه، وبشروعه في «التمايل» جهة اليمين وجهة اليسار. وبدا له الرأس الموجود هناك فوق ينتفض وكأنه ينتحب.

أحس بتساقط قطرات سميكة فوق شعره، مثل الدموع.

- أتبكي، يا «إجناثيو»؟ أهاجت مشاعرك ذكرى والدتك، حقا؟ لكنك لم تُسدِ لها أي معروف. لم نلق منك إلا جزاء سنمار. يبدو أننا، بدلاً من الحنان، ملأنا بالشر جسدك. ألا ترى؟ لقد أثخنوك بالجراح. وماذا جرى لأصدقائك؟ قتلوهم على بكرة أبيهم. لكنهم مقطوعون من شجرة، دون أهل. وكأن لسان حالهم يقول: «لا يوجد من يهمه أمرنا أو يحزنه مصيرنا». أما أنت، يا «إجناثيو»، أنت؟

ها هي ذي القرية. شاهد أسقف المنازل وهي تلمع تحت ضوء القمر. تولّد لديه الانطباع بأن ثقل ابنه يسحقه عندما أحس بانثناء مفاصله تحت وطأة آخر مجهود عليه أن يبذله. عندما وصل إلى أول بيت مال على حافة الرصيف وألقى بالجسد المُنهك المُفكك الأوصال.

تخلص بصعوبة من أصابع ابنه التي كانت متشبثة بعنقه، وعندما تحرر من حمولته خال أن نباح الكلاب يأتي من جميع الاتجاهات.

- ألم تكن تسمعها، يا «إجناثيو»؟ - قال - إنك لم تساعدني حتى بهذا الأمل.

الهوامش

• «خوان رولفو» Juan Rulfo كاتب مكسيكي معاصر، ولد عام ١٩١٨م. أعماله قليلة، ومع هذا يحتل مكانًا مرموقًا على ساحة الإبداع الروائي في أمريكا اللاتينية لما يتمتع به إنتاجه من إتقان وتفرد.. إنه يتناول - في كتاباته - ما يعرفه ويحس به من خلال اتصاله المباشر والعميق بالأشياء الجوهرية (الحب، الموت، الأمل، الفقر، العنف، الطبيعة، القهر ...إلخ)، ويعرض الحقائق عارية بأسلوب خالٍ من الشوائب ولغة حادة موجزة مثل عالمه.. ليس واعظًا ولا فيلسوفًا بل مجرد إنسان مرهف الحس تلظى بنيران الاضطرابات والثورات التي فقد فيها جميع أفراد أسرته، ببكي بحرقة دياره التي كانت مروجًا في الماضي، وحولها العنف إلى يباب. ولذا فكل شخصياته - تقريبًا - حزينة مكفهرة خانعة لقدر عات لا يمكن دفعه.. من أهم أعماله: «السهل يحترق» (مجموعة قصص قصيرة)، «بدرو بارامو»؛ «سلسلة الجبال».

كنت حلماً

محمد سيف حيدر
صنعاء - اليمن

كان يمشي بخطوات وئيدة على قارعة الطريق الملوثة بالغبار المتجمد، وزخات المطر تنهمر من السماء تلثم جسده البالي بعنف رحيم، «آه.. ما أقسى لفحات البرد!»، هكذا حدّث نفسه، والحديث مع نفسه التائهة يبعث في أوصاله شبه المتجمدة نوعاً من الدفء ينسيه - بعض الشيء - ذلك البرد المضني.

«سيارة ما تمرق مسرعة بجواره.. جسده يتألم مع اكتمال لوحة الأوحال المتناثرة على ملابسه.. أو ما يمكننا أن نطلق عليه اسم الملابس!!»

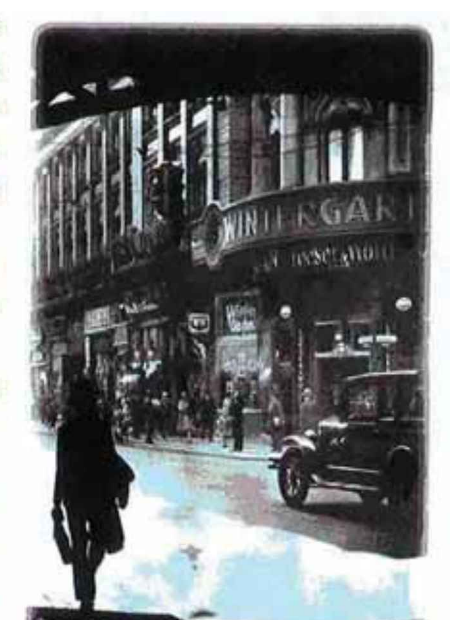
إنه لا يهتم، لقد اعتاد هذه الحياة إن لم تكن هي قد اعتادته!، لم يكن يرتدي ما يستره حقًا حتى يدفئه.. مجرد بنطال غريب فضفاض قصير الطول، وقميص ضيق كقميص طفل في العاشرة.. قميص أبيض.. أو كان أبيض منذ حين.. لقد كان نفسه يضحك من مظهره الذي ينعكس على واجهات المحلات التجارية اللامعة.. كان أشبه بمهرجي السيرك الذين لا يُضحِكون إلا الحمقى أمثالهم..!!

«دفقات المطر تشتد، وخطواته تتباطأ رغمًا عنه».

ها هو ذا يمر منحني الرأس كالناظر عقوبة الإعدام حدًا بالسيف، يداه مسترخيتان على جانبيه... و«لمحة من ضوء أصفر باهت تمسح وجهه فاحصة ثم تنسحب في لا مبالاة..!!»

يده اليمنى تتسلل باحثة عن شيء ما، تدلف دون استئذان إلى جيب بنطاله الواسع، وتخرج حاملة في قبضتها وريقات قليلة من المال ابتلت بالماء... يقلبها - أمام عينيه الواهنتين - أسفًا... ويصرخ في أعماقه السحيقة:

- «أهذا كل ما لديك أيها الإنسان الشقي؟!... ويلك ما بالك صامتًا.. تكلم... أهذا كل ما تملكه في دنياك المشؤومة؟!!... وريقات مبتلة كانت قبل قليل تسمى نقوداً، وخرقتان باليتان لا تكادان تستران جسدك شبه المسجى.. آه ما أتعسك! وما أقسى الحياة!.. لماذا قذفتك منبوذًا منفيًا؟! وأين؟.. هنا في منفى وطنك الأبدي.. وطنك الذي حلمت به عالمًا آخر ذات يوم...»



خدر البؤس يجري في عروقه مجرى الدماء وهو يجوب طرقًا ضيقة.. ربما تقوده إلى مكان ما يبيت الليلة فيه..

«سيارة ما تقترب، ضوءها الباهت يجوب في هدوء مساحات الطريق الرمادية»..

- «ويل لهذا الوطن المنفي من صمت البائسين.. ويله من تأوهات العاجزين.. ومن عبرات أطفاله المشردين.. ويله من أزقة الظلام المخيفة حيث تقبع خفافيش البشر من المجرمين.. ويله..!»...

الدفء يسري في جسده من جديد...

«ضوء السيارة يدنو أكثر»

أنفاسه تختنق.. تزداد اختناقًا، صدره يناور الهواء في صعوبة.. حلمه المغشي عليه في جنبات عقله.. مستلقٍ على سرير تفكيره الرمادي...

«إنه لا ينتبه!!»..

قدماه في الظلام تتعثران بجسد كلب ميت ممزق الأحشاء.. سحق تحت عجلات سيارة ما عمداً أو بغير عمد...!

«صوت صرير عجلات السيارة يصرخ معلنًا احتجاجه.. انتبه يا غبي!!»

لم يلتفت إلى الوجوه الغاضبة القابعة في جوف السيارة الحار... كان همه الآن لملمة وريقاته اللائي تحررت من قبضة يده لتطير مع الأنسام القارسة البرودة...

جمعها بعد عناء شديد.. ثم مضى وهو يتمتم في صدره الدافئ: «أيها الوطن الجميل.. لقد كنت حلماً»

زخات المطر تنهمر بشدة أكبر، ولمع البرق يضيء جنبات الطريق...

رحلة في كتاب

تاريخ إيران السياسي بين ثورتين

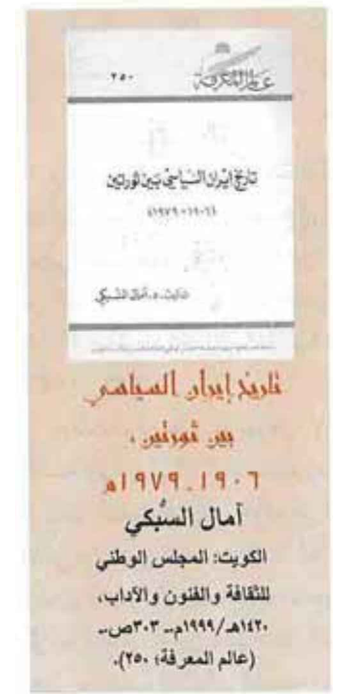
مراجعة: **فؤاد حمد رزق فرسوني**
الرياض - السعودية

صدر هذا الكتاب في إطار سلسلة كتب «عالم المعرفة» الشهرية التي بدأ صدورها منذ عام ١٩٧٨م عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب في دولة الكويت.

وهذا الكتاب الذي نتناوله بالعرض والتحليل من تأليف الدكتورة آمال كامل السُبكي، وهي خريجة في جامعة القاهرة، ونالت درجة الدكتوراه منها في عام ١٩٦٩م، أي منذ ثلاثة عقود، وكان لها فيها دراسات سياسية مختلفة عالجت، من بين ما عالجته، الحياة السياسية في مصر، والعراق، والمشرق العربي بعامة، وكذلك الإستراتيجية الأمريكية في المنطقة العربية، كما نشرت دراستين تناولتا: الملاحة البريطانية في البحر الأحمر، والوجود السوفييتي في أفغانستان، ويبدو من العرض السريع لدراساتهاالسياسية أنها اتصلت بالعالمين العربي والإسلامي، والأبعاد السياسية والإستراتيجية للعلاقات الأمريكية والأوربية والسوفييتية بهما.

خلفية تاريخية

وتبحث المؤلفة التحولات السياسية والاجتماعية في إيران في فترة تاريخية حاسمة من حياتها امتدت بين حدثين خطيري الأهمية هما: الثورة الدستورية عام ١٩٠٦م، وما تمخض عنها من ممارسة فعلية للمعارضة السياسية في إيران منذ القهر السياسي للأسرة القاجارية، والمحاولات التي تلت ورمت إلى بناء دولة عصرية في أثناء فترة حكم الأسرة البهلوية، التي شهدت الصراع الدولي حول إيران إبان الحرب العالمية الثانية، والصراع السياسي الداخلي مع قوى المعارضة منذ ثورة مصدّق حتى قيام الثورة الإسلامية وهو الحدث الثاني الخطير، ويسوق الكتاب من المعلومات ما يعزّز الفهم العربي لأحوال إيران وقضاياها وهموم شعبها بوصفه شعباً إسلامياً تربطه بالأمة العربية وشائج عقدية وثقافية وغيرها.



تاريخ إيران السياسي بين ثورتين ١٩٠٦-١٩٧٩م
آمال السُبكي
الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م- ٣٠٣ص- (عالم المعرفة؛ ٢٥٠).

وتنعقد معالجة مباحث الكتاب في فصول تسعة وخاتمة توزع توريقها على النحو التالي:

الفصل	عدد الصفحات	النسبة المئوية إلى مجموع صفحات الكتاب	المرتبة
الأول	٣٣	٩ر١٠	٢
الثاني	٣٥	٦ر١١	١
الثالث	٢٧	٩ر٨	٦
الرابع	٢٩	٦ر٩	٤
الخامس	٢٧	٩ر٨	٦
السادس	٢٧	٩ر٨	٦
السابع	٣١	٢ر١٠	٣
الثامن	٢٩	٦ر٩	٥
التاسع	٢٧	٩ر٨	٦
الخاتمة	٠٩	٩ر٢	٧

وعالجت المؤلفة موضوعات كتابها بتوازن واضح، وإن كانت قد أولت عناية خاصة لأوضاع إيران بين الحرب العالمية الأولى وتولّي رضا شاه الحكم في الفترة من ١٩١٤ ـ ١٩٢٥م، وإيران من الثورة الدستورية حتى الحرب العالمية الأولى: ١٩٠٦ ـ ١٩١٤م، وأوضاع إيران الداخلية في عهد محمد رضا شاه: ١٩٤١ ـ ١٩٧٧م.

ويلاحظ أنه على الرغم من أن المؤلفة ترى أن «الثورة الإسلامية عام ١٩٧٩م احتلت موقعاً بارزاً في هذه الدراسة بوصفها الحدث السياسي الأهم في العالم الإسلامي خلال النصف الثاني من القرن العشرين»، إلا أنه من حيث تفصيل المعالجة فإن الفصل الثامن الذي تناولها تحت مسمى «الثورة الدينية» قد تبوأ المرتبة الخامسة من حيث عدد الصفحات التي خصصتها لكل فصل من فصول كتابها التسعة ويظهر ذلك للقارئ المحّص أن المؤلفة قد أعطت اهتماماً أكبر لمناقشة الخلفية التاريخية السابقة للحياة والأحداث السياسية في إيران وموقعها وعلاقاتها على الخريطة السياسية الدولية، فكأن «الثورة الدينية» المتأججة في الفترة من عام ١٩٧٧ ـ ١٩٧٩م كانت المحصلة للوقائع والإرهاصات التي تقدّمت، مما يسعف القارئ أن يؤطّر معالجة الكتاب بغض النظر عن حدود الفصول في ثلاثة تناولات: أحوال إيران ما قبل «الثورة الدينية»، «فالثورة الدينية»، ثم ما أطلقت عليه المؤلفة «توطيد الحكومة الدينية ١٩٧٩ ـ ١٩٨٩»؛ وفي هذا التأطير لمعالجة الكتاب إذن تغدو «الثورة الدينية» قلب هذه المعالجة ومحورها ومحل تركيزها؛ والذي يشير إلى أن المؤلفة قد اعتمدت هذا المدخل في معالجتها ما ورد في بداية الفصل الأول من الكتاب: إيران من الثورة الدستورية حتى الحرب العالمية الأولى، ١٩٠٦ ـ ١٩١٤م؛ حيث ذهبت إلى أن «حركات التاريخ الإنساني شأنها شأن دورة الكون، تخضع لديناميات محكمة، تدفعها مقدمات كاشفة تؤدي إلى تغيرات، وعليه فإن تاريخ إيران في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين زخر بومضات وعي يقظة».

الدولة القاجارية وتزايد النفوذ الأجنبي

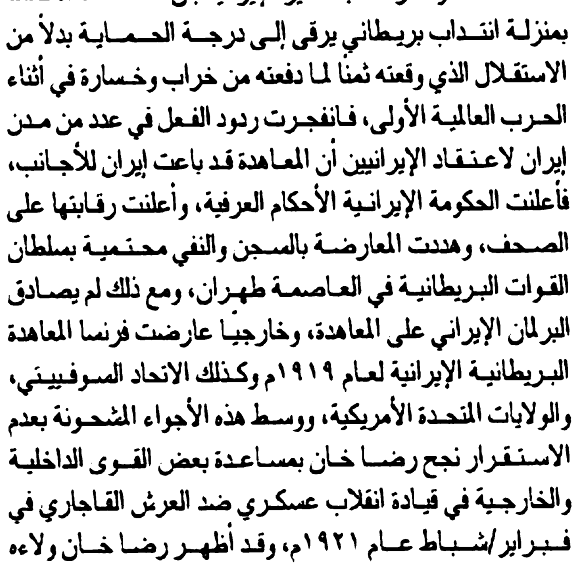
وقد بحثت المؤلفة في أحوال إيران في عهد الدولة القاجارية الذي تغلغل فيه النفوذ الأجنبي في الاقتصاد الإيراني خاصة إبان حكم ناصر الدين شاه عام ١٨٤٨ ـ ١٨٩٦م، وحكم مظفر الدين شاه من بعده، مما أفضى إلى قيام الثورة الدستورية؛ أي إن العامل الاقتصادي قد شكل الدافع الاجتماعي الأساسي للثورة الدستورية، والتحرك الاجتماعي ضد الأسرة القاجارية، ولقيت تلك الثورة مساندة الطبقة الإيرانية المثقفة التي أفرزتها الإصلاحات المحدودة في عهدي ناصر الدين شاه، فمظفر الدين شاه، ودعم رجال الدين الشيعة الذين وجدوا في التغلغل الأجنبي تهديداً مباشراً لمعتقداتهم الدينية، ومعوقاً لنفوذهم الاقتصادي الناجم عن تحالفهم الدائم مع «تجار البازار وملاك الأراضي لأن التمويل الرئيس لرواتب رجال الدين ومؤسسات الأوقاف والتكايا والمدارس الشيعية التي تديرها المؤسسات الدينية في طول البلاد وعرضها يخرج من جيوب التجار وكبار الزراع الإيرانيين». وكانت الشيعة فرقاً ضمت الحيدرية والنعمانية والإمامية الاثني عشرية والإسماعيلية والكريم خانية والشيخية؛ ومما يعزى من فضل للثورة الدستورية لمّ شتات المجتمع الإيراني أول مرة ليتصدى إلى السلطة القاجارية مطالباً بوضع أساس برلماني يحمي حقوق المواطنين في مواجهة الحكومة المستبدة التي أسهم في دعم وجودها، وتنفيذ مآربها، ووصولها إلى مصالحها تدخلات الدول الأجنبية الطامعة في ثروات إيران مستغلة أوضاعها السياسية واختراق نسيجها الاجتماعي، وانتهت تلك التدخلات إلى عقد اتفاقيتي تركمانجاي عام ١٨٢٧م، وباريس عام ١٨٥٨م مع روسيا وبريطانيا، وترتب عليها تنازلات إقليمية واقتصادية، شملت حق الدولتين في إنشاء وكالات تجارية في طهران، ومنح الإعفاءات الجمركية على بضائعهما، وتخفيض عائدات رسوم عبور الطرق الإيرانية، مما أسفر عن إغراق الأسواق الإيرانية بالبضائع المستوردة العالية الجودة، وتدهور الصناعات الإيرانية

وتراجعها بما فيها صناعة النسيج اليدوي التي فرض تصدير منتجاتها للدولتين بالأسعار التي كانوا يرتضونها، وهكذا كان الاقتصاد الإيراني موجهاً لخدمة مصالح الدولتين، وتحول السوق الإيراني إلى سوق استهلاكي لبضائعهما؛ واحتكرت بريطانيا شراء التبغ وتصنيعه في جميع أقاليم إيران عام ١٨٩٧م وسمح لها بالتنقيب عن النفط في جنوب إيران عام ١٩٠١م، وهيمنت روسيا على حق صيد السمك من بحر قزوين، وتأمين الطرق شمال إيران، والإشراف على إنتاج السجاد في «سلطان أباد»، وزراعة القطن في خراسان، وزراعة الأفيون في كرمان. وتفاقمت الأوضاع الاقتصادية في إيران، وبرز تهديد الأجانب لأرزاق التجار ومصالحهم ومصالح المستفيدين من عطاياهم وأموالهم التي كانت تدار بها التكايا والمدارس الدينية، فتآزر المتضررون من التجار وعلماء الدين ضد المصالح الاقتصادية الأجنبية، والنفوذ المتنامي للأسرة القاجارية الحاكمة ورجال البلاط، واستلهم رجال الدين فكرة ارتباط عودة الإمام المنتظر بنصرة المستضعفين، وعمل مجتهدو النجف الكبار على التنديد بسياسة الدولة الظالمة ضد المؤمنين، وهكذا توافر في بنية العقيدة الشيعية الإمامية الاثني عشرية نوع من العداء العملي للسلطة، ووجهت مشاعر السكان لمواجهة السلطة، وقد شاع تأسيس الجمعيات السياسية السرية المناضلة ضد القاجاريين، وأخذت بوادر الحركة الوطنية الإيرانية تظهر بقوة في الفترة من عام ١٨٩١ - ١٩٠٦م؛ وتجدر الإشارة إلى أن الجماهير الإيرانية الغاضبة قد خرجت عام ١٩٠٥م منادية بطرد المدير البلجيكي للجمارك الإيرانية، وخضع مظفر الدين شاه لمطالب لجنة القيادات الإيرانية عام ١٩٠٦م، فوقع على وثيقة إنشاء الجمعية الوطنية لإنشاء الدستور، وأعدت اللائحة الأساسية للانتخابات عام ١٩٠٧م، ونصت على حق جميع المواطنين في المشاركة في الانتخابات؛ وعطلت الحياة النيابية في عهد ميرزا محمد علي، وعلى الرغم من إعلان الشاه عودة الحياة النيابية في أبريل/ نيسان عام ١٩٠٩م، إلا أن الجماهير الإيرانية أزمعت على مواجهة الشاه، وهزمت قواته في يونيو/حزيران عام ١٩٠٩م فاضطر الشاه إلى الهروب، وقررت القوى والقوات الوطنية الإيرانية عزل الشاه وتعيين ابنه أحمد ميرزا خلفاً له، وتكليف رئيس الوزراء بإدارة شؤون الحكم نائباً للشاه الصغير الذي لم يكن يتجاوز الثانية عشرة من عمره. وخشيت بريطانيا وروسيا على مصالحهما فأرسلتا بوارجهما وقواتهما لتعقب الثوار وإعادة الهيمنة على إيران، وقد عطل المجلس النيابي رسمياً في ديسمبر/ كانون الأول عام ١٩١١م، وافتتحه أحمد ميرزا بعد ثلاث سنوات عندما أراد أن يتوج ملكاً رسمياً بعد بلوغه سن الرشد، وأعلن في خطابه عقب تتويجه حياد إيران، ثم جرى إغلاق المجلس النيابي للمرة الثالثة في عام ١٩١٥م، وهكذا انطوت صفحة الحياة والثورة الدستورية.


شاه إيران السابق محمد رضا بهلوي

إيران ما بعد الحرب العالمية الأولى

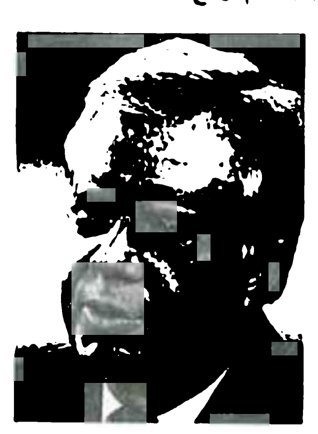
وفي الفصل الثاني ناقشت المؤلفة أحوال إيران بين الحرب العالمية الأولى وتولي رضا شاه الحكم عام ١٩١٤ - ١٩٢٥م، وأبرزت السعي إلى تحقيق قدر من الاستقلال في تدبير شؤون إيران في وجه التدخلات الأجنبية وصراعات مصالحها، ومحاولاتها الهيمنة على اقتصاد الدولة، وتدهور سلطة الحكومة المركزية في طهران، وكانت بريطانيا تتطلع إلى تقوية نفوذها في إيران، وأثار نهمها النفط المتدفق من أراضي إيران بتزايد، فعقدت اتفاقية مع إيران عام ١٩١٩م وصفتها «بالمعاهدة الكريمة» وتضمنت بنودها تنظيم مالية إيران وقواتها بغية تطويرها وتحديثها - على حد قول الساسة البريطانيين -، إضافة إلى حق إنشاء خطوط السكك الحديدية والطرق البرية لربط المدن الإيرانية، وهكذا فرضت هذه المعاهدة الوجود البريطاني على إيران بقوة، وبغلاف قانوني، وشعرت الجماهير الإيرانية بأن تلك المعاهدة كانت بمنزلة انتداب بريطاني يرقى إلى درجة الحماية بدلاً من الاستقلال الذي وقعته ثمناً لما دفعته من خراب وخسارة في أثناء الحرب العالمية الأولى، فانفجرت ردود الفعل في عدد من مدن إيران لاعتقاد الإيرانيين أن المعاهدة قد باعت إيران للأجانب، فأعلنت الحكومة الإيرانية الأحكام العرفية، وأعلنت رقابتها على الصحف، وهددت المعارضة بالسجن والنفي محتمية بسلطان القوات البريطانية في العاصمة طهران، ومع ذلك لم يصادق البرلمان الإيراني على المعاهدة، وخارجياً عارضت فرنسا المعاهدة البريطانية الإيرانية لعام ١٩١٩م وكذلك الاتحاد السوفييتي، والولايات المتحدة الأمريكية، ووسط هذه الأجواء المشحونة بعدم الاستقرار نجح رضا خان بمساعدة بعض القوى الداخلية والخارجية في قيادة انقلاب عسكري ضد العرش القاجاري في فبراير/شباط عام ١٩٢١م، وقد أظهر رضا خان ولاءه



للبريطانيين، وكان من مسانديه ضياء الدين طباطبائي من رجال الدين المستنيرين، وأحد أنصار الثورة الدستورية، ومؤسس صحيفة «رعد» الليبرالية، وقد عرف بكراهيته للسوفييت الشيوعيين وتقريبه للبريطانيين، وقد عكف رضا خان منذ انقلاب عام ١٩٢١م على تقوية الجيش الإيراني وتزويده بالحديث من الأسلحة والمعدات، وبدأت النزاعات بينه وبين الشيخ خزعل والي عربستان منذ عام ١٩٢٢م، وتصاعدت تلك النزاعات إلى أن انتهت بسيطرة إيران على إمارة عربستان عام ١٩٢٥م، ومما أذكى طمع رضا شاه في الإمارة ثروتها النفطية، وقد كسب رضا شاه توقير رفاقه وشعبه لتولي رئاسة الأسرة البهلوية رسمياً في فبراير/شباط عام ١٩٢٥م بعد القضاء النهائي على الأسرة القاجارية، وحاول خطب ود الولايات المتحدة الأمريكية فتم توقيع اتفاقية لتقوم شركة «سنكلير» الأمريكية باستغلال بترول الشمال.

رضا بهلوي وسياسته الداخلية

استهل الفصل الثالث «سياسة رضا بهلوي الداخلية ١٩٢٥م» بتناول الإصلاحات الاقتصادية التي أحدثها في سعيه لتعزيز سلطته ومكانته، وظهرت طبقة أرستقراطية من أنصار الشاه وكبار موظفي الدولة والتجار والإقطاعيين، وأدى استحواذ رضا بهلوي على أجود الأراضي في شمال إيران، واحتكاره زراعة الأرز المحصول الرئيس للطعام، وكذلك «الترياك» أو الأفيون إلى تضخم ثروته وثروات مؤيديه من كبار الإقطاعيين. وقد عني بدعم الجيش والصناعة، وحظيت الزراعة بالمرتبة التالية من اهتمامه، وقد احتكرت الحكومة الإيرانية التجارة الخارجية بقانون أصدرته عام ١٩٣١م لتحقيق التوازن بين الواردات والصادرات، وأصدرت عام ١٩٣٤م قانون رقابة التمويل الذي فرض على التجار الحصول على إذن حكومي لممارسة الاستيراد أو التصدير، وأنشأ الشاه المصرف الوطني عام ١٩٢٨م، وأنشئ البنك الزراعي عام ١٩٣١م، وقام بإلغاء الامتيازات الأجنبية بعد عام ١٩٢٨م لعقد معاهدات تجارية بديلة، وحظر تملك الأجانب للأراضي الزراعية والعقارات، ومنع تنقل الأجانب في البلاد دون إذن من الشرطة. وبالنسبة إلى السياسة النفطية، أعلن الشاه في يناير/كانون الثاني عام ١٩٣٢م إلغاء امتياز «دارسي» مع الشركة البريطانية الذي كان معمولاً به منذ عام ١٩٠١م لما جلبه من أضرار على البلاد واقتصادها، وعقد امتيازاً جديداً وسع مجال عمل الشركة ليشمل مئة ألف ميل مربع، وغدت حصة إيران عشرين بالمئة من الأرباح، وتعهدت الشركة بتدريب الطاقات البشرية الإيرانية، ومكّن تدفق العوائد النفطية من إنشاء الطرق ومد السكك الحديدية لربط الشمال الغني بالمنتجات الزراعية بجنوب إيران المعروف بندرة أمطاره ووعورة أراضيه. وافتتح الشاه المدارس بما فيها مدارس البنات في المدن الكبرى، وسمح بخلع الحجاب على الرغم من الاعتراضات على السفور من جانب رجال الدين وكثير من المواطنين، وأنشأ الشاه عدداً من المحاكم المدنية في المدن ساحباً بذلك البساط من تحت أقدام رجال الدين في القضاء، حيث اقتصرت مهامهم على النظر في الأحوال الشخصية، واشترط على رجال الدين الممارسين للقضاء الحصول على شهادة الحقوق من جامعة طهران أو أي جامعة أوربية، وفرض الشاه لبس الملابس العصرية على رجال الدين، وقلّص عدد المدارس الدينية، وتوسع في بناء المدارس الحديثة، واجتذب عدداً من رجال الدين للعمل في الوظائف الحكومية والقضاء، وألغى الألقاب العسكرية والمدنية على حد سواء عام ١٩٢٨م. وفي عام ١٩٣٥م استولى الشاه على ممتلكات الأوقاف التي آلت إلى إدارة الدولة، ومباشرة الشاه الشخصية لتدبير أمورها.



جيمي كارتر

وقد اهتم بالصناعات العسكرية، وكان الاعتماد الرئيس في إدارة الورش الصناعية والمصانع على الخبرات الأجنبية، وكان للألمان دور متميز في تشييد المصانع وتشغيلها، وتجدر الإشارة إلى أن رضا بهلوي كان معجباً بشخصية هتلر وطموحه؛ وقد بنى الإنجليز مصنعاً لتجميع الطائرات وصناعة بعض أجزائها في طهران، مع وجود فروع له في الأهواز وتبريز وكان ذلك عام ١٩٣٨م، وكانت مدرسة الطيران في طهران تخرج خمسة وعشرين طياراً سنوياً، واستمر التسلح الإيراني من بريطانيا والاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة الأمريكية، ولكن أسلحتهم لإيران كانت أدنى في مستوى جودتها من الأسلحة المستخدمة في تلك الدول ضماناً لاستمرار تفوقها، واستوردت إيران السلاح من مصانع (إسكودا) في تشيكوسلوفاكيا، ومن المصانع الفرنسية.

وقد عمل الشاه على طمس هوية القوميات غير الفارسية وإذابتها في بوتقة القومية الفارسية، خاصة في عربستان، ومناطق الأكراد، والأرمن. وكان الشاه يواصل التضييق على المعارضة وتكميم أفواه المخالفين، فتعاظم سخط رجال الدين

وزعماء القبائل عليه، ورأى الوزير المفوض البريطاني في طهران أن إزاحة الشاه مطلب جماهيري؛ وقد لمس البريطانيون والسوفييت تهديد الشاه لنفوذهم ومصالحهم فكان الغزو الأنجلوسوفييتي في سبتمبر/ أيلول عام ١٩٤١م لإيران، ومغادرة الشاه طهران إلى غير رجعة على ظهر بارجة بريطانية أقلته إلى جنوب إفريقية حتى توفي في جوهانسبرغ عام ١٩٤٤م.

أمريكا وإستراتيجيتها في المنطقة

في الفصل الرابع بحثت المؤلفة: العلاقات الدبلوماسية الأمريكية الإيرانية في عهد رضا بهلوي، ١٩٢٥ ـ ١٩٤١م، وما اعتورها من مد وجزر، وحنق الشاه على ما نشرته بحقه الصحافة الأمريكية، ولا ريب أنه كان هناك صدام بين نظامي البلدين: النظام الديمقراطي المحترم للحريات في الولايات المتحدة، والنظام الديكتاتوري المستبد الذي يقوده الشاه، وقد تطرقت المؤلفة لتوطيد المصالح الأمريكية في عهد رضا بهلوي متناولة نماذج كثيرة، وقد سمح الشاه بعمل الإرساليات الكنسية اللوثرية الأمريكية في بلاده عام ١٩٢٨م، وقد ظلت تعمل مع المؤسسات التعليمية الأمريكية فترة طويلة قبل تعرض ممتلكاتها جميعاً للتأميم.

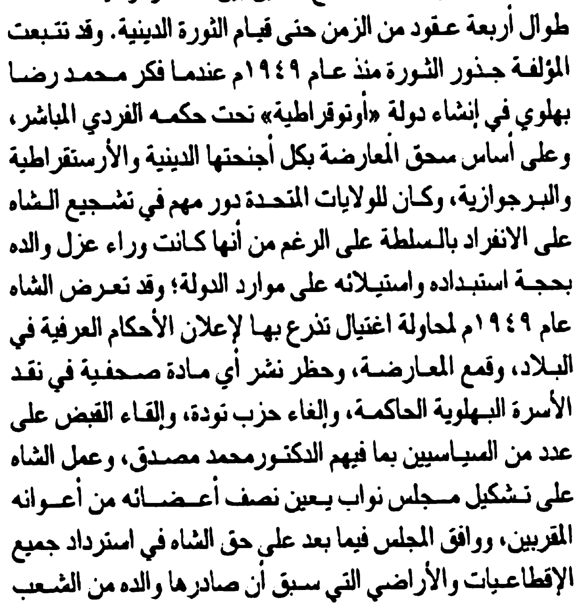


آية الله الخميني

وفي الفصل الخامس: الصراع الدولي حول إيران، ١٩٣٩ـ ١٩٤٢م، تناولت المؤلفة العلاقات الإيرانية الألمانية خلال الحرب العالمية الثانية، وتطرقت لرغبة هتلر في التوسع حتى إيران والقوقاز، والتي كان من شأنها إذكاء مطامع بريطانيا والاتحاد السوفييتي في تأكيد مصالحهما في المنطقة، وقد استغلت الولايات المتحدة الأمريكية الفرصة لترسم خطوط إستراتيجيتها المستقبلية في المنطقة ومحورها إيران كضرورة وكموقع أساسي في دفاعات الحلفاء ضد المحور مرحلياً عقب اختراق هتلر لتخوم الاتحاد السوفييتي، وتقارب الساسة الإيرانيون منها لتنأى عن غلواء المطالب السوفييتية من جهة، والبريطانية من جهة أخرى، وقد دعم الشاه سياسة الولايات المتحدة، وعوّل عليها في حماية حياد بلاده، وافترض أن الوجود الأمريكي حلقة وصل منظمة بين الحلفاء، والشعب الإيراني، ومارست الولايات المتحدة دوراً مزدوجاً في توطيد علاقاتها مع المسؤولين في إيران، وفي الحد من أطماع البريطانيين والسوفييت فيها في الوقت ذاته. وقد وضحت المؤلفة التحركات الألمانية في إيران، وانتشار الألمان في مرافق كثيرة في شتى أرجاء الدولة، وقد طالبت السفارة البريطانية في مارس/آذار عام ١٩٤٢م إلقاء القبض على ستة من موظفي الحكومة الإيرانية لتعاونهم مع المحور، ثم طالبت باعتقال المزيد في يوليو/تموز عام ١٩٤٢م، مما أثار اعتراض الحكومة الإيرانية، وتزايدت الخلافات بين الطرفين البريطاني والإيراني.

أمريكا والانقلاب على الشاه

في الفصل السابع: الأوضاع الداخلية في عهد محمد رضا شاه ١٩٤١ ـ ١٩٧٧م بدأت المؤلفة بمعالجة الصيغة التي اعتلى بها العرش محمد رضا، ومعاصرته للاحتلال الأنجلو سوفييتي لإيران إبان الحرب العالمية الثانية، وإدراكه أهمية وجود جيش قوي للبلاد يوفر الأمن الداخلي والخارجي، وقد كانت الفترة الواقعة بين سنتي ١٩٤١ ـ ١٩٤٥م فترة مهادنة ظاهرية بين الشاه محمد رضا وقوى الاحتلال من جهة، وبينه وبين عناصر الحركة الوطنية الموجهة ضد الاحتلال من جهة أخرى، وكان الحذر والتروي أبرز خصاله الشخصية.



وقد طلب الشاه المساعدة الأمريكية لاستعادة السيطرة على أذربيجان الخصبة الغنية بالنفط وكان يسيطر عليها السوفييت، واستجابت الولايات المتحدة لطلبه، وتعهدت بحماية عرش الطاووس مقابل تسخير إيران في الصراع الأيديولوجي ضد الاتحاد السوفييتي، وهكذا ظل التعاون العضوي وتبادل المصالح قائمين بين الشاه والولايات المتحدة طوال أربعة عقود من الزمن حتى قيام الثورة الدينية. وقد تتبعت المؤلفة جذور الثورة منذ عام ١٩٤٩م عندما فكر محمد رضا بهلوي في إنشاء دولة «أوتوقراطية» تحت حكمه الفردي المباشر، وعلى أساس سحق المعارضة بكل أجنحتها الدينية والأرستقراطية والبرجوازية، وكان للولايات المتحدة دور مهم في تشجيع الشاه على الانفراد بالسلطة على الرغم من أنها كانت وراء عزل والده بحجة استبداده واستيلائه على موارد الدولة؛ وقد تعرض الشاه عام ١٩٤٩م لمحاولة اغتيال تذرع بها لإعلان الأحكام العرفية في البلاد، وقمع المعارضة، وحظر نشر أي مادة صحفية في نقد الأسرة البهلوية الحاكمة، وإلغاء حزب تودة، وإلقاء القبض على عدد من السياسيين بما فيهم الدكتور محمد مصدق، وعمل الشاه على تشكيل مجلس نواب يعين نصف أعضائه من أعوانه المقربين، ووافق المجلس فيما بعد على حق الشاه في استرداد جميع الإقطاعيات والأراضي التي سبق أن صادرها والده من الشعب

وأكره محمد رضا على إعادتها إلى أصحابها تحت إلحاح الحلفاء عام ١٩٤١م، وكان للجبهة الوطنية في إيران موقف معارض لسياسات الشاه وممارساته، ومع مطلع عام ١٩٥٠م لقيت الجبهة الوطنية تأييداً كبيراً من مختلف طبقات الشعب في إيران بما فيهم رجال الفكر والمدرسون والطلبة والمهنيون والطبقة المتوسطة ورجال العلم، وقادت نظاهرات أقلقت الشاه، مما اضطره إلى تعيين مصدق رئيساً للوزراء في مايو/أيار ١٩٥١م، وهو يضمر استغلاله في خدمة مآربه وامتصاص غضب الجماهير، وأراد مصدق أن ينال دعم الحزب الشيوعي لاكتساب دعم الجماهير المؤيدة له، مما أثار مخاوف الأمريكيين من نفوذ مصدق، فأنذرت الإدارة الأمريكية رئيس الوزراء الإيراني بتجميد معوناتها لإيران إذا لم يعمل مصدق على حماية المصالح الأمريكية في وجه النفوذ الشيوعي المتنامي فلم يذعن مصدق للمطالب الأمريكية، بل كثّف تعاونه مع حزب تودة ليضمن تأييد السوفييت، وسمح لصحيفة «مردم» الناطقة بلسان الحزب الشيوعي في إيران بالصدور من جديد، ورفض مصدق أن يعمل كصمام أمان للشاه كما توهم، واتهم رجال البلاد بتدخلهم في شؤون الدولة السياسية، وأخذت الحملات الأمريكية والبريطانية تنصب على مصدق إعلامياً. وكان مصدق قد استطاع أن يضع القوات المسلحة تحت سيطرة الوزارة الإيرانية التي كان يرأسها عام ١٩٥٢م، ففقد الشاه فعلياً السلطة التي كان يعوّل عليها كأداة ردع ضد معارضيه، واستطاع مصدق اقتطاع جزء من ميزانية البلاط الإمبراطوري وضمها إلى ميزانية وزارة الصحة، ومنع اتصال الشاه برجال السلك الدبلوماسي في طهران، واستقطع ١٥٪ من ميزانية الجيش لمصلحة خزانة الدولة، وقام بتطهير القوات المسلحة من العناصر الموالية للشاه، وأسس لجاناً للتحقيق في الفساد الذي استشرى في المؤسسة العسكرية، وانتهى به الأمر إلى إجبار الشاه والأسرة الحاكمة على مغادرة إيران إلى إيطاليا أوائل عام ١٩٥٣م، ولم تكن بريطانيا والولايات المتحدة سعيدتين لإجراءات مصدق خشية على مصالحهما البترولية في إيران، فنشطت المخابرات البريطانية والأمريكية، وعمل بعض قوى الجيش والعملاء الأجانب على التآمر على حكومة مصدق، وتفجرت الخلافات في الجبهة الوطنية حول قضايا تأميم الشركات الكبرى، ومنح المرأة حق الانتخاب، وتخطيط الإصلاح الزراعي، ومصادرة المشروبات الكحولية أو منع بيعها، وتعيين الليبراليين في وزارتي العدل والتعليم، والتحالف مع حزب تودة الشيوعي، وتوالت اتهامات مصدق بوصفه معادياً للإسلام والشريعة وساعياً إلى إقامة دكتاتورية اشتراكية، وانسحب من الجبهة الوطنية أهم شخصية دينية فاعلة وهو آية الله كاشاني ومؤيدوه، وكانت محصلة كل هذه الأحداث قيام بعض ضباط الجيش الساخطين بحركتهم عام ١٩٥٣م ضد مصدق، فاحتلوا مقار الوزارات وألقوا القبض على الوزراء، وقادوا طابور الدبابات التي استعانوا فيها بأحد رجال المخابرات الأمريكيين، ونسفوا مسكن مصدق، ومهد الطريق لعودة الشاه إلى طهران ولديه رغبة أقوى من ذي قبل في إقامة دكتاتورية معتمدة على جهاز مخابرات إيراني مدعوم بقوة بوليسية مدربة بخبرة ضباط المخابرات الأمريكيين وخبرة الموساد الإسرائيلي، وبنى مؤسسة عسكرية جيدة بين عامي ١٩٥٣ و١٩٧٢م، وزيدت ميزانية القوات المسلحة كثيراً بعد عام ١٩٧٢م، وقد حل الشاه الجبهة الوطنية، وقبض على مصدق وأعدم حسين فاطمي ووضع مصدق تحت المراقبة حتى وفاته عام ١٩٦٦م، وأعدم أربعين عضواً من حزب تودة؛ وقد ملأت القوى والعلماء الدينيون الفراغ السياسي، وعدّ وجودها بمنزلة عودة إلى الشرعية الدينية التي وأدها الشيوعيون، وظهرت جماعة تحرير إيران التي اعتقدت بإمكان بناء أيديولوجية جديدة تجمع بين عناصرها أهل الدين وأهل الفكر، وانضم لها علي شريعتي الذي كان يروج لمقولة: أن الإسلام عقيدة ثورية فعالة، وأن من واجب المؤمن مقاومة الاعوجاج القائم في إيران، والممثل في الإمبريالية الأمريكية، وكان يدعو إلى مقاومة الحكم الفردي للشاه، ومقاومة الرأسمالية، والشيوعية الماركسية المعادية للدين، وسلطة الكهنوت، كما كان يدعو إلى نبذ الطبقية. واستمر الشاه في سياسته القمعية حتى عام ١٩٦٣م عندما أعلن عن نزع ملكيات كبار الملاك وأنذر رجال الدين بمصادرة الأراضي التي في حوزتهم، ومنح المرأة حق الانتخاب وقوبلت إجراءات الشاه وقراراته بمعارضة من رجال الدين، واستقطبت المعارضة الطلاب ورجال الدين والمهنيين، وكان على رأس معارضيه آية الله الخميني الذي كان من المعجبين بآية الله كاشاني، وكانت المناسبة التي ظهر فيها الخميني أول مرة هي احتفالات المحرم بذكرى مقتل الإمام الحسين بن علي الإمام الثالث لدى الطائفة الشيعية، حيث ندد فيها الخميني بالشاه وحرض

حركات التاريخ الإنساني شأنها شأن دورة الكون، تخضع لديناميات محكمة، تدفعها مقدمات كاشفة تؤدي إلى تغيرات

الجماهير على التظاهر والإضراب ضده، ولم تتمكن سلطات الأمن من الوصول إليه. وقد استخدم الشاه قوات الجيش في قمع التظاهرات، ونجح البوليس الإيراني في القبض على الخميني وتم نفيه إلى العراق، إلا أن رجال الدين وأهل الفكر ظلوا يبحثون عن الوسيلة للإطاحة بالشاه آخذين في الحسبان وجود قواته البوليسية، واختاروا أسلوب حرب العصابات منذ مطلع عام ١٩٧٠م، فظهرت جمعيتان: أولاهما فدائي خلق، وثانيتهما جماعة مجاهدي خلق، وكان علي شريعتي المنظر للثورة الخمينية، وقد توفي عام ١٩٧٧م.

لقد كان للأمريكيين مسوّغاتهم ومصالحهم في بقاء الشاه وقوته، لكن الشاه قام عام ١٩٧٣م بالسيطرة على مصادر إيران النفطية وأتاح للدولة إيرادات أوفر، ووقع عام ١٩٧٦م اتفاقية لتصدير الغاز الإيراني عبر الاتحاد السوفييتي إلى النمسا وألمانيا وفرنسا، ووافق على إنشاء صندوق من أعضاء الأوبك وغيرها لتقديم القروض للدول النامية، ولم تكن الولايات المتحدة راضية عن إجراءات الشاه وأرادت أن تقوم إيران بدور شرطي الخليج، وفتحت مخازن السلاح الأمريكي المتطور للجيش الإيراني، وأطلقت يده في شؤون المنطقة وفق ما تشتهي وتريد، وتصاعدت على الساحة الداخلية الخلافات بين الشاه وعدد من قوى المجتمع الإيراني، واشتكى الناس من الأسعار المرتفعة، وانخفض مستوى المعيشة للطبقة الوسطى، وزاد معدل التضخم في البلاد، وأخذت الطبقة العاملة تتذمر وتتمرد، وقام الشاه بإعلان حزب سياسي وحيد في الدولة بحجة حشد طاقات الجميع لخدمة الوطن، ناكثاً بوعوده حول إطلاق الحرية للجماعة الدينية والسياسية للعمل بحرية دون تدخل من الدولة، ولهذا عدّ الشعب الإيراني قرار الشاه بمنزلة إعلان الحرب ضده، فعمّ الغضب الشعبي، وقد دعمت بريطانيا الحملة ضد الشاه لفقدانها امتيازاتها ومكانتها السياسية، ثم أعلن كارتر رئيس الولايات المتحدة في حملته الانتخابية مساندة بلاده للأقطار التي ينتهك فيها القانون، وكشفت مؤسسة حقوق الإنسان الدولية عن ممارسات الشاه القمعية ضد معارضيه السياسيين، وطالبته بتحسين أوضاع السجون والمساجين، وشجعت المعارضة الإيرانية، والتقت القوى الخارجية إجمالاً على التخلص من محمد رضا لخدمة مصالحها المتباينة، فالولايات المتحدة التي عملت على عودته من قبل إلى العرش كانت طامحة إلى السيطرة الدائمة على بترول إيران، كما أنها كانت ترمي من وراء ترشيحه لدور شرطي الخليج إلى تحقيق أطماعها بعيداً عن أهدافه الفردية للسيطرة على دول الخليج، وقد عملت فيما بعد ضده بتشجيع مؤسسة حقوق الإنسان العالمية على التنديد بأسلوب الشاه في التعامل مع المعارضة السياسية الداخلية، بغية إساءة سمعته الدولية لتسويغ دعمها لرموز الثورة الإيرانية المقبلة. لقد أثارت أخطاء الشاه ومساوئ نظامه الشارع الإيراني فتفاعل واستجاب لأفكار الخميني، وتم إذكاء المبادئ الدينية التي يؤمن بها أنصار الشيعة الجعفرية الاثني عشرية المتمثلة في ولاية الفقيه. ومع مطلع عام ١٩٧٧م بدأت مرحلة جديدة لتغيير نظام حكم الشاه فخرجت تظاهرة بعد صلاة الجمعة من مسجد شاه عبدالعظيم جنوب طهران تردد الشعارات المعارضة لحكم الشاه، وتصدت لها قوات الأمن، وقامت تظاهرة أخرى داخل جامعة طهران، وانطلقت خارجها، وكانت عنيفة وقوية، وتوالت التظاهرات عام ١٩٧٨م، وتدخل الجيش لوقف تدمير المتظاهرين لمنشآت الدولة بعد أن عجزت قوى الأمن عن ذلك، وقد أبدى الجيش تعاطفاً مع الشعب الغاضب من سوء الأوضاع، وتردي الأحوال، وفساد الحكم، واشتعلت الثورة الإسلامية وتصاعدت ونجحت في التخلص من الإمبراطور محمد رضا بهلوي وأعوانه.

> شكل العامل الاقتصادي الدافع الاجتماعي الأساسي للتحرك ضد الأسرة القاجارية

الثورة الدينية بين النظرية والتطبيق

في الفصل الثامن: الثورة الدينية ١٩٧٧ـ ١٩٧٩م، تتبعت تصاعد أحداث الثورة في إيران وما أفضت إليه من هيمنة رموز الثورة الإيرانية مقاليد الحكم والزعامة الدينية في آن واحد، وخروج الشاه من إيران إلى أسوان في مصر في السادس عشر من يناير/ كانون الثاني عام ١٩٧٩م، وهروب بختيار رئيس وزرائه إلى باريس بتدبير وموافقة من الإدارة والرئاسة الأمريكية، وإعلان الخميني عن عزمه على العودة إلى إيران لاستخلاص حقوق الشعب من أيدي الظالمين، ووصل الخميني في الفاتح من فبراير/شباط عام ١٩٧٩م على متن طائرة فرنسية، وعقد مؤتمراً صحفياً أعلن فيه اعتراف الشعب بزعامته، وتعيينه لحكومة مؤقتة واجبة الطاعة، وكلف مهدي بازرجان برئاسة الوزارة المؤقتة في الخامس من فبراير/ شباط عام ١٩٧٩م، وكلفه إجراء استفتاء للرأي العام حول تغيير النظام السياسي للبلاد من الملكية إلى الجمهورية الإسلامية، وتشكيل مجلس تأسيسي من ممثلي الشعب.

وتتابعت الاعترافات الدولية بالخميني ونظامه الجديد، ثم تأسس الحزب الجمهوري الإسلامي لتدعيم صرح الجمهورية الإسلامية طبقًا لتعاليم الإمام الخميني وأفكاره، وقد توجس المتدينون الأحرار (الليبراليون) خيفة من توجهات رجال الدين المتشددة ومن إحلال (الثيوقراطية) محل الملكية، ونادى اليسار الإيراني بفصل الدين عن الدولة، ورفع راية العلمانية، وعلى الرغم من ذلك فقد هيمن الخميني وأنصاره، وأضفت صفات الخميني القيادية عليه الزعامة المطلوبة.

سلطتان متوازيتان

وفي الفصل التاسع: توطيد الحكومة الدينية ١٩٧٩ - ١٩٨٩م، تناولت المؤلفة سياسة حكومة بازرجان وسياسة الاعتدال التي انتهجتها، وإيجاد الخميني في الحقيقة لسلطتين متوازيتين: سلطة رسمية هي واجهة النظام الجديد أمام العالم وهي الوزارة، وسلطة فعلية تباشر شؤون الدولة من اللجان الثورية ومحاكم الثورة واللجنة المركزية لرجال الدين، والمجلس الثوري، ومجلس الخبراء الذي أسندت إليه مهمة إعداد الدستور، وعين الخميني لجنة مركزية في طهران للإشراف على «اللجان الثورية» المحلية وتوجيه قياداتها، وعين الخميني أئمة الشيعة في المدن الرئيسة في إيران لإلقاء خطب الجمعة ومراقبة أعمال محافظي الأقاليم، وأنشأ مجلس قيادة الثورة للإشراف على الحكومة المؤقتة نفسها وعلى القيادات العسكرية واللجان المركزية. وتنامت قوة رجال الدين وسلطتهم على حساب سلطة الوزراء. وتابعت المؤلفة أحداث حكم الفقهاء حتى وفاة الخميني في الفترة من عام ١٩٨٠ - ١٩٨٩م مستهلة بمعالجة أوضاع حكومة بني صدر، وتطرقت لنشاط الحرس الثوري، وانتخابات البرلمان الإسلامي عام ١٩٨٠م، والخلافات السياسية بين الخميني وبني صدر حول أمور أربعة هي: الرهائن الأمريكيون، والحرب مع العراق، والاقتصاد المنهار، وتزايد المجاهدين والمنتسبين للمنظمة الإسلامية للفدائيين وريثة حزب تودة.

واشتد الصراع على السلطة بين رئيس الجمهورية، ورجال الدين، وانتهى بهروب بني صدر وزعيم جماعة مجاهدي خلق مسعود رجوي إلى فرنسا كلاجئين سياسيين. وقد أُلقي القبض على المتعاطفين مع بني صدر داخل إيران ومن بينهم الحفيد الأكبر للخميني، وأعدم الكثيرون من المنتمين للجناح اليساري.

وشرع في إعداد دستور آخر يرسي دعائم ولاية الفقيه، ونصب آية الله حسين منتظري رئيسًا للحوزة العلمية في قُم، وقدم كوارث شرعي للخميني، وغدت لأنصار النظام الجديد اليد الطولى في كل مؤسسات الدولة بما فيها رئاسة الجمهورية، والوزارة، والبرلمان، والقضاء، ونجحت المؤسسة الدينية الإيرانية بذلك في إقامة دولة ثيوقراطية، ثم أخذ الخميني ينادي بتطبيق سياسة التعقل بعد حل اللجان الثورية، وسمح عام ١٩٨٨م بتكوين الأحزاب السياسية غير الدينية، وعندما اخترمت المنية الخميني كانت السلطة بأيدي الفقهاء الذين وجهوا باعتراضات مفكري إيران ومثقفيها. وعرضت المؤلفة لمساعي إيران واتصالاتها لتوثيق العلاقات مع الدول العربية ولاسيما الكويت والمغرب وتونس وليبيا ومصر والسودان.

> عمل الشاه رضا بهلوي على طمس هوية القوميات غير الفارسية وإذابتها في بوتقة القومية الفارسية، خاصة في عربستان، ومناطق الأكراد

وأخيرا عرضت المؤلفة في «الخاتمة: ص ٢٦٣ - ٢٦٩» أهم النتائج التي خرجت بها وأوضحت الإرهاصات التي مهدت للثورة الدينية في إيران خاصة العوامل الداخلية والمناخ الدولي، ونجاح الثورة في الاستيلاء على السلطة وممارسات رجال الثورة، وظهور الفروق الجوهرية بين النظرية بصفتها صيغة فكرية، والتطبيق العملي للنظرية ذاتها، وظهور عجز الزعامات الدينية عن تدبير المؤسسات الحكومية داخليا وخارجيا، وافتقارها إلى الخبرة الإدارية والحنكة السياسية خاصة بعد إبعادها للرموز السياسية صاحبة الخبرة، وللقيادات الحزبية والنقابية الواعية، ومخاصمتها للطبقة المثقفة، ثم انخراط الثورة في اللعبة السياسية ومناهضة التيار الديني المعتدل، المطالب باستخدام أساليب الإدارة والحكم الحديثة، ورفضه لمبدأ ولاية الفقيه السياسية والتصدي للتيار الليبرالي المنادي بالديمقراطية وبالحكومة الدستورية، وبالانتخابات الحرة. ورأت المؤلفة في النهاية أن على رجال الثورة في إيران إفساح المجال أمام العناصر الليبرالية المتدينة لمشاركتهم في الحكم وتدبير شؤون البلاد، وتفادي استعداء أقطار العالم الإسلامي.

وقد حفل الكتاب بقائمة مراجع غنية: ص ٢٧١ - ٢٩٤ كتبت باللغة العربية والإنجليزية من كتب وتقارير ووثائق ومقالات دورية غلبت عليها الحداثة.



ملاحظات حول مقال

إدارة الأزمات في التشريع الإسلامي

بداية أود أن أشكر للكاتب رضا عبد الحكيم رضوان تأمله في النص القرآني الحكيم في مقاله في العدد (٢٧٧). وأود أن ألفت نظره لبعض الملاحظات في القضايا التي أوردها والتي كان ينبغي عليه عدم التسرع في فهمها:

أولاً: أباح كاتب المقال لنفسه أن يسمّي الله بما لم يُسمّ به نفسه مع أنّ أسماء الله وقفية، وهاك ما أورده الكاتب: «إن النص القرآني المحيط بما لا يقع تحت حصر من نماذج من الأزمات سواءً من صنع (الصانع) عز وجل لأجل الابتلاء» وفي موضع آخر: «إنها أولى أزمات الأرض وكوارثها حركها (قامع) العتاة، وهنا وفي غيره من المواضع اشتق الكاتب أسماء لله من أفعال له، وهذا ما لا يجوز شرعاً، فإذا قال الله: *وأكيدُ كيداً*. الطارق:١٦، فلا يجوز أن نقول: إن الله سبحانه «كائد»، وإذا قال في سورة النمل: *وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مكراً وهُم لا يَشْعُرُون*. النمل: ٥٠، فلا يجوز لنا أن نقول عنه سبحانه: «الماكر»، لأنّ ذلك تقديم بين يدي الله ورسوله، وأسماء الله جاءت من الحديث الشريف والقرآن الكريم.

ليست مفاجأة!!

ثانياً: يقول الكاتب: «وتحدث الأزمة فجأة، ومن دون سابق إنذار، وهو عين ما تعرض له آدم في أولى أزماته الناشئة عن عصيان ربه» وهذا الفهم نتج من قراءة مبتورة لأحداث قصة آدم، عليه السلام، فأحداث القصة لو جمعتها لرأيت أن الأزمة لم تحدث فجأة، وما كان الله ليضيع آدم، ويتركه من دون تحذير حتى لا يقع في إغواء إبليس، اقرأ إن شئت قوله تعالى: *وَإِذْ قُلْنَا لِلملائكة اسجُدُوا لآدم فسجدُوا إلا إبليسَ أبى فقُلنا يا آدمُ إنّ هَذَا عدُوٌ لكَ ولِزوجك فلا يُخرِجَنّكُما من الجنّة فتشقَى*. طه:١١٦ـ١١٧.

وهنا ملحظان:

الأول: أنّ القول بعداوة إبليس لآدم جاء بعد الأمر بالسجود لآدم، وهذا المشهد المرئي له كان أبلغ برهان على العداوة، وهو يجسد القول الذي أعقبه أيما تجسيد، فلا يحوم حوله شك أو ريبة.

الثاني: أن القول جاء بصيغة الفعل الماضي «فقلنا»، أما التحذير من الإخراج فجاء بصيغة «المضارع»، وهي صيغة تؤرخ للحدث قبل أن يكون، فلا يفاجأ بالنتيجة المؤلمة، وهي الخروج من الجنة، ولا يفاجأ بتجربة ليس معه أي ذكر من حيثياتها؛ ولذا جاء اللوم الشديد من الله له في قوله تعالى: *وناداهما ربُهما ألم أنهكُما عن تلكُما الشجرة وأقل لكما إنّ الشيطان لكما عدوٌ مُبين*. الأعراف:٢٢.

زمن منعدم

ثالثاً: قال الكاتب في مقاله: «وقد أدار رب العالمين الأزمة» وهذه سقطة وقع فيها «صاحبنا» وأقول له: ما عناصر إدارة الأزمات في العرف البشري؟ (أحداث تعالج في أزمنة)، وكل حدث يقتضي جزءاً من الزمن، وهذا محال على الله أن يكون بهذا الذي رأيت أو شيء منه، سبحانه، بل هو فوق ما نقول، فهو الكبير المتعال، ولذا فإنّ السور التي استهلت بكلمة «سبّح» أو «يُسبّحُ» أو «سبّح» أو «سُبحان» كان لله فيها فعل له نظير عند البشر فجاءت هذه الكلمة لتنبهنا ألا نقيس فعلاً له على أفعال المخلوقات، بل نقول: *ليس كمثله شيء وهو السميع البصير*. الشورى:١١. فإن رأينا أحداثاً جرت على يد البشر فهي أحداث بيديها ولا يبتديها. اقرأ قول الله تعالى: *سُبحان الّذي أسرى بعبده*. الإسراء:١، فالله إسراء، لكنه ليس كالبشر؛ لأن عنصر الزمن منعدم في فعل الله، لكن البشر يعالجون، ويديرون، ويسرون، ومعهم عنصر الزمن في أفعالهم.

لا تشابه

رابعاً: قال كاتب المقال: «لا وجود ألبتة لأزمتين متشابهتين، ولكل أزمة حلّ يختلف عن غيره» وأقول: لو كان الأمرُ كذلك لاحتاج كل واحد من البشر إلى نبي مرسل ليحلّ له أزماته مادامت ليس لها نظير، وقولك هذا لا يحتمل الصحة إلا من وجه واحد ألا وهو: إذا تباعدت الأزمنة والأمكنة؛ وذلك قبل مجيء الرسول النبي محمد عليه الصلاة والسلام، فقبله كان يرسل الرسول ليعالج داءً واحداً فأُرسل موسى إلى قوم عُرفوا بالسحر، وعيسى إلى قوم نَبَغوا في فنون الطب، ولوط إلى قوم عُرفوا بالفحش، وشعيب إلى قوم نَسُوا حق الله في أموالهم، وهود إلى قوم جبارين، وقد تتعدد النبوات في القرن الواحد كما في لوط وإبراهيم؛ ولما ذابت حدود الزمان والمكان توحدت الأزمات وتشابهت الأدواء، وهنا يكون القرآن هو الشفاء من كل داء لأن فيه خبر ما قبلنا من الأمم السابقة، سنن بقائها وفنائها وأوضح الطريق الأمثل للتمكين في الأرض، فجاءت قصصه صوراً واضحة للمجتمعات الإنسانية بكل أقضيتها وأزماتها، وأعلمنا الله في قرآنه أن هذه السنن ماضية لا تتخلف، قال تعالى: سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا. الأحزاب:٦٢ وهذه إشارة قرآنية صريحة إلى أن ما حاق بالأمم السابقة يمكن أنْ يحلّ بنا أو بأي قرنٍ من القرون إذا تساووا في الخروج على منهج الله. فالقصة القرآنية ليست إلا قانوناً تصدق حيثياته وملابساته في الماضي والحاضر والمستقبل، وبكل أزماتها وشخوصها ونتائجها.

فالقول بأنّ الأزمات لا تتشابه قول لا ينهض به دليل، ولا يصدقه واقع.

إنّ فرعون صورة مكرورة للاستعلاء والغطرسة، ونراها في زماننا الحالي، وإنّ أصحاب الأخدود صورة للإيمان والإنسان المضطهد وهي منظورة لنا في هذا الزمان،

وإنّ سلوك بني إسرائيل لم يطرأ عليه التغيير من الفساد والإفساد في الأرض إلا في الوسائل والأدوات، وإن الفحش الذي مارسه قوم لوط صار قوانين منظمة في كثير من دول الحضارة والمدنية.

حقائق لا نظريات

خامساً: تحت عنوان «النظرية الإسلامية في إدارة الأزمات» أودُّ أن يلتفت القارئ الكريم إلى أنه لا توجد في الإسلام (نظريات) وإنما يوجد فيه (حقائق)؛ لأنّ النظرية فرض ثبتت صحته، وجاء بعد كثير من المحاولات الخاطئة، وقد تتحول هي بدورها إلى فرض في كثير من الأحيان لنظرية جديدة، والقرآن لا يحمل شيئاً من هذا، لكنه يحتوي على حقائق نهائية قد يصل إليها الجهد البشري، أو لا يصل إلا بعد قرون من البحث والمثابرة، وما هكذا نتناول النص القرآني، أيها الكاتب الكريم؛ لأنه نصٌ معجز ولابد أن تكون الأدوات التي نستعين بها تتناسب وعظمته، وما كان تحت هذا العنوان لا يمت إلى البحث العلمي من قريب أو بعيد، إن هي إلا وجهة نظر رميت بها غير عابئ أو مهتم بأسباب البحث الموضوعي في النص القرآني؛ وارجع إلى المقال مرة أخرى ومرات عدة لتجد أنك قد جانبك الصواب في تناولك لما أسميته أزمات أمنية، وتحت عنوان: «أولاً إدارة الأزمات الأمنية في المنهج العلمي لسيدنا نوح عليه السلام: يختص منهجه - عليه السلام بإدارة الأزمات الناشئة عن الكارثة الطبيعية، أي أسس مواجهة الأزمة إذا حركتها قوى الطبيعة».

> لا توجد في الإسلام (نظريات) وإنما يوجد فيه (حقائق) نهائية قد يصل إليها الجهد البشري، أو لا يصل إلا بعد قرونٍ من البحث والمثابرة

ولم نعلم - فيما نعلم ونقرأ - أن نوحاً - عليه السلام - كان مهمته إدارة أزمات أمنية، ولم نعلم - فيما نعلم - أن نبياً له منهج من عند نفسه، ولم نعلم أن الطوفان الذي جاء وأغرق الأرض كان كارثة طبيعية، إنما هو مشيئة إلهية، وكان الأرجى أن تقول بدلاً من (إدارة نوح للأزمات) أو (إدارة الأزمات الاقتصادية في المنهج العلمي ليوسف عليه السلام) أن تقول (وحي السماء في إنجاء نوح ومن معه)؛ لأنّ أولئك ما كان لهم عمل في الإنجاء أو الإهلاك.

قال تعالى: *فأوحينا إليه أن اصنع الفلك بأعيننا ووحينا فإذا جاء أمرنا وفار التنور فاسلك فيها من كل زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول منهم ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون، فإذا استويت أنت ومن معك على الفلك فقل الحمد لله الذي نجانا من القوم الظالمين، وقل رب أنزلني منزلاً مباركاً وأنت خير المنزلين*. المؤمنون: ٢٧ ـ ٢٩.

فهل كان لنوح منهجٌ علميٌّ أو إنّه مطبّق ومنفّذ لمنهج إلهي؟

وما ينطبق على نوح يسري على موكب النبوات من بعده إلى محمد ـ عليه الصلاة والسلام؛ قال تعالى: *إنّا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داود زبوراً*. النساء: ١٦٣.

وفي الختام أشكر لكاتب المقال حسن الوجهة، وأسأل الله لي وله السداد، إنّه وليُّ ذلك والقادر عليه.

ناصر إبراهيم عبداللطيف عون
بيشة ـ السعودية

ردًا على صالح جديد

النقد الحر بعد الشعر الحر

القراءة الحرة الشمولية الرؤية والآفاق

قرأت في مجلة «الفيصل» في العدد (٢٨٠) شوال ١٤٢٠هـ ـ يناير ٢٠٠٠م مقالة للأستاذ صالح جديد، بعنوان: «القراءة الحرة الشمولية.. الرؤية والآفاق» وقد أفاد الكاتبُ وأجاد في جمال الانتقاء، وحسن الترتيب، وتقريب المعاني، وتبسيط المدلولات، وإقصاء الكلمات الأجنبية ـ والتي يستخدمها الحداثيون للدلالة على: نحن من هناك ـ وإن كنا نشكره جزيل الشكر على ذلك كله، فإنا نؤاخذه بما يلي:

أولاً: التوثيقُ ونُدرته: في ص٦٩ وثّق ما نقله يوسف عوض ـ ضمن سياق الحديث ـ وذكر أن واضع التقسيم المشهور في تجليات القراءة هو جيرالد برانس ـ وإن لم يذكر أين وضعه ـ أما ما تبقى من منقولاته التي رقّع بمجموعها بحثه، فلم يذكر لها مصدراً ولا مرجعاً، وقلّل ذلك من أمانته العلمية، مع أن كثيراً مما ذكر من المفاهيم والعوامل والمناهج ـ إن لم نقل كلها ـ مستقاة، وممن أورد تلك المفاهيم أو العوامل والمناهج؛ فعلى سبيل المثال لا الحصر:

ديفيد ديتش في كتابه «مناهج النقد الأدبي»، ترجمة د. محمد نجم، ومجموعة من المؤلفين في كتاب «مقدمة في المناهج النقدية للتحليل الأدبي» ترجمة وائل بركات، وحسين الوعد في كتاب «مناهج الدراسات الأدبية»، ومحمد زكي العشماوي في مؤلفه «قضايا النقد الأدبي بين القديم والحديث»، وغيرهم.

أدونيس

ولا أدري لماذا نشرت له «الفيصل» مع أن التوثيق من ضوابط النشر؟.

ثانياً: إغفاله لكثيرٍ من العوامل والمناهج: كالعامل الديني فله أثره ودوره، فالنار عند المجوسي غير النار عند اليهودي، والمسجد رمز لأمور عند المسلم، كما أن الكنيسة قداسة لدى النصراني، مع أنهما أرض لا أكثر.. بالنسبة إلى البوذي مثلاً، فللعامل الأسطوري والديني أثره البالغ في التعبير الجمالي عن المشاعر والأحاسيس.

كما أغفل المنهج البنوي والفلسفي الجمالي والتحليلي والأسلوبي وغيرها، وإن كان قد حاول أن يقطف من كل بستانٍ زهرة، فإنه قد حوّل بذلك قراءته

الحرة الشمولية إلى المنهج التكاملي المعروف، وليس ذلك حدثًا جديدًا، أو رؤية جديدة لنظرية لم تر النور، انظر مثلاً: شعرنا القديم والنقد الجديد. د. وهب رومية.

ليست حرة ولا شاملة

فقراءته ليست حرة لأن القارئ الحرّ حرّ في اختياره، وتذوقه، وتحليله، أي لا توجد عملية قسرية لأيّ منهج يجب أن يأخذ به، أو مجموعة مناهج مدمجة حسب رؤية فلان أو علان.

كما أنها ليست شاملة إذ اكتفى بعوامل ومناهج محدودة دون سواها.

ثالثًا: قوله في ص٦٩: «... وعليه فالقراءة الحرة الشمولية لا تنجز ما لم يكن صاحبها يتمتع بثقافة شمولية، وبفكر حر، وإحساس جمالي، وذوق رفيع، هذه الأطراف المتعددة تجعل حريته في التأويل واستنباط معايير القراءة النقدية لا تخضع للهوى...».


محمد مندور

هذه الأطراف التي ذكرها، والضوابط التي عددها للقارئ الحر، مستعارة بل مسروقة من شروط الناقد، سواءٌ أكان حرًا ـ يعتمد على نظرية القراءة الحرة الشمولية ـ أم لم يكن.

واقرأ إن شئت أيها القارئ ـ مؤلفات محمد مندور النقدية، وكتب محمد زكي العشماوي وغيرهما.

رابعًا: تحدث في ص٧١ و ص٧٢ عن النقد الانطباعي الذاتي أو النقد القيمي، ثم قال: «ومثال ذلك نقد المهلهل، وأم جندب، وزهير، وأبي هلال العسكري، وابن قتيبة والقرطاجني...إلخ».

وأسأل أي ثقافة يحملها مَنْ يجمع بين المهلهل وأبي هلال العسكري، وبين أم جندب وابن قتيبة، وزهير والقرطاجني؟! ولعل في تلك النقاط: الجرجاني، وهل نقد الثلاثة الأخيرين نقد ذاتي انطباعي؟ (مجرد سؤال من دون تعليق).

لماذا أدونيس؟

أما قوله ص٧٢: «إن هناك من حاول تأسيس نقد حداثي عربي جديد بعد القراءة الواعية للتراث والاستفادة منه» ففيه نظر، ولماذا أدونيس ـ صاحب مأساة الشعر، والسرقات الأجنبية، وهدم القيم والمبادئ؟! ولماذا لا يحل محلّه الغيورون على العربية وأدبها، الذين تقض مضاجعهم مآسيها، وتبهج قلوبهم إنجازاتها، ويسلب لبّهم جمالها وروعتها، الذين يؤمنون بأن ما يُفصّل للُغات الأخرى من المناهج لا يصلح لها، الذين حاولوا التأصيل فالتجديد مثل د. مصطفى ناصف في النقد العربي: نحو نظرية ثانية، وعبدالله الغذامي للبنوية، و د. وهب رومية في كتابه: شعرنا القديم والنقد الجديد.

خامسًا: مع أنني أعجبتني ـ كالكثيرين أمثالي ـ هذه المناهج والقراءات، وتقبّلتها وطبّقتها، إلا أنني ـ وإن كنتُ لا أرفضها رفضًا نهائيًا ـ ما زلتُ أسأل كثيرًا: ماذا سيقدم الأدب العربي في عصر الإنترنت والانفتاح والعولمة؟ وماذا سيقرأ عنه الغربيون والشرقيون، بعد أن خرجنا من جلودنا، وتقمصنا جلودهم؟ فيا تُرى أي متعة يجدها؟! أي ثمرة يحصدها أحدهم إذا قرأ هذا الأدب المطابق شكلاً ومضمونًا ونقدًا لأدبه، وإن كان يقصر عن مستواه الفني؟ وهل تراه بحاجة إلى هذا الأدب غير المتميز.. أو غير الجيد حتى للمحاكاة.. أو النسخة المترجمة المشوهة عن أدبه؟!.

فمثلنا مثل المَصانع في العالم الثالث التي تقلّد الصناعات اليابانية أو الأمريكية، بأخذ مقاييسها، وبعض صفاتها، وهي في المضمون خواء لا إبداع ولا ابتكار.. فهذه الصناعات قد لا يشتريها المنتجون أنفسهم، أو لا يشتريها سكان البلاد المنتجة بوجود السلع اليابانية أو الأمريكية مثلاً، فما بالك إذا فكرت هذه المصانع بالتصدير إلى اليابان أو أمريكا؟!

وأخيرًا..

إن لم نَهُبّ لدراسة تراثنا وأدبنا. فلا نستبعد في عصر الانفتاح، أنْ يهبّ الغرب ويدرسه ـ كما يراه هو ـ ويُغلّفه ثم يصدّره إلينا، كما صدّر المستشرقين والمستغربين من قبل. والله الموفق.

محمد صلاح صالح
دمشق ص.ب ١٣٦٦٣ ـ سورية



افتتاح مركز الفيصلية
وتوزيع جائزة الملك فيصل العالمية

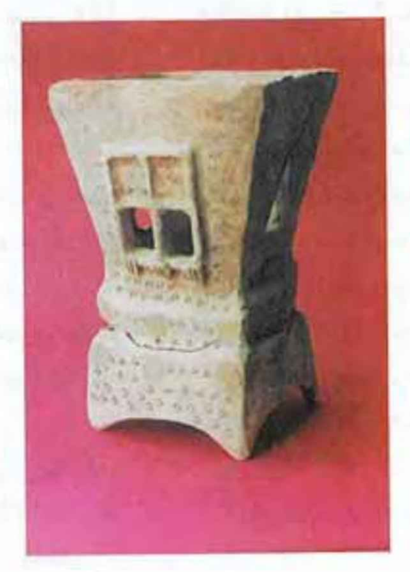
وداعًا مشري

إعلان الفائزين بجائزة البابطين

الشيرازي في جامعة لندن

جزائرية تفوز بجائزة السلام

النتاج الفكري العربي
في الفضاء الإلكتروني



خاتمة المطاف:

أربعمئة قطعة
نادرة من آثار فجر
التاريخ البشري

افتتاح مركز الفيصلية وتوزيع جائزة الملك فيصل العالمية

نيابة عن خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبدالعزيز رعى صاحب السمو الملكي الأمير سلطان بن عبدالعزيز النائب الثاني لرئيس مجلس الوزراء ووزير الدفاع والطيران والمفتش العام في العاشر من صفر الماضي - احتفال مؤسسة الملك فيصل الخيرية بافتتاح مشروع مجمع وبرج الفيصلية، وحفل تسليم جائزة الملك فيصل العالمية؛ وذلك بحضور عدد كبير من أصحاب السمو الأمراء، وأصحاب المعالي الوزراء، وكبار الشخصيات السعودية والعربية والأجنبية.



الأمير سلطان بن عبد العزيز وفي استقباله الأمير خالد الفيصل

قام سموه أولا بافتتاح مشروع مجمع الفيصلية المتعدد الأغراض، وهو أكبر المشروعات الاستثمارية لمؤسسة الملك فيصل الخيرية، والذي سوف تستغل عوائده في دعم المشروعات الخيرية والتعليمية والبحثية والثقافية التي ترعاها المؤسسة في مختلف أرجاء العالم.

وفي بداية الحفل ألقى صاحب السمو الملكي الأمير خالد الفيصل بن عبدالعزيز المدير العام لمؤسسة الملك فيصل الخيرية، ورئيس هيئة جائزة الملك فيصل العالمية كلمة تحدث فيها عن إنشاء مؤسسة الملك فيصل الخيرية قبل خمسة وعشرين عاماً إحياءً لذكرى الملك فيصل بن عبدالعزيز، رحمه الله، وتأسيًا بكفاحه في سبيل نصرة الإسلام والمسلمين وإسعاد البشرية جمعاء.

وقال سموه: «لقد اجتمعنا في هذا المساء المبارك لنحتفل جميعاً بإنجاز مشروع من مشروعات الاستثمار لهذه المؤسسة. ولقد أريد لهذا المشروع أن يكون أنموذجًا وعطاءً.. أنموذجًا في شكله وموضوعه.. فنًا وإدارة وتقنية.. وعطاءً، لأنه سيصرف جميع ريعه على أعمال وسبل الخير والبر في هذا المجتمع، وفي مجتمعات أخرى في أنحاء المعمورة».

ونوّه سمو الأمير خالد الفيصل بموافقة الملك خالد - رحمه الله - على إنشاء هذه المؤسسة وأمره بقيامها سنة ١٣٩٦هـ، ورفع سموه التحية لكل من شارك في دعم هذه المؤسسة بالمال والفكر والرأي، وعلى رأسهم خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبدالعزيز، حفظه الله، وصاحب السمو الملكي الأمير عبدالله بن عبدالعزيز ولي العهد ونائب رئيس مجلس الوزراء ورئيس الحرس الوطني، وصاحب السمو الملكي الأمير سلطان بن عبدالعزيز النائب الثاني لرئيس مجلس الوزراء ووزير الدفاع والطيران والمفتش العام، وصاحب السمو الملكي الأمير سلمان بن عبدالعزيز أمير منطقة الرياض.

وعبر سموه عن شكره لأمناء مؤسسة الملك فيصل الخيرية، وأثنى على إدارتها برئاسة صاحب السمو الأمير بندر بن سعود بن خالد وما أثبته من خبرة فائقة في الإدارة والتعامل الإنساني والإداري، كما شكر البنك الأهلي التجاري الذي موّل جزءاً من هذا المشروع، وأشاد سموه باللورد نورمان فوستر الذي صمم مشروع مركز الفيصلية على أنه تحفة فنية على مستوى العالم، وحيّا شركة ابن لادن السعودية التي نافست وفازت بتنفيذ هذا المشروع من بين شركات ومؤسسات عالمية ومتخصصة.

ثم تحدث بعد ذلك صاحب السمو الأمير بندر بن سعود بن خالد الأمين العام لمؤسسة الملك فيصل الخيرية، فأبدى سعادته بتشريف صاحب السمو الملكي الأمير سلطان بن عبدالعزيز لهذا الحفل، وقدّم سموه شرحاً تفصيليًا لهذا المشروع منذ أن كان **حلمًا، فأوضح أن التخطيط لهذا المشروع بدأ منذ منتصف الثمانينيات، فقد تعاقدت المؤسسة مع ثلاث من كبريات الشركات المحلية والعالمية لإجراء دراسة اقتصادية للمشروع انتهت عام ١٩٩٤م. وقام بتصميم المبنى كل من مجموعة فوستر وشركاه، وشركة بيروهابل، أما التنفيذ فقامت به مجموعة ابن لادن السعودية.**

وثمّن سموه في ختام كلمته الدعم المتواصل الذي تجده المؤسسة من حكومة خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبدالعزيز.

وقدّم شكره إلى معالي وزير المالية والاقتصاد الوطني والمديرية

العامة للجمارك وكل الجهات التي أسهمت في هذا المشروع.

وعقب ذلك افتتح صاحب السمو الملكي الأمير سلطان بن عبدالعزيز المشروع لتنطلق بعد ذلك الألعاب النارية والعرض الضوئي والعرض بالليزر، ثم توجه سموه إلى قاعة الاحتفال لتكريم الفائزين بجائزة الملك فيصل العالمية سنة ١٤٢٠هـ.

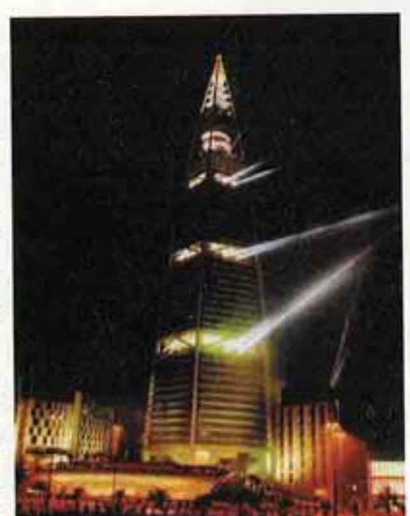
وقد بدأ الحفل بكلمة لصاحب السمو الملكي الأمير خالد الفيصل الذي قال فيها: «للمتحدث في مثل هذه المناسبة كلمة.. أما أنا فلديّ هذا المساء ثلاث كلمات: الشكر، والتهنئة، والدعاء، فأما الشكر فلكل من دعا ولبّى وحضر، وأما التهنئة فلكل من ساهم وشارك وفاز، وأما الدعاء فلمن تحمل اسمه هذه الجائزة.. فلكم كل عام التهنئة والدعاء والشكر».

ثم قام الأمين العام لجائزة الملك فيصل العالمية الدكتور عبدالله العثيمين بتقديم الفائزين في الفروع الخمسة للجائزة.

وكانت جائزة الملك فيصل العالمية لخدمة الإسلام هذا العام من نصيب الأزهر الشريف تسلمها من صاحب السمو الملكي الأمير سلطان بن عبدالعزيز فضيلة الدكتور محمد سيد طنطاوي شيخ الأزهر، وتعد هذه المرة الأولى التي تمنح فيها الجائزة لمؤسسة علمية.

ثم سلم سموه جائزة الدراسات الإسلامية وموضوعها «الدراسات التي تناولت انتشار الإسلام في إقليم أو أكثر خارج العالم العربي وأثر ذلك الانتشار حضارياً» للأستاذ الدكتور محمد مهر علي البنغالي الجنسية، ثم تسلم الأستاذ الدكتور عبدالله الطيب، السوداني الجنسية، والأستاذ الدكتور عزالدين إسماعيل عبدالغني، المصري الجنسية، من سموه جائزة الأدب العربي التي منحت لهما مناصفة وموضوعها «الدراسات التي تناولت النقد الأدبي القديم عند العرب في تاريخه أو كتبه أو رجاله أو قضاياه»، كما تسلمت الأستاذة الدكتورة سينثياجين كينيون الأمريكية الجنسية جائزة الملك فيصل العالمية في الطب، وكان موضوعها هذا العام «الشيخوخة».

أما جائزة العلوم وموضوعها «علم الحياة - البيولوجيا» فقد سلمها سموه للدكتور إدوارد أوزبورن ولسن، والدكتور جون كريغ فنتر وهما أمريكيان، وقد فازا بها مناصفة.


جانب من حفل الافتتاح

وألقى الفائزون كلمات عقب تسلمهم لجوائزهم أشادوا فيها بمؤسسة الملك فيصل الخيرية، وما تقوم به من خدمات للإسلام والمسلمين.

وبهذه المناسبة نظمت الأمانة العامة لجائزة الملك فيصل العالمية، ومركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية برنامجاً ثقافياً قدَّمت فيه عدداً من الندوات حيث قدم الأستاذ الدكتور محمد مهر علي ندوة حول كتاب: «تاريخ المسلمين في البنغال» بتاريخ ١١ صفر سنة ١٤٢١هـ، شارك فيها الأستاذ الدكتور محمد مصطفى الأعظمي، والأستاذ الدكتور محمد بن عبدالرحمن الربيع، والأستاذ الدكتور عزالدين عمر موسى، وأدارها الأستاذ الدكتور إبراهيم بن حمد القعيد.

كما قدم الأستاذ الدكتور عزالدين إسماعيل عبدالغني محاضرة بعنوان «نحو فهم جديد للتراث العربي» بتاريخ ١٣ صفر سنة ١٤٢١هـ، قدم لها الأستاذ الدكتور عبدالله بن محمد الغذامي، وختمت محاضرات الأسبوع الثقافي بمحاضرة الأستاذ الدكتور عبدالله الطيب، وكان عنوانها «من تجاربي في الأدب والتأليف»، وكان ذلك بتاريخ ١٤ صفر سنة ١٤٢١هـ، وقدم لها معالي الدكتور أحمد بن محمد الضبيب عضو مجلس الشورى، وشهدت هذه المحاضرات حضوراً مكثفاً من المفكرين والمثقفين.

الأمير سلطان
يوجه بتخفيض أجور نقل الكتب

أصدر صاحب السمو الملكي الأمير سلطان بن عبدالعزيز النائب الثاني لرئيس مجلس الوزراء ووزير الدفاع والطيران والمفتش العام أمراً بتخفيض أجور نقل الكتب التي ترسل من المملكة وإليها بنسبة ٥٠٪ من الأجرة المعمول بها الآن، وذلك تشجيعاً للثقافة، وتسهيلا لوصول الكتاب السعودي إلى الخارج وتيسير وصول الكتب الصادرة في الخارج إلى المملكة بأسعار معقولة.

صور الملك فيصل بقصر شبرا

تقوم وحدة وكالة الآثار والمتاحف المشرفة على قصر شبرا الإقليمي بعملية البحث والتحري للحصول على صور نادرة لجلالة الملك فيصل بن عبدالعزيز - يرحمه الله - الذي كان له مكتب خاص فيه.

وأهابت الوحدة بالمواطنين الذين يتوقع أن توجد لديهم صور نادرة لجلالته، وهو يمارس عمله من خلال مكتبه بقصر شبرا، المبادرة بالاتصال بوحدة الآثار التاريخية بالطائف لضم هذه الصور إلى مقتنيات القصر الذي سوف يفتح أبوابه قريباً أمام السائحين والمصطافين من داخل المملكة وخارجها.

وكان صاحب السمو الملكي الأمير سلطان بن عبدالعزيز النائب الثاني لرئيس مجلس الوزراء ووزير الدفاع والطيران والمفتش العام قد تكفل بنفقات جميع الترميمات والتحسينات التي شهدها القصر، والتي بلغت ٦ ملايين ريال.

الأمير خالد الفيصل في بيروت ولندن

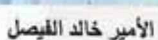
افتتح في قصر اليونيسكو في بيروت في ٢٩ مايو/أيار الماضي المؤتمر الثقافي العربي الذي أقيم تحت عنوان «تطلعات الثقافة والفنون لما بعد العام ألفين» بحضور صاحب السمو الملكي الأمير خالد الفيصل بن عبدالعزيز أمير منطقة عسير ضيف المؤتمر، وصاحب السمو الملكي الأمير نواف بن فيصل بن فهد نائب الرئيس العام لرعاية الشباب ورئيس وفد المملكة العربية السعودية للمؤتمر.

وأحيا الأمير خالد الفيصل أمسية شعرية حضرها جمع غفير من رجال الفكر والإعلام يتقدمهم ممثل الرئيس اللبناني محمد يوسف بيضون وزير التربية والثقافة والشباب والرياضة.

وعقب ذلك تم الافتتاح الرسمي للمعرض التشكيلي لسموه، وكان الأمير خالد الفيصل قد دعا في الكلمة التي ألقاها بهذه المناسبة إلى إنشاء مؤسسة لجائزة الإبداع العربي لتكريم المبدعين العرب كل عام في أي مجال من مجالات الإبداع الأدبي أو الطبي أو العلمي أو الهندسي.

ومن ناحية أخرى يقيم الأمير خالد الفيصل معرضاً مشتركاً مع الأمير تشارلز ولي العهد البريطاني عن منطقة عسير في قصر «وايت هول» في لندن في الفترة من ١٥ إلى ٢٢ من شهر يونيو/حزيران الحالي.





الأمير خالد الفيصل

الأمير تشارلز

ويحتوي المعرض على ٢٦ لوحة للأمير خالد و٢٠ لوحة للأمير تشارلز، وعدد من اللوحات لـ «جيمز داي هارت» وهو أحد الرسامين الإنجليز، وتعكس معظم هذه اللوحات أجواء منطقة عسير وأبعادها الطبيعية.

وداعاً .. مشري



عبد العزيز مشري

بوفاة الروائي والقاص عبدالعزيز صالح مشري في يوم الأحد (٣ صفر الماضي)، بعد معاناة طويلة مع جملة من الأمراض التي أنهكت جسده النحيل، تكون الأوساط الثقافية والأدبية السعودية قد فقدت واحداً من أميز الكتاب في مجالي القصة القصيرة والرواية.

والأديب الراحل من مواليد قرية محضرة بمنطقة الباحة في سنة ١٣٧٤هـ.

وكان إلى جانب إبداعه الروائي والقصصي كاتباً صحفياً وفناناً تشكيلياً وعازفاً للعود، وقد بدأت رحلته مع الكتابة بالعمل في مجال الصحافة محرراً ثقافياً في جريدة «اليوم» التي تصدر في المنطقة الشرقية، وذلك في الفترة بين عامي (١٩٧٣ و١٩٨١م)، ثم واصل مشواره الصحفي بالمشاركة الكتابية في معظم الصحف السعودية؛ إذ شارك بالكتابة في عكاظ، والجزيرة، واليمامة، والرياض، والبلاد، والشرق، ونشرت له «الفيصل» عدداً من القصص القصيرة آخرها قصة بعنوان «فاصوليا بلا مواسم» نشرت في العدد ٢٧٩ الصادر في رمضان سنة ١٤٢٠هـ (ديسمبر/كانون الأول عام ١٩٩٩م - يناير/كانون الثاني ٢٠٠٠م).

وكان الأديب الراحل قد نشر تجربته مع القصة والرواية في باب «من تجاربهم» في العدد (١٨٠) الصادر في جمادى الآخرة سنة ١٤١٢هـ (ديسمبر/كانون الأول ١٩٩١م - يناير/كانون الثاني ١٩٩٢م)، وأشار فيها إلى محاولته التمرد بكسر التقليد في مجموعته القصصية الأولى «موت على الماء»، فيقول عن لغته فيها: «كانت كتابة غنية بالصورة الجذابة، لكنها لا تكاد تقول شيئاً، فهمها هو نسف المتعارف عليه، لماذا؟ لأن الرؤية وقتها كانت قاصرة»، ثم تناول تجربته مع أولى رواياته «الوسمية»، واهتمامه الكبير بأن يصل ما يكتبه إلى الآخرين، فقال: «فمع أن «الوسمية» كانت تجربة أولى ومغامرة قليلة التجربة، غير أن ذلك علمني شيئاً جديداً: أن الكاتب مالم يكن أميناً مع الطفل الصافي المستكين بدواخله، ومالم يكن مهتماً بأسلوب مخاطبته للآخرين، فإنه لن يوصل شيئاً مهماً إليهم».

ويرى كثير من النقاد أن ماكتبه المشري من قصص وروايات تمثل شهادات اجتماعية لمرحلة تاريخية من مراحل المجتمع السعودي في المدينة والقرية معاً.

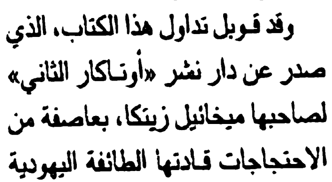
وقد صدر للأديب الراحل مجموعة من الأعمال الروائية والمجموعات القصصية، منها: «موت على الماء»، (قصص ـ ١٩٧٩م)، و«الوسمية» (رواية ـ ١٩٨٦م)، و«أسفار السروي» (قصص ـ ١٩٨٦م)، و«بوح السنابل» (قصص ـ ١٩٨٧م)، و«الزهور تبحث عن آنية» (قصص ـ ١٩٨٧م)، و«الغيوم ومنابت الشجر» (رواية ـ ١٩٨٩م)، و«الحصون» (رواية ـ ١٩٩٢م)، و«أحوال الديار» (قصص ـ ١٩٩٣م)، و«ريح الكادي» (رواية ـ ١٩٩٣م)، و«في عشق حتى» (رواية ـ ١٩٩٦م)، و«مكاشفات السيف والوردة» (١٩٩٦م»، و«صالحة» (رواية ـ ١٩٩٧م)، و«جاردينيا تتثاءب في النافذة» (قصص ـ ١٩٩٨م).

وقد كرمه عدد من الجهات داخل المملكة، منها النادي الأدبي الثقافي بجدة العام الماضي، وأصدرت عنه صحيفة الجزيرة عدة ملاحق ثقافية حوت أدبه وإبداعه، كما أهدته مؤسسة الجزيرة الصحفية درعها تكريماً له، وكان الشاعر علي الدميني ـ أحد أقرب الأصدقاء إلى قلب الراحل ـ قد جمع كل ما كتب عنه من دراسات نقدية ومتابعات وشهادات، وأصدرها في كتاب بعنوان «ابن السروي.. وذاكرة القرى» تزامن مع التكريم الذي أقيم له في الباحة.

وكان أدب المشري وإبداعه موضوعاً لعدد من الدراسات النقدية من الباحثين والأكاديميين. كما أن مواهب الراحل لم تكن متوقفة على إبداعه القصصي والروائي فقط بل تعدته إلى ولوجه مجال الفن التشكيلي، فقد قدم للساحة الفنية التشكيلية السعودية معرضاً فنياً مدهشاً قبل ثماني سنوات، كما صمم عدداً من أغلفة أعماله النثرية مثل «ريح الكادي، والحصون، وموت على الماء، والزهور تبحث عن آنية».

وقد قال الشاعر علي الدميني: «إن العمل التشكيلي في حياة المشري كان ينافس العمل الكتابي، وخاصة في الشطر الأول من حياته الأدبية، ولم يكن التشكيل لديه نشاطاً فائضاً، بل كان أساسياً، فقد كان اسمه ثابتاً في كل المعارض الفنية التي نظمت في المنطقة الشرقية».

كفاح هتلر يثير عاصفة احتجاج في تشيكيا



هتلر

شهدت مكتبات مدينة براغ في أبريل/نيسان الماضي تداول الترجمة التشيكية الحرفية الأولى من نوعها لكتاب الزعيم النازي أدولف هتلر «كفاحي» دون أي حذف.

وقد قوبل تداول هذا الكتاب، الذي صدر عن دار نشر «أوتاكار الثاني» لصاحبها ميخائيل زيتكا، بعاصفة من الاحتجاجات قادتها الطائفة اليهودية التشيكية التي هددت برفع دعوى ضد صاحب الدار بتهمة الترويج للنازية والفاشية.

وتعرض الناشر أيضاً لإدانة من رجال السياسة والقانون لأنه لم ينتهج سبيل من سبقوه من الناشرين الذين كانوا ينشرون الأعمال النازية أو مقتطفات منها بقصد إدانتها، وقد سوّغ هذا الموقف في «كلمة الناشر» بقوله: «إن ما يهم دارنا هو ألا يظل كتاب هتلر «كفاحي» أسطورة يكتنفها الغموض مستقطبة بذلك فضول الشباب والأجيال الجديدة. وهمنا الأول هو ألا تتكرر المأساة الفاشية».

لكن ذلك لم يقنع المعارضين لأنه تزامن مع صعود حزب الأحرار في النمسا المجاورة إلى الحكم، الذي اتهم

زعيمه يورغ هايدر بإعجابه بالنازية الألمانية.

ويخشى بعض الناس من وصول النازيين والمتطرفين إلى الحكم خاصة أن الوضع المتردي في تشيكيا كان يشبه الأوضاع التي كانت سائدة في أوربا حين وصول هتلر إلى السلطة.

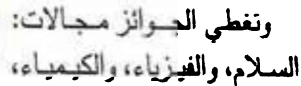
أصغر صحيفة في العالم

قالت ناشرة برازيلية: «إنها حققت حلماً عمره ٧٥ عاماً لأسرتها بنشر أصغر صحيفة يمكن قراءتها». الصحيفة شهرية، وتقع في ١٦ صفحة مساحتها ٢.٥ سم في ٢.٥ سم، ومع هذا تقول الناشرة دولوريس نانيس شفينت: إن القراء لا يجدون صعوبة في الاطلاع عليها.

وفي حديث لوكالة رويترز للأنباء قالت شفينت: «بدأ والدي هذه الصحيفة في عام ١٩٣٥م في ولاية جوياس، ثم انتقل إلى ميناس جيراس عام ١٩٤٦م»، وأضافت «في ذلك الوقت كانت الصحيفة أكبر حجماً بعض الشيء، نحو عشرة سنتيمترات في سبعة سنتيمترات، ولكنني أخذت في تصغير حجمها لتصل إلى حجم قياسي».

وتوزع الصحيفة في أنحاء البرازيل كافة، ويبلغ حجم توزيعها نحو خمسة آلاف نسخة، وتبلغ قيمة الاشتراك السنوي فيها «٥.٧٠ دولارات».

جائزة نوبل إلى مليون دولار



ألفريد نوبل

رفعت مؤسسة نوبل قيمة الجائزة الواحدة من الجوائز الست التي تمنحها سنوياً بنسبة ١٤ في المئة عن قيمة الجوائز الممنوحة في العام الماضي، لتصل إلى مليون دولار.

وتغطي الجوائز مجالات: السلام، والفيزياء، والكيمياء، والأدب، والاقتصاد، وعلم وظائف الأعضاء أو الطب، وتمنح في احتفالات سنوية تقام في استوكهولم، وأوسلو يوم العاشر من ديسمبر/كانون الأول سنوياً، الذي يوافق الذكرى السنوية لوفاة مؤسس الجائزة ألفريد نوبل.

فوز الثبيتي بجائزة أفضل قصيدة عربية

اثنان من كتاب «الفيصل» يفوزان بجائزة البابطين للإبداع الشعري



الثبيتي

نالت قصيدة «موقف الرمال.. موقف الجناس» للشاعر السعودي محمد الثبيتي جائزة أفضل قصيدة عربية من بين ٢٩٦ قصيدة ترشحت لهذا الفرع من جوائز مؤسسة عبدالعزيز البابطين الكويتية للإبداع الشعري في دورتها السابعة، وجاء في مسوغات منح القصيدة هذه الجائزة «أن لغتها في غاية الإبداع باجتماع الشعر والفن والبراعة والسحر والموسيقى».

وقد سبق للفيصل أن نشرت القصيدة الفائزة في عدد (٢٦٩)، كما نشرت للشاعر قصائد أخرى.

والشاعر محمد الثبيتي من مواليد الطائف في سنة ١٣٧١هـ/١٩٥٢م، ومن دواوينه الشعرية: «عاشق الزمن الوردي» (١٤٠٢هـ)، و«تهجيت حلماً.. تهجيت وهماً» (١٤٠٤هـ)، وقد نال جائزة الإبداع من نادي جدة الثقافي الأدبي عن ديوانه «التضاريس»، الذي نال عنه - أيضاً - جائزة اللوتس في الإبداع.

وتبلغ قيمة جائزة أفضل قصيدة عربية التي فاز بها الثبيتي عشرة آلاف دولار.

وقد نال جائزة الإبداع الشعري لهذه الدورة وقدرها خمسون ألف دولار، الشاعر السوري سليمان العيسى لكونه من أكبر الشعراء العرب المعاصرين، إضافة إلى ما يتسم به إنتاجه من أصالة وجدة، فهو أيضاً يتسم بالغزارة، فله أكثر من خمسة عشر ديواناً وعدد من المسرحيات الشعرية ومسرحيات الأطفال، وقد أجرت «الفيصل» لقاء مع الشاعر الفائز في عددها (١٣٦).

وفاز الناقد التونسي الدكتور مبروك المناعي بجائزة أفضل كتاب في النقد الشعري عن كتابه «الشعر والمال» الذي يتناول آليات الإبداع الشعري عند العرب من الجاهلية إلى نهاية القرن الثالث الهجري، وقيمة هذه الجائزة ٤٠ ألف دولار.

وفاز ديوان «زهرة النار» للشاعر المصري الدكتور عبداللطيف عبدالحليم (أبو همام) - وهو من كتاب الفيصل - بجائزة أفضل ديوان «لصلة قصائده بالتراث العربي والثقافة العربية الأصيلة»، ورشح

لهذه الجائزة ١٣٦ شاعراً ينظمون الشعر بالفصحى، وتبلغ قيمة الجائزة ٢٠ ألف دولار. ومن المتوقع أن يتم توزيع هذ ه الجوائز في الجزائر في أكتوبر/تشرين الأول القادم.

وقد قررت مؤسسة البابطين إصدار معجم للشعراء العرب المعاصرين في طبعه منقحة مع زيادة تراجم ٣٥٠ شاعراً ينظمون الشعر بالعربية الفصحى؛ إلى جانب إصدار معجم لشعراء القرنين التاسع عشر والعشرين.

وبدأت المؤسسة في إنجاز مشروع مكتبة البابطين في القدس الشريف للحفاظ على الهوية العربية للمدينة، حيث وقع اتفاق بهذا الشأن مع رئيس جامعة القدس.

معرض «مناطق الظلمات»

افتتح في المركز الثقافي الفرنسي بالإسكندرية في الثامن عشر من مايو/أيار الماضي، معرض للمصور الفرنسي فرنسوا ديل داريار، ويضم المعرض ٢٣ صورة فوتوغرافية بالأبيض والأسود، لوجوه ومناطق من الحياة الفرنسية، وحمل المعرض عنوان «مناطق الظلمات».

ومن ناحية أخرى ينظم المركز ورشة عمل للأطفال يديرها الممثل الفرنسي إيفان دوروزو ليتعلم الأطفال صنع العرائس المتحركة وتحريكها.

وثائق تايتانيك في مزاد

بيعت لائحة طعام ووثيقة طبية بـ ٣٤ ألف جنيه إسترليني وهما تعودان إلى مسافرة من ركاب الدرجة الثالثة كانت من الناجيات من حادث غرق السفينة تايتانيك عام ١٩١٢م، وذلك في مزاد علني نظمته دار سوذبيز في لندن، وعرض الوثائق للبيع أحد أبناء حفيد سارة روث التي توجهت


WHITE STAR LINE

THIRD CLASS

BREAKFAST

DINNER

TEA

SUPPER

صورة عن لائحة الطعام

على متن السفينة في عام ١٩١٢م إلى نيويورك للقاء خطيبها.

وأوضحت الدار أن الوثيقة الطبية التي كانت تحملها المرأة الشابة تثبت أنها غير مصابة بأمراض معدية، وهي فريدة من نوعها، أما لائحة الطعام فتشير إلى أن مسافري الدرجات الشعبية في تايتانيك ستقدم لهم وجبتان من السمك المدخن واللحم بالصلصة.

وتكمن قيمة هاتين الوثيقتين في قلة عدد الناجين من ركاب الدرجة الثالثة في هذه السفينة الفاخرة؛ لأن أولوية الإنقاذ أعطيت لركاب الدرجتين الأولى والثانية خلال عمليات إنزال الركاب بقوارب الإنقاذ ليلة غرق السفينة في ١٤ أبريل/نيسان عام ١٩١٢م. وقد نزلت سارة روث في قارب الإنقاذ من السفينة وهي لا تحمل سوى حقيبة يدها التي تحتوي على الوثائق التي باعها حفيدها.

آثار تركية في خطر

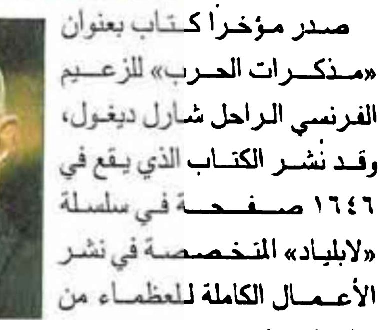
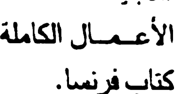
من الآثار التركية

دعت صحيفة «نيويورك تايمز»، في مقال افتتاحي لها نشر مؤخراً، تركيا إلى الاهتمام بآثارها، وبذل كل الجهود لإنقاذ موقع أثري من الموزاييك يعود تاريخه إلى العهد الروماني تهدده مياه أحد السدود الذي تقرر افتتاحه قريباً. ونسبت الصحيفة إلى علماء وخبراء آثار قولهم: إن هذا الموقع يمكن إنقاذه بتأجيل هذا المشروع مدة أربعة أشهر وهي مدة كافية لتفكيك الموقع، ونقله إلى موقع آخر.

وقالت الصحيفة: إن تركيا تملك مخزوناً ضخماً من الآثار النادرة خاصة في مدينة «زوغما» الأثرية القديمة التي ازدهرت حضارتها في جنوب تركيا قبل ٢٠٠٠ عام، وكان الرومان قد اتخذوا من هذه المدينة قاعدة لحماية الجناح الشرقي

لإمبراطوريتهم، وللإشراف على مسار طريق الحرير المشهور الذي ينتهي إلى نهر الفرات.

مذكرات ديغول

شارل ديغول

صدر مؤخراً كتاب بعنوان «مذكرات الحرب» للزعيم الفرنسي الراحل شارل ديغول، وقد نُشر الكتاب الذي يقع في ١٦٤٦ صفحة في سلسلة «لابلياد» المتخصصة في نشر الأعمال الكاملة لعظماء من كتاب فرنسا.

وقد حسم أخيراً الجدل الذي كان يدور بين المثقفين والسياسيين حول ما إذا كان الزعيم الراحل يعد أديباً أيضاً. وقد كشفت الدراسة التي أجراها المعهد القومي للغة الفرنسية على مذكرات ديغول، ونابليون، وشارك فيها عشرات الخبراء في علوم اللغة والتاريخ والكمبيوتر: أن كلمة «التاريخ»، و«فرنسا»، و«الشرف» وردت كثيراً في مذكرات ديغول، وهو بذلك يسبق القائد الفرنسي الراحل نابليون في كثرة استخدام هذه الكلمات.

أكبر جائزة أدبية نقدية


نيكولا باركر

نالت الروائية البريطانية نيكولا باركر مؤخراً جائزة نقدية مقدارها ٧٥ ألف جنيه إسترليني عن روايتها «وايد أوبن»، وهي أكبر جائزة تمنح لرواية واحدة، كما أنها الجائزة الثالثة لها وقد تقدمت باركر على الروائية الأمريكية توني موريسون الحائزة على جائزة نوبل وروايتها «بارادايس»، والروائي الأمريكي مايكل كاننجهام الحاصل على جائزة بوليتزر وروايته «ذي أوورز».

وهذه الجائزة تقدمها منظمة إيمباك الدولية في دبلن للعام الخامس على التوالي.

زهور الزنبق في مزاد القرن


بيكاسو

بيعت لوحة بابلو بيكاسو «طبيعة صامتة لزهور الزنبق» بمبلغ ٨٢ مليوناً و٦٠٦ آلاف دولار في مزاد كريستي في نيويورك، وكانت واحدة من بين أربع لوحات للمصور والنحات الإسباني الأصل التي حققت أعلى أسعار في مزاد القرن.

النتاج الفكري في الفضاء الإلكتروني

تحت عنوان «نحو بناء إستراتيجية لدخول النتاج الفكري المكتوب باللغة العربية في الفضاء الإلكتروني» قرر الاتحاد العربي للمكتبات والمعلومات تنظيم المؤتمر الحادي عشر بالتعاون مع مركز التوثيق والمعلومات بجامعة الدول العربية في مقر الجامعة بالقاهرة خلال الفترة من ١٢ إلى ١٧ أغسطس/آب الموافق ١٢/١٧ جمادى الأولى القادم.

ويزيد من أهمية هذا المؤتمر تزامن انعقاده مع انعقاد المؤتمر الدولي لجمعيات المكتبات في مدينة القدس، ويعد هذا من أقوى التحديات للإرادة العربية الإسلامية.

وكان الاتحاد العربي للمكتبات قد اختار الأستاذ خالد اليوسف، والأستاذ نبيل قمصاني من عمادة شؤون المكتبات بجامعة الملك عبدالعزيز منسقين للاتحاد العربي للمكتبات بالمملكة.

القدس ليست عاصمة إسرائيل


سمير سرحان

«القدس عاصمة لإسرائيل» معلومة وردت خطأ في (موسوعة الطفل) المترجمة حرفياً عن موسوعة وورك بوك الأمريكية في اثني عشر مجلداً، وقد صححت الهيئة المصرية العامة للكتاب الناشرة للموسوعة هذا الخطأ الفادح، وجاء التصحيح على النحو التالي: «وقد ظلت تل أبيب منذ البداية عاصمة لإسرائيل ومقراً لحكومتها وللبعثات الدبلوماسية الأجنبية حتى قررت السلطات الإسرائيلية اعتبار القدس عاصمة

رسمية للدولة، ونقل مقر الحكومة إليها ودعوة الدول الأجنبية نقل سفاراتها إليها، لكن الغالبية العظمى من دول العالم رفضت الاعتراف بالقدس عاصمة لإسرائيل».

وأكد د. سمير سرحان رئيس الهيئة المصرية العامة للكتاب حرص الهيئة على الهوية العربية للقدس في كل مطبوعاتها، مشيراً إلى أنها ظلت ترفض سنوياً مشاركة إسرائيل في معرض الكتاب.

وكان قد سبق له بعد اكتشاف هذا الخطأ الأمر بإيقاف بيع الموسوعة وسحب النسخ التي عرضت منها في معرض القاهرة الدولي للكتاب في بداية هذا العام.

الرواية الواردة في الهجرة إلى الحبشة

أصدر مركز البحوث التابع لكلية الآداب بجامعة الملك سعود بالرياض الكتاب (٧٠) من الأبحاث والدراسات التي يقدمها، وهو دراسة للرواية الواردة في هجرة الصحابة إلى الحبشة، من إعداد الدكتور محمد بن فارس الجميل، تقع هذه الدراسة في ١٥٧ص.



غلاف الرواية

الإسلام في عيون السويسريين

قدم الدكتور يوسف القرضاوي لكتاب ضم بعض الأطروحات التي كتبها عدد من المهتمين بقضايا الإسلام والمسلمين من المفكرين السويسريين، فخرج هذا الكتاب الذي ترجمه الدكتور ثابت عيد مشتملاً على موضوعات مختلفة تعالج قضايا إسلامية من وجهة نظر سويسرية، ومن أهم عناوينه: «الإسلام في سويسرا»، و«الشرق الأوسط بؤرة الصراعات»، و«الشرق والغرب وأزمة سوء الفهم الدائم بينهما»، و«الفكر المتشدد في الإسلام»، و«كيف نتعامل مع التطرف الديني؟»، و«الصورة السيئة للعرب في الولايات المتحدة الأمريكية».

غلاف الكتاب

وضم هذا الكتاب موضوعات أخرى لبعض العلماء المسلمين مثل حوار مع الشيخ الغزالي عن قضايا المرأة في الإسلام. صدر هذا الكتاب عن مؤسسة بافاريا للنشر والإعلام بألمانيا، سنة ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م.

آفاق النهضة العربية ومستقبل الإنسان في مهب العولمة

عن دار الطليعة في بيروت صدر للكاتب أبي يعرب المرزوقي كتاب بعنوان «آفاق النهضة العربية ومستقبل الإنسان في مهب العولمة» الذي يعالج قضايا تمس المواطن العربي في كل مكان. هذا الكتاب ينقسم إلى بابين، في كل باب منهما مقالتان. الباب الأول: يتناول عوائق النهضة العربية وملهياتها النظرية، وعن تحقيب العقل الإنساني، بينما يتحدث الباب الثاني عن ظاهرة العولمة وعن حقيقتها، وفي الباب نفسه يتحدث الكاتب عن مأزق الحضارة الإنسانية والكونية الاستخلافية البديل.



غلاف الكتاب

معجم أدباء الشرقية

بمناسبة اختيار الرياض عاصمة للثقافة العربية لعام ٢٠٠٠م، والذي تزامن مع مضي عشر سنوات على تأسيس نادي المنطقة الشرقية الأدبي، وجه النادي الدعوة للمشاركة في إصدار «معجم الأدباء والكتاب في المنطقة الشرقية»، الذي سيضم تراجم للأدباء والأديبات من شعراء وقاصين ونقاد، وكتاب المقالات والأبحاث المطبوعة.

وحث النادي الأدباء والأديبات على تزويده بالمعلومات الضرورية التي تشمل: الاسم كاملاً، ومكان الميلاد وتاريخه، والمؤهلات العلمية، والعمل، والنشاط الثقافي مع ذكر المؤتمرات والندوات والجمعيات التي شارك فيها، والمؤلفات المطبوعة، والمصادر التي تتحدث عن الأديب أو الكاتب سواء كانت مقالة أو بحثاً أو كتاباً أو رسالة علمية مع ذكر اسم المصدر والكاتب إن وجد، والعنوان البريدي الكامل مع ذكر رقم الهاتف والفاكس والبريد الإلكتروني إن أمكن.

عنوان النادي هو: ص.ب ٨٤٣٨ الدمام ٣١٤٨٢، المملكة العربية السعودية، فاكس ٨٤٣٤٧٨٥.

تحقيق علمي لرحلة ابن بطوطة


ابن بطوطة بريشة الفنان ل. بينيت

بعد ثلاثين سنة متواصلة من البحث والتحقيق وجمع النسخ الخطية لرحلة ابن بطوطة الشهيرة، وبعد الاعتماد على ثلاثين نسخة خطية، أخرج الدكتور عبدالهادي التازي رحلة ابن بطوطة «تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار» محققة في خمسة مجلدات آخرها فهارس علمية وشاملة، وقامت بطبع هذه الرحلة ونشرها الأكاديمية المغربية لتحتل هذه الرحلة مكانة جيدة بين كتب الرحلات بعد أن طال اعتماد الباحثين على الطبعة القديمة لهذه الرحلة.

حصر الإنتاج الفكري للمرأة السعودية

في إطار الاحتفال باختيار (الرياض عاصمة الثقافة العربية لعام ٢٠٠٠) تعتزم مكتبة الملك فهد الوطنية إصدار قائمة حصرية للإنتاج الفكري الذي أنجزته المرأة السعودية في القديم والحديث، حيث تقتني المكتبة أكبر مجموعة من الأعمال العلمية التي ألفتها السعوديات ونُشرت داخل المملكة وخارجها، وهي تتجاوز ألفاً وثلاثمئة عنوان من الكتب والرسائل الجامعية المودعة بالمكتبة، أو التي اقتنتها المكتبة منذ إنشائها، إذ يرجع أقدم كتاب ألفته امرأة سعودية ضمن مقتنيات المكتبة إلى سنة ١٣٨٣هـ بعنوان «الأوزان الباكية» شعر ثريا قابل، وكتاب «عيناي فداك» للشاعرة سلطانة بنت عبدالعزيز السديري، نُشر سنة ١٣٨٤هـ.

أوبرا على المسرح الروماني

من المقرر أن يشهد المدرج الروماني بالأردن في الثاني من يونيو/حزيران الحالي حفلا موسيقياً أوبرالياً يحييه نحو ٢٢٠ عازفاً ألمانياً، وسوف تعزف الفرقة بعض الأعمال الخالدة للمؤلف النمساوي جوزيف هايدن (١٧٣٢ - ١٨٠٩م).

كما تشارك فرقة المعهد الوطني الأردني بالعزف مع الفرقة الزائرة التي تقدم أعمالها أول مرة في بلد عربي.

والمعروف أن المدرج الروماني مدرج أثري أنشئ نحو عام ٣٠٠٠ق.م.

في بريطانيا.. الكتاب لا يزال بخير

هل تهدد ثقافة الإلكترونيات الجديدة، وشبكة الإنترنت صناعة الكتاب المطبوع؟، الإجابة عن هذا السؤال جاءت من خلال دراسة تعد الأولى من نوعها تتناول عادات القراءة عند البريطانيين، وقد قامت بها «شركة تسويق الكتاب المحدودة» لصلحة «مجلس الفنون» البريطاني، وتوصلت الدراسة إلى أن المهدد الحقيقي لصناعة الكتاب هو ضيق الوقت الترفيهي.

وجاء في الدراسة أن ٩٠٪ من البريطانيين البالغين مازالوا يقبلون بشغف على قراءة كتب الروايات والكتب التثقيفية، إذ يقضي الشخص ما معدله خمس ساعات أسبوعيا في قراءة الكتب، وأن ١٥٪ من البريطانيين يمضون ١١ ساعة في القراءة أسبوعياً.

وأكد ٨٠ في المئة من العينات التي أجريت عليها الدراسة أن عادات القراءة عندهم لم تتغير كثيراً مع انتشار شبكة الإنترنت خلال السنوات الخمس الماضية، ولكنهم يعتقدون أن ضيق الوقت المخصص للنشاطات الترفيهية هو الذي يثنيهم عن تخصيص وقت كاف للقراءة.

وأضافت الدراسة أن الأطفال يقضون ما معدله أربع ساعات أسبوعياً في القراءة الترفيهية.

كما توصلت الدراسة أيضاً إلى أن النساء يقرأن أكثر من الرجال، وأن قراءة الرجال تزداد مع دخولهم متوسط العمر، وتقل عند النساء مع إنجاب الأطفال.

رحيل الممثل البريطاني جيلجود


السيرجون جيلجود

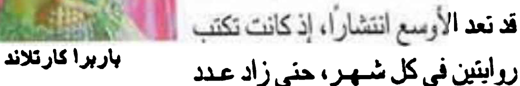
توفي في ٢٢ مايو/أيار الماضي بمنزله في إيلسبري بشمال غرب لندن الممثل البريطاني السيرجون جيلجود عن عمر يناهز ٩٦ عاماً؛ وذلك في أثناء العمل في فيلم «الكارثة» المأخوذ عن مسرحية لصموئيل بيكيت، ويعد جيلجود آخر الجيل اللامع من الممثلين

الكلاسيكيين الذي يضم إلى جانب جيلجود، لورنس أوليفييه، ومايكل ريدغريف، ورالف ريتشاردسون.

وقد اشتهر جيلجود بأداء شخصيات روائع وليم شكسبير وتجسيدها حتى وصف بأنه أروع ناطق للنصوص الشعرية الشكسبيرية في تاريخ المسرح البريطاني.

ولم يقتصر نشاط جيلجود على المسرح فقط، بل تعداه إلى السينما التي شارك فيها في أكثر من ٥٠ فيلماً، وحصل في عام ١٩٨١م على جائزة أوسكار أحسن ممثل مساعد عن دوره في الفيلم الكوميدي «آرثر».

رحيل الكاتبة البريطانية باربرا كارتلاند



باربرا كارتلاند

توفيت في ٢١ مايو/أيار الماضي بلندن الروائية البريطانية باربرا كارتلاند قبل شهرين فقط من الاحتفال بمرور تسعة وتسعين عاماً على ميلادها، وهي ربما الأغزر إنتاجاً في العالم بين الروائيين، كما أن أعمالها قد تعد الأوسع انتشاراً، إذ كانت تكتب روايتين في كل شهر، حتى زاد عدد مؤلفاتها على ٧٠٠ كتاب عدا المساهمات الصحافية والأدبية.

وبجانب شهرتها بوصفها كاتبة روائية إلا أنها عدت من بين أطرف الشخصيات في بريطانيا، وكانت مضرب المثل في العقلية المتمسكة بالمنظور الرومانسي التقليدي في العلاقة بين الرجل والمرأة الذي يرى الكثيرون أنه أصبح شيئاً من الماضي.

ومع الإجماع على تواضع مستواها الفني، الذي عزاه النقاد إلى سرعتها الخارقة في التأليف، إلا أن ذلك لم يمنع انتشارها الواسع؛ وبلغت الكتب المبيعة من تأليفها أكثر من مليار نسخة، كما ترجمت كتبها إلى كثير من اللغات الحية.

كتب بالتبني في المكتبة البريطانية

ناشدت «المكتبة البريطانية» الشهيرة التابعة للمتحف البريطاني الجمهور «تبني» كتبها؛ وذلك للمحافظة عليها من التآكل.

وكانت المكتبة البريطانية قد انتقلت إلى مبناها الجديد الذي كلف أكثر من ٥٠٠ مليون جنيه إسترليني، وترمي من هذه الخطة إلى المساعدة في ترميم كتبها التي تبلغ ١٥ مليون كتاب وصيانتها، وتبلغ تكاليف صيانتها السنوية مبلغ ٥ ملايين من الجنيهات الإسترلينية.

وتتلخص الخطة كما جاءت في بيان المكتبة في أن يدفع الشخص بين خمسة عشر إلى ألف جنيه إسترليني لتبني كتاب واحد، وهذا يعطي المتبرع الحق في طبع اسمه على الورقة البيضاء داخل الغلاف الخارجي. وأضاف البيان أن الشخص المتبرع بالحد الأدنى يمكن أن يختار اسم الموضوع الرئيس الذي يقترن اسمه به، بينما يتمنع الشخص الذي يدفع مبلغ ألف جنيه إسترليني باقتران اسمه بكتابه المفضل.

إعادة تعريف رسالة الملكية الفكرية



طلال أبو غزالة

اتخذ مجلس الأعمال الاستشاري لدى المنظمة العالمية للملكية الفكرية «الويبو» في نهاية دورته الرابعة قراراً ينص على «أن رسالة المنظمة العالمية للملكية الفكرية هي العمل على التقدم الاقتصادي والاجتماعي والثقافي من خلال تنظيم وإدارة النظم والاتفاقات الدولية في مجال حقوق الملكية الفكرية بهدف تشجيع الإبداع وصناعة المعرفة».

ومن المقرر أن يتضمن جدول أعمال المجلس في اجتماعه المقبل عدداً من الموضوعات منها: نقل التقنية وحقوق الملكية الفكرية، ودور مكاتب التسجيل الحكومية في ظل تنامي أهمية الملكية الفكرية على الإنترنت وما يجب عمله لتطوير الأجهزة الحكومية لتكون قادرة على ممارسة دورها في ظل التغيير الناتج عن الثورة التقنية والمعرفية، بما في ذلك التجارة الإلكترونية، وأسماء المواقع، والقرصنة الإلكترونية.

إعادة فتح المتحف الوطني العراقي

تم مؤخراً إعادة افتتاح المتحف الوطني العراقي في بغداد الذي ظل مغلقاً منذ حرب الخليج، والمعروف أن العراق غني بآثار حضاراته الموغلة في القدم التي تعود إلى ما قبل ٩ آلاف سنة.

ويحوي المتحف نحو ١٠ آلاف قطعة أثرية، وتمثل هذه الكمية من التحف ٣ في المئة فقط مما يملكه العراق.

جزائرية تفوز بجائزة السلام


آسيا جبار

أعلن اتحاد دور النشر والمكتبات الألمانية فوز الكاتبة الجزائرية آسيا جبار التي تكتب بالفرنسية بجائزة السلام لعام ٢٠٠٠م، ومن المقرر أن تتسلم الكاتبة جائزتها في أكتوبر/تشرين الأول المقبل خلال معرض فرانكفورت للكتاب.

وجبار من الكاتبات المغاربيات الرائدات اللواتي تناولن واقع المرأة في مجتمعها بشكل إنساني وصريح ضمن إطار التطورات السياسية والاجتماعية التي عاشها شمال إفريقية.

وجاء في بيان الاتحاد أن «دور النشر والمكتبات تكرم آسيا جبار التي رفعت صوت المغرب العربي في المحافل الأدبية الأوربية المعاصرة»، والتي «ساهمت بقسط كبير في توعية جديدة لنساء العالم العربي».

ولدت فاطمة الزهراء إيمالاين، وهذا اسمها الحقيقي، عام ١٩٣٦م في مدينة شرشال الساحلية الواقعة غرب الجزائر العاصمة، وبدأت مشوارها الأدبي عام ١٩٥٧م برواية «العطش»، ثم «نفاد الصبر»، و«أطفال العالم الجديد»، وأوقفت الكاتبة عشرين عاماً من عمرها للمسرح والسينما قبل أن تعود إلى الأدب مرة أخرى في الثمانينيات.

وتعمل آسيا جبار حالياً أستاذة محاضرة للأدب الفرنسي في جامعة باتون - روج بلويزيانا بالولايات المتحدة الأمريكية، وكانت قبل ذلك أستاذة في جامعتي الرباط والجزائر.

سنين الرحمة


ناصر القصبي

من المقرر أن يشهد هذا العام البدء في تصوير أول فيلم سينمائي سعودي بعنوان «سنين الرحمة»، ويتم إنتاجه بتمويل سعودي فرنسي مشترك.

وقد صرح الفنان ناصر القصبي الذي يشارك في إنتاج هذا الفيلم وتمثيله أن هذا العمل يعد نقلة فنية سعودية كبيرة، وأضاف أن إعداد الفيلم استغرق قرابة خمس سنوات وشارك في إعداده كل من: عبدالله السدحان، وناصر القصبي، والمنتج صالح الفوزان، وبرهان علوبة، ومحمود بن محمود، وبدرية البشر.

ومن المقرر أن يشارك في تمثيل هذا الفيلم عدد كبير من الفنانين السعوديين وعدد من الفنانات الكويتيات منهن سعاد العبدالله، ومريم الصالح، وحياة الفهد.

الشيرازي في جامعة لندن

عقد في الفترة من ١٢ إلى ٢٠مايو/أيار الماضي مؤتمر دولي تكريماً لأعمال الفيلسوف الإسلامي صدر الدين الشيرازي المعروف بـ «الملا صدرا»، وذلك بدعوة من معهد الدراسات الإسلامية التابع للمركز الإسلامي في لندن، وكلية الدراسات الشرقية والأفريقية في جامعة لندن، ومعهد الملا صدرا لبحوث الفلسفة الإسلامية في طهران.

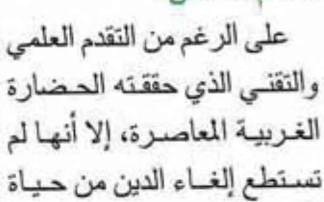
ولد الملا صدرا في مدينة شيراز الإيرانية في عام ١٥٧١م وتوفي عام ١٦٤١م، وقد تركزت أعماله في ميادين الفلسفة والمنطق والإلهيات وتفسير القرآن والحديث، ومن أشهر آثاره وأعماله الفلسفية «كتاب الأسفار الأربعة»، و«شواهد الربوبية»، و«الحكمة العرشية»، و«المشاعر»، و«المبدأ والمعاد».

ديوان ابن شكيل الأندلسي

صدر مؤخراً عن المجمع الثقافي في أبوظبي ديوان الشاعر الأندلسي أحمد بن شكيل «أبوالعباس»، تقديم وتحقيق حياة قارة.

ولد ابن شكيل في شريش في الأندلس سنة ٥٧٨هـ، وتوفي سنة ٦٠٥هـ، وهو من فحول شعراء شريش.

واعتمدت الباحثة في تحقيقها لهذا الديوان على مخطوطة وحيدة في العالم هي «كنز الكتاب ومنتخب الآداب» لأبي إسحق إبراهيم البوسني، ويضم هذا المخطوط عدداً من أشعار عصري المرابطين والموحدين، ويأتي شعر ابن شكيل جزءاً مهماً من هذه الأشعار، كما أن الباحثة استعانت بمصادر أخرى لإخراج هذا العمل منها «تحفة القادم»، و«الوافي بالوفيات»، و«لمح السحر»، و«المغرب»، و«رايات المبرزين»، و«أزهار الرياض»، و«نفح الطيب»، حتى بلغ مجموع الأشعار التي جمعتها ٣٦٧ بيتاً موزعة على قصائد ومقطوعات، أطولها يضم ٨١ بيتاً، وأقصرها لا يزيد على بيتين.



عثمان، محمد عبدالستار/ عمارة سدوس التقليدية: دراسة أثرية معمارية (دراسة حالة).ـ الإسكندرية: دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٩٩م، ٤٢٩ص.

الكتاب دراسة للعمارة التقليدية في سدوس، وقد اعتمدت على تحليل المباني وفق عناصرها الظاهرة، مستفيدة من الرفع المعماري الذي تمّ لمباني البلدة على يد المهندس كرستوف هنكه ـ أحد المهتمين بدراسة العمائر التقليدية من وجهة النظر المعمارية ـ في سنتي ١٤٠٢و١٤٠٣هـ/١٩٨٢ـ ١٩٨٣م، وكذلك ما أجرته مؤسسة المشهور للمعدات من رفع معماري للبلدة سنة ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م بتكليف من الإدارة العامة للآثار والمتاحف في المملكة العربية السعودية.

يقع الكتاب في مقدمة وخمسة فصول وخاتمة، تناول الكاتب في المقدمة مصطلح «العمارة التقليدية» مبيناً مدلولاتها الاصطلاحية عند الآثاريين والمؤرخين والمعماريين، كما تناول أيضاً العوامل التي أثّرت في تشكيل العمارة التقليدية في نجد.

تعرض الكاتب في الفصل الأول لدراسة العوامل البيئية والحضارية التي أثرت تأثيراً واضحاً في تشكيل عمارة البلدة، وتناول في فصله الثاني تحصينات سدوس متعرضاً لتطور عمارة هذه التحصينات وعلاقة ذلك بالتطور العمراني للبلدة، وجاء فصله الثالث عن المنشآت والمرافق العامة حيث خصّ المسجد بتفصيل أكثر مع تناول باقي المرافق الأخرى كالأسواق والمتاجر وغيرها، وخصص الفصل الرابع لدراسة تخطيط طرقها لأهمية هذا التخطيط في تشكيل النسيج العمراني للبلدة، وكان فصله الأخير عن دور سدوس من خلال دراسة تحليلية لعناصرها المعمارية مع إشارة إلى ما حدث من تعديلات معمارية سواء أكانت مرتبطة بالتطور العمراني للبلدة أم مرتبطة بظروف كل دار على حدة. وسرد في الخاتمة نتائج هذه الدراسة.

وكان المؤلف قد استعان بعدد من الخرائط والجداول والأشكال واللوحات والصور الفوتوغرافية لتوثيق المعلومات التي أوردها في هذه الدراسة.



الصفار، حسن موسى/ علماء الدين: قراءة في الأدوار والمهام.ـ بيروت: دار الجديد، ١٩٩٩م، ٢٣٩ص.

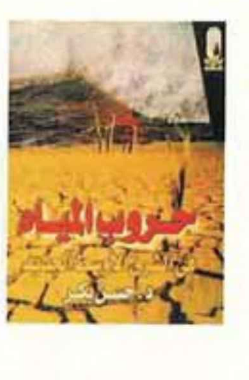
على الرغم من التقدم العلمي والتقني الذي حققته الحضارة الغربية المعاصرة، إلا أنها لم تستطع إلغاء الدين من حياة الناس ولا التعويض عنه، بل على العكس فقد أفرز هذا التقدم التقني كثيراً من الأزمات الاجتماعية، وأثار تساؤلات فلسفية وفكرية لا حصر لها.

وعودة الدين إلى حياة الناس أصبحت ظاهرة واضحة في المجتمعات البشرية وضمن مختلف الديانات، إلا أن الإسلام يأتي في طليعة هذه الديانات الأوسع انتشاراً والأقوى حضوراً، ومن هنا يأتي دور علماء المسلمين الذين تقع على عاتقهم مسؤولية تقديم البرامج والمعالجات على ضوء هدى الإسلام ومن خلال مبادئه وتعاليمه.

يقول المؤلف: «إن الأمر لا يتعلق بأشخاص، ولا بقضايا تمس فئة محددة، بل هو مرتبط كل الارتباط بالشأن العام، ومتصل كل الاتصال بمصلحة الدين والأمة، وقد آن أن تُعالج مثل هذه المواضيع بجرأة وانفتاح، وعبر الحوار الموضوعي».

يأمل المؤلف أن يساهم هذا الكتاب في بلورة الرؤية، ووضع برامج عمل للأدوار والمهام التي يطلع بها علماء الدين في حياة المجتمع، وأن تكون بعض المقترحات الواردة فيه محلا للنقاش وإبداء الرأي، وهو أمر مطلوب ومفيد لإغناء البحث، وتحقيق تلاقح الأفكار، وتكامل الآراء.

بكر، حسن/ حروب المياه في الشرق الأوسط الجديد.- القاهرة: ميريت للنشر والمعلومات، ٢٠٠٠م، ٢٥٤ص.



جاء في تقرير البنك الدولي الأخير حول التنمية «أن الحروب في القرن القادم لن تكون لأسباب سياسية ولا اقتصادية، وإنما ستكون حول هذا المورد النادر غير القابل للمساومة حوله: الماء، فهو صراع من أجل الحياة، ولذلك ستكون هذه الحروب شرسة مكثفة وغير قابلة للحل على المدى القصير».

وقد ضربت أزمة المياه كل دول العالم في إفريقية وآسيا وأمريكا اللاتينية حتى إنجلترا تعرضت هذا العام لموجة عارمة من الجفاف دفعت مدير مرفق المياه الإنجليزي إلى دعوة المواطنين إلى ترشيد استخدام المياه، وضرب مثلا بنفسه في عدم الاستحمام مدة ثلاثة أشهر.

يناقش الكتاب الأخطار التي تهدد دول منطقة الشرق الأوسط من جراء هذه الأزمة، ويحلل الأسباب التي قادت إليها، والنتائج المترتبة على هذا الوضع.

جاء الكتاب في مقدمة وخمسة فصول وخاتمة، كان فصله الأول بعنوان «الحرب على الموارد: صراع القرن القادم»، والثاني عن «الأبعاد العامة لأزمة المياه في الشرق الأوسط»، وناقش فصله الثالث «أزمة المياه في الشرق الأوسط وشمال إفريقية»، وأفرد الرابع للحديث عن «الصراع القادم في الشرق الأوسط»، وجاء الخامس حول «إدارة الصراع حول موارد المياه في الشرق الأوسط»، وقد استعان الكاتب بعدد من الخرائط والجداول لتوثيق المعلومات التي وردت في الكتاب.

الكتاب صرخة أطلقها الكاتب يحذر فيها من كارثة متوقعة «مالم نسارع منذ الآن سواء من خلال التعاون (خلق منظومة مائية علمية عربية) أو الصراع (حماية المياه العربية من خلال منظومة أمنية مائية عربية) أو كليهما، فلن نلوم إلا أنفسنا، يوم تدور الدوائر».

الهليل، عبدالرحمن عثمان/ النثر الجاهلي بين الأصالة والانتحال.- الرياض: دار المؤيد للنشر والتوزيع، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م، ١٩٣ص.



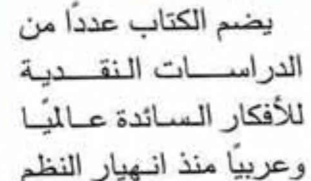
تعرض الأدب الجاهلي - شعره ونثره - للتشكيك في صحته، والقول بانتحاله من بعض الباحثين عرباً ومستشرقين.

وفي هذا الكتاب، الذي يعد من الكتب القلائل التي درست النثر الجاهلي بصفته موضوعاً مستقلا بذاته، يناقش المؤلف أفكار المتشككين في صحة النثر الجاهلي، متصدياً لمزاعمهم، ومفنداً حججهم، وذاكراً أوائل المثيرين لها كالضبي والأصمعي وابن سلام، ثم ما أثاره المستشرقون، أمثال بلاشير، وموير، والنقاد العرب كالرافعي، وطه حسين وغيرهم.

يقع الكتاب في مقدمة وتمهيد وأربعة فصول: جاء فصله الأول عن «قضية الأولية بين النثر والشعر»، والثاني عن «نشأة النثر الجاهلي وتطوره وروايته وتدوينه»، وتعرض في الثالث لمسألة «انتحال النثر الجاهلي في آثار الدارسين»، وختم في الرابع بالحديث عن «النثر وملامح الحياة الجاهلية».

حاول الكاتب - كما يقول في المقدمة - التزام الدقة والموضوعية في إصدار الأحكام والبعد عن

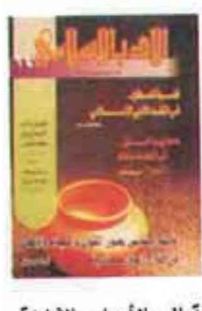
المجازفة والارتجال، وقدم تراجم لبعض أعلام الجاهليين، واقتصر في غير الجاهليين على إيراد تاريخ الوفاة فقط، وتاريخ الولادة والوفاة بالنسبة إلى المستشرقين.

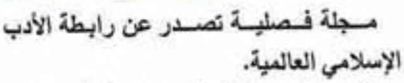


أمين، سمير/ مناخ العصر: رؤية نقدية.. بيروت: دار سينا للنشر، ١٩٩٩م، ١٩٢ص.

يضم الكتاب عدداً من الدراسات النقدية للأفكار السائدة عالميًا وعربيًا منذ انهيار النظم الاشتراكية في الشرق، والنظم الوطنية في العالم الثالث، وإعادة تحكم مبادئ الرأسمالية المعولمة تحكمًا مطلقًا دون بديل لها على ما يظهر، وهو تكملة لكتاب سابق كان قد صدر للمؤلف عام ١٩٩٧م تحت عنوان «في مواجهة أزمة عصرنا» تناول فيه الكاتب أهم الجوانب الاقتصادية والسياسية لهذا التطور الحديث، فجاء هذا الكتاب «مناخ العصر» مركزًا على الأبعاد الأيديولوجية التي ترمي إلى إضفاء مشروعية على الممارسات الاقتصادية والسياسية التي ترافق العولمة الرأسمالية الجديدة.

يقع الكتاب في ستة فصول: جاء فصله الأول عن «الثابت والمتغير في الفكر الاقتصادي المهيمن»، والثاني بعنوان «تجاوز أم تطوير الحداثة؟»، وتعرض في الثالث لـ «نقد أيديولوجيا المعلوماتية والاتصال»، وجاء الرابع عن «مقتضيات برنامج تحرري إنساني»، وعاد في الخامس «لمسألة الانتقال إلى الاشتراكية»، وختم بـ «العام والخاص في الديانات الكبرى».





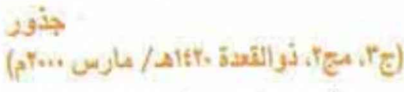
الأدب الإسلامي
(مج.٦، ع٢٤، ١٤٢٠هـ)

مجلة فصلية تصدر عن رابطة الأدب الإسلامي العالمية.

افتتح العدد بكلمة تأبين للشيخ أبي الحسن الندوي رئيس رابطة الأدب الإسلامي العالمية، وجاء العدد حافلا بعدد من المقالات والبحوث بأقلام عدد من الكتاب والأدباء والشعراء، إضافة إلى الأبواب الثابتة من ردود ومناقشات، والأقلام الواعدة، وأخبار الأدب الإسلامي.

اشتمل العدد كذلك على كشاف السنة السادسة لمجلة الأدب الإسلامي، الأعداد من (٢١ إلى ٢٤) ١٤١٩ ـ ١٤٢٠هـ/١٩٩٨ ـ ١٩٩٩م.

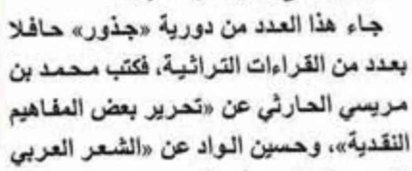




جذور
(ج٣، مج٢، ذو القعدة ١٤٢٠هـ/ مارس ٢٠٠٠م)

دورية تعنى بالتراث وقضاياه.

جاء هذا العدد من دورية «جذور» حافلا بعدد من القراءات التراثية، فكتب محمد بن مريسي الحارثي عن «تحرير بعض المفاهيم النقدية»، وحسين الواد عن «الشعر العربي القديم والتقاليد الأدبية»، وسعيد يقطين عن «بيان القراءة عند ابن المقفع» من خلال عرضه لكتاب كليلة ودمنة، وغير ذلك من البحوث والمقالات، إضافة إلى نص محاضرة قديمة لطه حسين ألقاها في تونس عام ١٩٥٧م تحت عنوان «رحلة فنية».

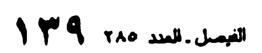


أدماتو
(العدد الأول شوال ١٤٢٠هـ/يناير ٢٠٠٠م)

مجلة نصف سنوية محكمة تعنى بآثار الوطن العربي، تصدر عن مؤسسة عبدالرحمن السديري الخيرية (الجوف ـ المملكة العربية السعودية).

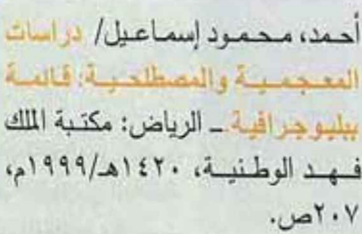
وهذا هو العدد الأول من مجلة أدماتو ـ الاسم التاريخي لدومة الجندل ـ التي تعد أول مجلة علمية محكمة متخصصة في الآثار العربية، ولها هيئة استشارية من كبار العلماء والباحثين في مجال الآثار العربية على مستوى العالمين العربي والعالمي، وقد تزامن صدور هذا العدد مع احتفال المملكة العربية السعودية بمرور مئة عام على تأسيسها، وتكوين اتحاد الآثاريين العرب برعاية الجامعة العربية الذي اتخذ من القاهرة مقرًا له.

تضمن هذا العدد جملة من الأبحاث القيّمة في مجال الآثار باللغتين العربية والإنجليزية بأقلام عدد من علماء الآثار العرب والأجانب، إضافة إلى عرض بعض الكتب والدوريات الأثرية والمؤتمرات والندوات الخاصة بالآثار داخل الوطن العربي وخارجه.

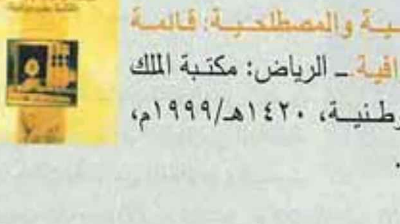




أحمد، محمود إسماعيل/ دراسات المعجمية والمصطلحية: قائمة ببليوجرافية.- الرياض: مكتبة الملك فهد الوطنية، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م، ٢٠٧ص.



البجاد، محمد بن ناصر بن محمد/ التحكيم في المملكة العربية السعودية.- الرياض: معهد الإدارة العامة، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م، ٢٥٠ص.



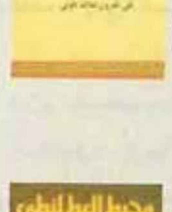
بركات، مصطفى/ الفهرس الوصفي للمخطوطات العلمية.- الرياض: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م، ٣٦٠ص.

الجراد، سعود حمود/ بورتريه للسيد مطبع وقصص أخرى.- حائل: النادي الأدبي بمنطقة حائل، ١٤٢٠هـ، ٩٩ص.



الجُهني، ليلى/ الفردوس اليباب (رواية).- كولونيا: منشورات الجمل، ١٩٩٩م، ١٠٠ص.

الجهيمان، عبدالكريم/ آراء فرد من الشعب.- بيروت: دار الكنوز الأدبية، ٢٠٠٠م، ٢٤٠ص.



بنت الحسين، آمال قرداش/ دور المرأة في خدمة الحديث في القرون الثلاثة الأولى.- قطر: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ١٤٢٠هـ، ٢٠٣ص (سلسلة كتاب الأمة؛ ٧٠).



الدريس، زياد بن عبدالله/ محيط العط النطي: مذكرات بيروقراطي بالنيابة.- لبنان: المطبعة العصرية، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م، ١٨٣ص.



السدحان، عبدالله بن ناصر/ الترويح وعوامل الانحراف: رؤية شرعية.- قطر: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ١٤٢٠هـ، ١٦٣ص (كتاب الأمة؛ ٧٤).



السيد، محمد قاري/ صناعة السياحة في المملكة العربية السعودية: السياحة في محافظة الطائف.- الطائف: م.ق. السيد، ١٤٢٠هـ، ٢٤٤ص.



ابن الشريف، جمال بن عمار/ سماحة الشيخ عبدالعزيز بن باز: عالم الحرمين والمفتي النصوح.- عين مليلة: دار الهدى، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م، ١٥٨ص.



الطلاع، رضوان بن ظاهر/ من فيض الخاطر مقالات وخواطر: طروحات وأبحاث تعليمية وتربوية.- الرياض: ر.ظ. الطلاع، ١٤٢٠هـ، ١٣٦ص (سلسلة الكتب كالرجال؛ ١).

طه، جمانة/ لك أغني: صورة وجدانية.ـ دمشق: إشبيلية للدراسات والنشر والتوزيع، ١٩٩٩م، ١٢٧ص.



عبدالواحد، أحمد/ الترجمة والتحلية في النثر الأندلسي في المئة الثامنة.ـ أبها: نادي أبها الأدبي، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م، ٢١٦ص.



العبودي، محمد بن ناصر/ بلاد التتار والبلغار.ـ مكه المكرمة: رابطة العالم الإسلامي، ١٤٢٠هـ، ٢٣٢ص (دعوة الحق؛ ١٨٨).



العقلا، سليمان بن صالح وفؤاد أحمد إسماعيل/ إنشاء الشبكات: المبادئ الأساسية لاختصاصيي المكتبات والمعلومات.ـ الرياض: مكتبة الملك فهد الوطنية، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م، ١٠٢ص.

العواجي، إبراهيم بن محمد/ الأعمال الشعرية (المجموعة الأولى).ـ الرياض: دار المداد للنشر والتوزيع، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م، ٥٨٤ص.



قاري، عبدالغفور عبدالفتاح/ معجم مصطلحات المكتبات والمعلومات.ـ الرياض: مكتبة الملك فهد الوطنية، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م، ٣٤٩ص.



القديري، ممدوح/ الهروب مع الوطن: قصص قصيرة.ـ القاهرة: مركز الحضارة العربية، ١٩٩٩م، ١٢٨ص.

كيلش، فرانك/ ثورة الإنفوميديا: الوسائط المعلوماتية وكيف تغير عالمنا وحياتك؟، ترجمة: حسام الدين زكريا.ـ الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م، ٥٤٣ص (سلسلة عالم المعرفة؛ ٢٥٣).



المقدسي، عبدالغني بن عبدالواحد/ فضائل رمضان، تحقيق: عمار بن سعيد تمالت الجزائري.ـ الرياض: دار ابن حزم للنشر والتوزيع، ١٤٢٠هـ، ١٠١ص.



النجراني، مختار بن محمود العجالي المعتزلي/ الكامل في الاستقصاء فيما بلغنا من كلام القدماء، تحقيق: السيد محمد الشاهد.ـ القاهرة: المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م، ٤٧١ص.



الهويمل، حسن بن فهد/ سعوديات ابن عثيمين سنة ١٣٦٣هـ.ـ أبها: نادي أبها الأدبي، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م، ١٠٣ص.



أربعمئة قطعة نادرة من آثار فجر التاريخ البشري

جان ألكسان
دمشق - سورية

عثر في سورية من خلال أعمال التنقيب في عقد التسعينيات الميلادي، على مكتشفات أثرية مهمة نادرة تعود إلى الفجر الأول للتاريخ، منها قطع أثرية نادرة يعود قسم منها إلى عصر ما قبل التاريخ، منذ بدء الخليقة حتى الألف الرابع قبل الميلاد.. ويعود قسم آخر إلى العصر البرونزي، ويمثل آثار سورية القديمة، ويعود قسم ثالث إلى العصر الكلاسيكي الذي يمثل الفترة الرومانية، واليونانية، والبيزنطية، ويعود القسم الرابع والأخير إلى العصر الإسلامي، أي إلى القرنين الثامن والتاسع الميلاديين. وبلغت حصيلة هذه المكتشفات مئات القطع الأثرية، كانت نتيجة لجهود بعثات التنقيب السورية الأوربية المشتركة، وقد عرضت منها أربعمئة قطعة في معرض بمدينة دمشق أقامته وزارة الثقافة والمديرية العامة للآثار والمتاحف، بالتعاون مع بعثة الاتحاد الأوربي في دمشق والمعاهد الأثرية الأجنبية العاملة في سورية، والمعروف أن هناك أكثر من ثمانين بعثة أثرية وطنية وأجنبية تعمل في مختلف المناطق الأثرية على الخريطة السورية، وذلك لما تختزن أرضها من كنوز أثرية يعود بعضها إلى مرحلة ما قبل التاريخ.

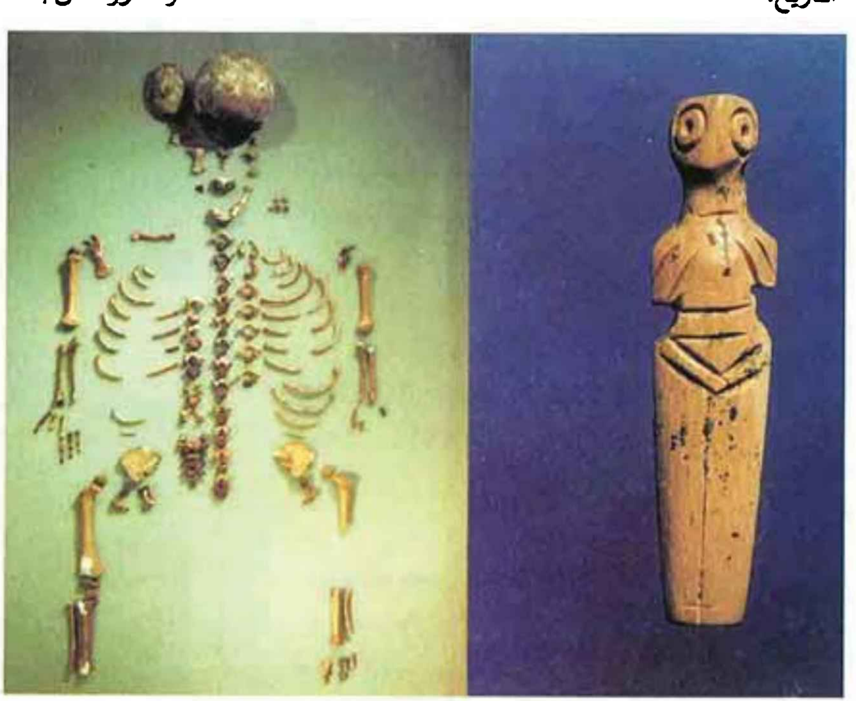
حصيلة آخر القرن العشرين

جميع القطع المختارة التي عرضت في هذا المعرض كانت حصيلة مكتشفات عقد التسعينيات (آخر القرن العشرين) للأقسام الأربعة التي عددناها.

والمعروف أن المديرية العامة للآثار والمتاحف في سورية أقامت علاقات علمية وطيدة مع الجامعات والمؤسسات التي تعنى بالبحث العلمي، محلية وعربية وأجنبية، وهناك مشاريع عمل مشتركة تشمل التنقيب والبحث والترميم، وإعداد الأطر (الكوادر)، واستخدام التقنيات الحديثة بما فيها تقنيات الاستشعار عن بعد في مجال الآثار.

أما فِرق (ورشات) الترميم فيتركز عملها بصورة خاصة في المدن القديمة وأحيائها، وكذلك القلاع والمنشآت المعمارية والتاريخية المتميزة، وتنتشر فِرق (ورشات) الصيانة والترميم في جميع المحافظات السورية، وتنجز هذه الأعمال ضمن خطة مدروسة تعتمد المبادئ العلمية المتعارف عليها في ميدان الترميم، كما أنها تولي الآثار العربية الإسلامية اهتماماً خاصاً.

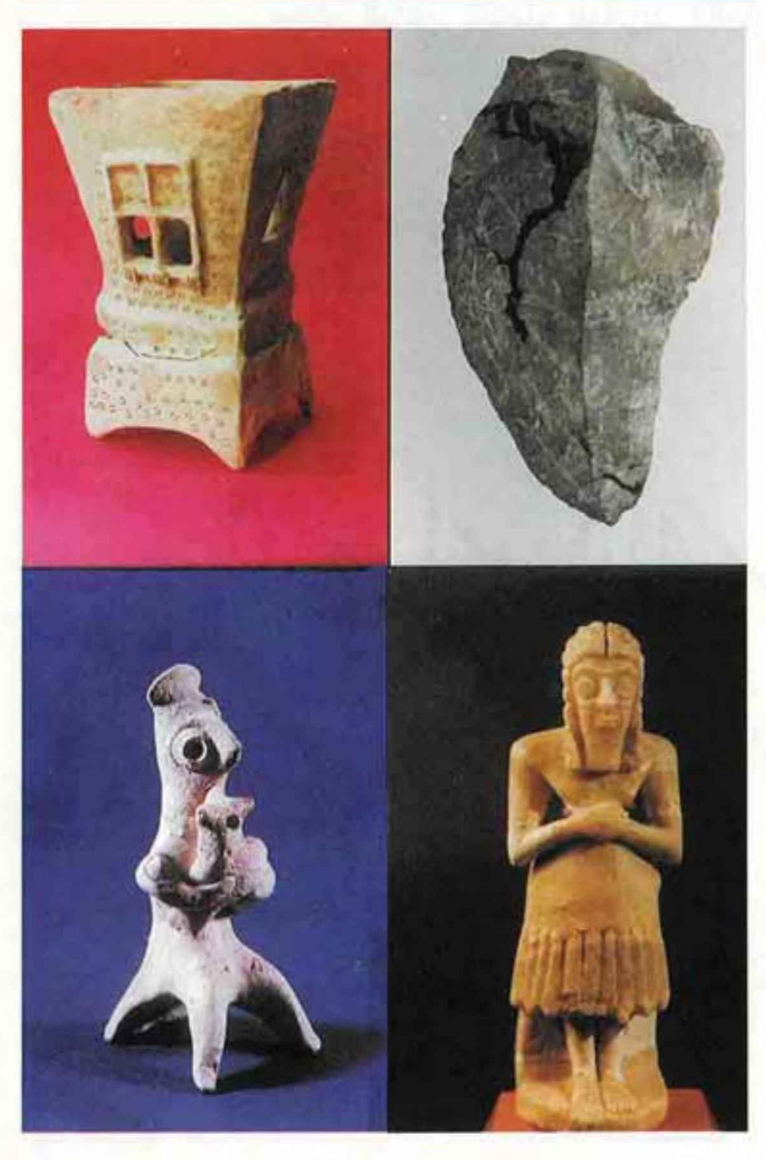
والمعروف أن بعثات التنقيب في سورية تعمل منذ أواخر القرن الماضي، وقد استمرت بعد الاستقلال بإشراف المديرية العامة للآثار والمتاحف ومشاركتها، وهناك بعثات تعمل في سورية من: اليابان، وأستراليا، والولايات المتحدة الأمريكية، وألمانيا، وسويسرا، وفرنسا، وبلجيكا، وإيطاليا، وهولندا، وبولونيا، وروسيا، وإيرلندا، وإنجلترا، وإسبانيا.



وهذه البعثات شاركت في الكشف عن الثروات الأثرية التي تعود إلى مختلف الحضارات المتعاقبة على سورية منذ عصور ما قبل التاريخ حتى الآن، وهناك مكتشفات تعود إلى ثلاثة أرباع مليون سنة، أي ما قبل التاريخ، وتمثل بداية الاستيطان، ونشوء القرى الزراعية الأولى في العالم.

ثلاث قاعات رئيسة

وزعت الأواني والآثار التي



اكتشفت مؤخراً على ثلاث قاعات رئيسة:

- في **القاعة الأولى**: عرضت مكتشفات مواقع عصور ما قبل التاريخ، مثل: جرف الأحمر، وأم التلال، والصبي الأبيض، ومشنقة.. وقد تميزت بعثة جرف الأحمر بأنها قدمت معطيات لم يسبق عرضها أو نشرها، تتعلق بالتحول من جماعات الصيد والجني إلى أوائل التجمعات الإنتاجية.

وتظهر الأواني المزينة تشابهاً كبيراً بنظيراتها في سامراء، شمال وسط العراق، وهذا يشير إلى تواصل وتفاعل بين المنطقتين، وهناك صور ورسوم وثائقية لقرية قديمة محترقة، ثم لأبنية حلقية دائرية، وهناك نماذج من الجرار المزوقة والمزركشة والأدوات الفخارية المختلفة تعود إلى ٥٢٠٠ سنة ق.م.

وفي تل (مشنقة) على ضفاف نهر الخابور، في المنطقة الشمالية الشرقية من سورية، اكتشفت نماذج من دُمى وأدوات ومقالع ومغازل وزوارق من القصب والزفت.

أما منطقة (أم التلال) التي تقع بين تدمر والفرات، فقد أعطت كما يقول الدكتور سلطان محيسن، المشرف على إدارة البعثة، أطول تسلسل أثري معروف، وعلى امتداد ٣٠٠ ألف سنة على الأقل. أما (تل حالولة) في محافظة حلب، فيعود الاستيطان فيه إلى ٨٧٠٠ سنة قبل الميلاد، وينضوي عمل البعثة العاملة فيه تحت إطار حملة الإنقاذ الدولية في وادي الفرات. وقد ظهرت في (أم التلال) صور وثائقية لبقايا عظمية وأحجار وصناعات حجرية، ويظهر مقطع لموقد قديم (تنور)، ورأس نبلة من الصوان، كما تظهر نماذج من آثار القار على أدوات الاستعمال المنزلية.

يقول الإعلامي مرهج محمد الذي تابع مراحل اكتشاف هذه الآثار: يظهر في جرف الأحمر رأس إنساني منحوت من الحجر الكلسي، بأنامل فنان ذلك العصر، فترة العصر الحجري الحديث ما قبل الفخار، وهناك حجر منحوت مزخرف من البازلت يحتوي على زخارف تقليدية هندسية، وشكلين لحيوانين: أحدهما رباعي الأرجل، والآخر طائر مفترس من الجوارح باسط جناحيه من فترة العصر الحجري الحديث، كما تبدو قلادة من حجر كريم من مستوى حجري أكثر حداثة.

هذا كله يبين لنا الاستخدام الواسع النطاق للصخور الموجودة في البيئة بأنواعها المختلفة، وتدل صناعة الشجر المشذب على استثمار مهم جداً للصوان المحلي، أو البعيد، بالإضافة إلى تقنية في الدق، وكان الصلصال مادة أولية لصناعة الأواني، كما استخدم العظم خلال فترة سكن القرية لصنع الأدوات (المخارز) وبعض عناصر الحلي والثياب.

- في القاعة الثانية: مكتشفات أثرية من عصور البرونز والحديد في إيبلا، وأوغاريت، ورأس ابن هانئ، وتل بيدر، وتل البيعة، والأنباشي، وتل العمارنة.

- في القاعة الثالثة: آثار كلاسيكية، عربية وإسلامية من دورا أوروبوس (صالحية الفرات) ومعبد أثريا والرصافة، وبصرى، وأفاميا، والرقة، وممسكنة، والرحبة، إلى جانب خمس وسبعين لوحة للمواقع الأثرية ومكتشفاتها تعرّفنا الحضارة العربية في سورية، في مختلف المراحل التاريخية، وذلك من خلال عرض كنوز فجر التاريخ التي استخرجت من ركام القرون.

أحدث إصدارات

مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية





التضامن الإسلامي

الفكرة والتاريخ

ودور المملكة العربية السعودية

الدكتور مانع بن حماد الجهني

١٤٢٠هـ-١٩٩٩م

صدر بمناسبة الاحتفال بمرور مئة عام على تأسيس المملكة العربية السعودية